ABDUL-KHALIK AL-RIKABI

رواية
NOVEL

عبد الخالق الرّكابي

أطراس الكلام

عبد الخالق الركابي

أطراس الكلام

رواية

إهـــداء

إلى عبدالله إبراهيم . . . إمتنانًا لتلك اليد
التي حررتْ قلمي من قيد الحاجة

(إنني أؤمن بالعــدالة ، ولكنْ عليّ أن أدافع عن أمّي قبل العدالة)

ألبير كامو

﴿اللهُ نورُ السمـوات والأرضِ مَثَلُ نورهِ كمـشكاة فيها مصباحٌ المصباحُ في زُجاجة الزُجاجةُ كأنَّها كـوكبٌ دُرّيٌّ يُوقـدُ مِنْ شَـجرة مُبـاركـة زيتـونة لا شرقيَّة ولا غربية يكادُ زيتُها يضيء ولو لم تمسسْهُ نارٌ نورٌ على نور يهدي اللهُ لنوره مَنْ يشاءُ ويضـربُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ واللهُ بكلّ شيء عليمٌ﴾

القرآن الكريم ـ سورة النور ـ الآية ٣٥

طاء الطريق

(١)

عبثًا بقيتُ متشبّثًا بسمّاعة الهاتف أستنطقها المزيد ؛ فقد انقطع الاتصال قبل أن أفهم حقيقة ما حصل ، بيد أنّ الكلمات التي حملتها لي الأسلاك من بُعْد مئات الكيلومترات كانت كافية لكي تعقد خيط ما انقطع : فإذا بتينك العينين ـ عيني أبي وقد علتهما غمامة الشيخوخة ـ ترمقانني بنظرة إدانة لا ترحم ، غامرتين إياي بشعور قديم بالإثم كنتُ أحسبه قد ذاب وتلاشى منذ اليوم الذي أوليت البيت ظهري قبل سنوات وقد عزمت على هجره إلى الأبد ، لكنْ . . شدّ ما كنت مخطئًا ؛ فها أنذا أكتشف أنّ الماضي لن يموت بتلك البساطة التي تصورتها ، وأنّ الأوجاع القديمة تظل تنبض في موضع ما من الروح ـ لا الجسد ـ في انتظار الظفر الذي ينكأ مصادفة الجرح لتبدأ الذكريات بالنزيف : إذ ها هي الوجوه القديمة التي غيّب التراب بعضها ، وأضاع بعضها الآخر تعاقب الأعوام ، ها هي تحمّلني وزر ما حصل : ها هو وجه جدي يطلّ من بين تلك الوجوه ليذكّرني ـ من وراء وحشة القبر ـ بعبث مسعاه معي ؛ فلا خيوله التي درجتْ بي على درب طفولتي نحو تخوم الرجولة ، ولا أرضه التي غرسها بالفسائل ليلاً ، برغم الرصاصات المنذرة الصافرة فوق رأسه في الظلام ، قد أفلحتْ في أداء مهمتها معي ؛ ذلك لأنني لم أكد أجابه بأول معضلة

اعترضتْ سبيلي حتى سارعت بالهرب تاركًا مدينتي إلى الأبد! . . وها هو وجه رؤى أيضًا . . رؤى الحبيبة . . رؤى الرومانسية التي برغم شغفها بالدراسة إلى درجة الجنون ـ كانت قد وضعتْ نصب عينيها أنْ تغدو طبيبة! ـ كانت تتسلل من مدرستها خلسة لأصحبها ، في غفلة من عيون أسرة من الذكور الطائشين الغيورين كانت الأنثى الوحيدة فيها ـ على النقيض من أسرتي التي كنتُ الذكر الوحيد فيها! ـ لمشاهدة أحد الأفلام الهندية ، تاركة لي يدها أعبث بها في ظلام الصالة على هواي ، شريطة أن أدعها تذرف ما شاءتْ من دموع على أحداث (ميلودرامية) غير قابلة للتصديق ، ها هو وجهها يطالعني ـ بعدما حصل ما حصل ـ بملامح مثقلة باللوعة تستدعي اليأس والقنوط!

– ها؟ أحدث مكروه لا سمح الله؟

تنبهتُ من شرودي ـ والسماعة المستقرة في كفي لا تزال ملتصقة بأذني ـ على صوت أسماء وهي تكلّمني من خلف مكتبها المواجه لمكتبي حيث تكدست أمامها (البروفات) وسط فوضى (رولات) تجارب طباعية تدلّتْ أطراف بعضها حتى مسّت الأرض .

بدتْ كعهدي بها عروساً في كامل زينتها ، لا ينقصها ـ كما اعتادتْ أن تكرر على سمعي مؤنّبة ـ سوى البرقع وثوب الزفاف!

– سأسافر .

أوجزتُ ردي بكلمة واحدة وأنا أطبق سماعة الهاتف . وانشغلت لحظات بدسّ الأوراق في أدراج مكتبي ، موزعاً إياها بحسب أصنافها : درج لنصوص القصة القصيرة ، وآخر للقصائد ، والثالث للدراسات النقدية ، والأخير للمتابعات .

– سأعوّل عليك في الحصول على الإجازة .

أضفتُ وأنا أقفل الدرج الرئيس ، داسّاً حلقة المفاتيح في أحد جيوبي ، فعلّقت أسماء عائبة وقد انفلتتْ من خلف مكتبها :

– يبدو أنه لا يحق لي العلم بما حمله الهاتف لك من أخبار!

فتركتُ بدوري مكتبي لأتلقاها في منتصف الغرفة . وبعدما اختلستُ نظرة سريعة نحو الباب الموارب جازفتُ باحتواء وجهها بين كفيّ . كان دافئاً وشهياً يِحرّض على التقبيل .

– لا أريد أن أعكّر عليك صفاء هذه النظرة .

كلّمتها متأملاً بشغف عينيها السوداوين وقد زادهما الكحل اتساعًا ، فأجابتني وهي تخفق بجفنيها بمكر :

– أخشى أنْ تكون قد عكّرتَ عليّ صفاء زينتي!

لثمتُ فمها الذي يعلوه (الروج) مستنشقًا عطرها ملء أنفي ، فسارعتْ تحرر وجهها من بين كفيّ هامسة :

– ما أشطرك في اغتنام الفرص!

كانت قبلة خاطفة تناسب الجو (الرسمي) المحيط بنا والذي تشهد عليه المكاتب الخالية من أصحابها ـ وثمة آلة طابعة جاثمة فوق أحدها ـ والخزانات الحديدية القائمة في الزوايا ، والجدران المزدانة بأغلفة أعداد من المجلة التي أعمل فيها محررًا ، وشجيرة الظل القابعة في موضعها قرب النافذة منذ سنين دون أن تنمو قيد أنملة!

– كان أحد أقاربي ، أتصل من بدّالة المدينة المركزية .

أوضحتُ لها وأنا أتحسس جيوبي تحسّبًا لنسيان شيء ما قد يعرقل افتقاده عليّ سفرتي كالنقود والهوية مثلاً ؛ فقد قررتُ التوجه من فوري إلى (كراج النهضة) دون إضاعة المزيد من الوقت بالمرور بشقّتي في (الدولعي) ؛ ذلك لأنني أدرك جيدًا أنّ آخر السيارات ستتوجه إلى مدينتي

عقب انتهاء الدوام الرسمي ، وأي تأخير يعني تأجيل سفري إلى يوم غد .

– تصوّري . . لقد ضيّع ذلك القريب نصف الوقت في محاولة بليدة ليشرح لي كيف أن شبكة الهواتف بلغتْ من السوء حداً بات معه الحصول على الرقم المنشود يقتضي وقوع معجزة ، فضلاً عن احتمال انقطاع الخط في أية لحظة ، وذلك ما حصل دون أن أفقه منه إلا أن ثمة أمرًا ما جرى لأبي!

– لا يوجد مسوّغ للقلق ؛ لعلهم أرادوا الاطمئنان عليك .

– لكنه أول اتصال هاتفي يجرونه معي منذ هجري مدينتي قبل أعوام طوال . . . أنسيت ذلك؟

– لا لم أنس ، كما أنني لم أنس أن الظروف تغيرت ، ولم تعد كالسابق ؛ ففضلاً عن الحصار ، هناك الطائرات الأمريكية التي تجوب يوميًا السماء قاصفة ما فاتها قصفه في أثناء الحرب .

كانت تحاول طمأنتي . . ولكنْ عبثًا ؛ فثمة شعور داخلي يوحي لي بأن أمرًا ما قد حصل يتعلق بأبي على وجه التحديد ؛ إذ ما سرّ سماحه لهم بإجراء هذا الاتصال وهو الرجل العنيد الصلب الذي لم يتنازل عن كبريائه بالسؤال عني في أشد أيامنا هولاً حين كانت بغداد تُقصف ، كل لحظة ، في حرب «عاصفة الصحراء» وعلى امتداد اثنين وأربعين يومًا؟!

قلتُ بعناد :

– لكنني موقن من أن أمرًا ما قد حصل لأبي ؛ فثمة شعور داخلي ينبئني بذلك . . . شعور ندر أن يخامرني ، ولكن حين يحصل لا يخطئ .

علّقتْ أسماء متأملة إياي بنظرة حائرة :

– لا أفهم سر تشاؤمك اليوم!

هجستُ بها تجهد فكرها للتخفيف عني . أسعدني حرصها ذاك ، بيد

أن مشكلتي تتلخص بهذا الشعور الداخلي الذي لا قدرة لي على تجاهله .

– قل لي : أتستطيع أن تعيّن موقع مدينتك على الخارطة على وجه التحديد؟

سألتني بغتة كأنها وقعتْ على الحل المناسب ، فأجبتها ضاحكًا :

– سؤال غريب يذكّرني بدرس الجغرافية زمن طفولتي!

لكنها سارعتْ إلى مقاطعتي بمنتهى الجدية :

– دعك من الهزل ؛ فما يشغلني هو التأكد من أن مدينتك الجنوبية ليست ضمن الخطوط المشمولة بحظر الطيران .

صدمني كلامها ؛ فقد بدا أشبه بصدى لذلك المنطق الأهوج الذي تحاول الطائرات الأمريكية فرضه بقوة الموت والدمار .

– اللعنة! . . . ليتني قضمتُ لساني قبل أن أفلت هذا الكلام!

صاحتْ أسماء وقد أدركتْ خطأها متأخرة ، معززة لدي ذلك الانطباع الذي قد يكمن خلف تذبذب علاقتنا حتى الآن ؛ فما أكثر ما ضيّعتْ على نفسها دأبًا صادقًا في ترسيخ ارتباطنا بكلام بليد على هذه الشاكلة!

– قصدي التأكد من أن أباك لم يذهب ، لا سمح الله ، ضحية إحدى غاراتهم .

تمتمتْ بانكسار ، فأجبتها مقرّعًا بعد ما طال صمتي أكثر من الحد المعقول :

– لا أحب أن أسمعك تتكلمين على هذه الشاكلة ؛ ذلك لأنه ما من خطوط طول أو عرض تمنع الأمريكيين عن القصف حين يقررون ذلك!

– أرجوك . . . لا تسئ فهمي!

كنت أعلم أنها لا تصمد طويلاً تحت وطأة التقريع ، كانت ستنفجر باكية في أية لحظة . غلبني الإشفاق عليها . رغبتُ في احتضانها . لكنني

كبحت رغبتي المفاجئة تلك ؛ ذلك لأن هذه الحركة كانت ستعجّل في انهيارها ، وذلك آخر ما أطيقه ؛ فالدموع ترعبني ، ولاسيما حينما أكون على سفر .

اتخذتُ سبيلي نحو الباب لأستدرك قبل أن أخرج :

– سأتصل بك من هناك . . . هذا إن سنحتْ فرصة لذلك ؛ فخطوط الهاتف ، كما ترين ، أضحت من ضمن الأهداف المرصودة من قبلهم!

غادرتها وأنا في شك من أن تكون قد أصغت لكلامي الأخير ؛ فما يشغلها اللحظة هو مغالبة دموعها خوفًا من أن تفسد عليها كحل عينيها ، ومن المؤكد أنها ستهرع ـ ووقع خطاي لا يزال يتناهى لسمعها ـ إلى حقيبتها اليدوية لتصلح ما أفسدته بحركتي الخرقاء من زينتها!

اجتزت الممرات والأروقة والأبواب والحدائق ، يطاردني لغط العاملين في الدائرة وهم يحاولون تمضية ساعات الدوام الثقيلة بالثرثرة ، والدق على الآلات الكاتبة ، والتهام ما جلبوه من وجبات خفيفة ، مصحوبة بعدد من إستكانات الشاي .

غادرتُ البناية كالهارب . كنت في واقع الأمر أهرب من نفسي ، ألوذ بضجة شوارع بغداد التي تكون عادة في مثل هذا الوقت من النهار ـ وقد أوشك الدوام الرسمي على الانتهاء ـ على أشدها ، مستمدًا من عزم الناس على الكفاح والعمل القدرة على الصمود . كنت أستجير بقدر الأطفال الذين حرمهم الحصار من أن ينعموا بطفولتهم كما ينبغي ؛ فشمروا عن سواعدهم الغضة ليبيعوا ما كان من حقهم التمتع بالتهامه من حلويات ولبان وشكولاته!

كنت أستغيث بهم لكي يعينوني على اجتياز المحنة ؛ فذلك النداء الهاتفي المبهم كاد يفقدني توازني!

وقفتُ عند المحطة الخاصة بحافلات نقل الركاب ، وفي انتظار مقدم إحداها أشعلت سيجارة ، محاولاً القيام بموازنة بين عدد الأيام التي أخاصم فيها أسماء وعدد الأيام التي أعمل خلالها على إصلاح ما أفسدته ، وكانت النتيجة مبعث حزن لي ؛ فقد هالني أننا نوشك أن نكون في الأشهر الأخيرة في خصام دائم ، تكاد أوهى مشكلة تفجّر بيننا خلافًا لا سبيل إلى علاجه ؛ فما أكثر ما انفجرتْ باكية وسارعتْ إلى اتهامي بأنني زهدتُ في حبها ؛ وذلك لأنني لم أتنبه إلى أمر استجد في زينتها : أقراط بالغة الصغر لابد من الاستعانة بناظور لاكتشافها وهي تتألق على طرفي أذنيها ، سلسلة ذهب مرهفة مثل خيط العنكبوت تحيط بعنقها ، عطر مستورد ـ اشترته بالعملة الصعبة! ـ لا قدرة لأنفي المسكين على تمييزه عن عطرها السابق!

أمور على تفاهتها أضحت تبعد أحدنا عن الآخر حتى انني بت أفكر برعب في نمط الحياة الزوجية الذي (سنتمتع) به تحت سقف واحد . كنت أحسب أن الزمن هو الكفيل بمعالجة تلك الأمور ، إلا أن الواقع كان يخيّب أملي ذاك ؛ فبعدما كانت أسماء في الماضي مصدر مباهاتي وغروري ، لا أملّ من الإشادة بمزاياها ، أمست في الآونة الأخيرة مبعث قلقي وحيرتي ، أستغيث بأقرب الأصدقاء ـ ولاسيما حين يجمعنا مجلس شراب ـ طالبًا منهم المشورة ، فكانوا يتبارون في تفسير أسباب تباعدنا ؛ إذ منهم من كان يعزوها إلى الحصار :

– سنوات تعاقبت وأنتما غير قادرين على الزواج ؛ لا سكن مناسب ـ فشقتك كما رأيتها بنفسي تقوم في أكثر الأزقة فقرًا وازدحامًا بالناس ، تكاد تكون أشبه بعش لقلق معلّق بنهاية سلّم ـ لا أثاث فخم ـ فالكتب والمجلات هي أثاثك الوحيد ـ لا راتب ملائم ـ فراتبك وما تحصل عليه من

مكافأت لقاء ما تنشر لا يكاد يشبع نهم صاحب عش اللقلق الذي يرفع الإيجار بين شهر وآخر - ما من حب - وليكن حب ليلى والمجنون - يبقى على صفائه السابق في مثل هذه الظروف!

وكان آخر - انسجامًا مع ماضٍ أسهمت السجون في ترسيخه - ينطلق من مفهوم أيديولوجي :

- إنه صراع الطبقات يا رفيقي ؛ أنت تحاول الانسلاخ عن منبتك الفلاحي المتواضع . . وهي تحاول التوفيق بين غرامها ووضعها البرجوازي - غرام ساكنة حيّ (المنصور - شارع الأميرات) لساكن منطقة (الدولعي)! - إنه اقتران غير مناسب محكوم عليه بالفشل منذ البداية!

وكان ثالث - مهووس بعلم النفس - يغترف من منطلق سيكولوجي مع لمسة تراثية :

- إنها سطوة العقل الباطن يا صاحبي . . ألم تحدّثني بقصة غرامك أيام المراهقة لابنة مدينتك تلك التي . . ما اسمها هدى؟ نهى؟ لا بل رؤى . . رؤى التي كانت تعشق الأفلام الهنديّة . . لن أنسى حديثك عنها وهي تحاول أنْ تلفت انتباهك بالتشبّه بالممثلات الهنديات وذلك بتزيين شعرها بـ (جنبدة) ، أو تطويق جيدها بعقد من زهور القداح . . لا يزال قلبك يميل إليها دون أنْ تدري ، وقديمًا قال الشاعر :

نقّلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأولِ
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدًا لأول منزلِ

كنت أصغي إليهم نصف مقتنع ، نصف رافض ، مفرّغًا نفسي في دخيلتي لانسياقي لأمر قد أكون أنا أقدر الناس على إدراكه ؛ وهو أنّ

علاقتنا تنطوي ـ من جانبي في أقلّ تقدير ـ على عيب لا علاج له : فالزهوّ هو الذي شدني إلى أسماء أكثر من الحب ؛ رأيتها ـ حين لقيتها أول مرة ـ محط إعجاب الجميع ؛ يستميتون من أجل إرضائها ، والسعيد منهم من ينجح في لفت انتباهها ، أما من يحظى منها بتحية الصباح فقد كان يشمخ بأنفه علينا غرورًا!

كانت دائمة الأناقة ؛ ندر أنْ تأتي إلى الدائرة بالثوب نفسه مرتين ، تسبقها رائحة عطرها النفاذة قبل دخولها غرفة المحررين بلحظات ، لتمكث فيها بعد مغادرتها بساعات ، يتصل بها موظف الاستعلامات ، عند انتهاء الدوام ، ليبلغها أن سائق أبيها في انتظارها بالسيارة ، وكان السؤال الذي يشغل الجميع يتعلق بجدوى إرهاق نفسها يوميًا باجتياز هذه المسافة المديدة التي تفصل بيتها عن الدائرة القائمة في (سبع أبكار) لقاء عمل وظيفي لا يعادل مرتبه الشهري مصروف جيبها اليومي؟!

وهكذا لم أصدّق نفسي حين رأيتها تبادرني ، دون الجميع ، بتحية الصباح ، لتطيل معي الكلام أكثر من الحد المتعارف عليه ، وكانت الذروة يوم قاسمتني وجبة طعامها التي انحدرت كالسم إلى معدتي ؛ فقد قضمتُ لساني أكثر من مرة بسبب نظرات الحسد التي لم يبخل الزملاء (الألداء) بها عليّ!

كان الأمر الذي حيّر الجميع هو سر تفضيلها إياي دونهم ، وهو أمر حيرني أنا بدوري ؛ ذلك لأنني لم أجد في نفسي ما يميزني عنهم ، بل لعلني ، بشرود ذهني الدائم وبسحنتي التي تعلوها الكآبة أبدًا وبطبيعتي المتحفظة التي هي أبعد ما تكون عن المرح ، كنت آخر المرشحين للارتباط معها بعلاقة صداقة ـ ناهيك عن علاقة عاطفية! ـ وكم كانت دهشتي يوم اكتشفت أنها معجبة لا تضارع بقصصي التي كنت أنشرها في المجلة التي

نعمل بها ـ كانت تكاد تحفظها عن ظهر قلب ؛ تتذكر تواريخ نشرها ، والأخطاء المطبعية التي وردت فيها ، والرسومات التي نفّذها المصمم لها واحدة واحدة . كانت ـ واهمة دون شك ـ تتوسم فيَّ مستقبلاً (استثنائيًا) في مجالي الإبداعي . وبما أنها كانت تؤمن بتلك المقولة التي مفادها (وراء كل رجل عظيم امرأة) فإنها كانت تحلم أن تكون تلك المرأة !!

كنتُ أدعها لأوهامها بطبيعة الحال ، مستمتعًا ـ أنا الذي حرمتُ من العلاقات العاطفية في مراهقتي بسبب تحكّم أبي في أدق أموري ـ بنظرات الحسد التي يرمقني بها الشباب في الشوارع والأسواق وهم يرون حسناء فاتنة بهذا المستوى من الجمال والأناقة متعلقة بذراعي ، غير متنبه إلى أن الأيام والأشهر والسنوات التي لا تكف عن التعاقب ستزيد من تعقيد اقتران أحدنا بالآخر ؛ فها نحن اليوم نفترق متخاصمين شأن الأعداء لا المحبّين!

أوقفتُ سيارة أجرة بعد ما يئستُ من وصول إحدى الحافلات .

– كراج النهضة .

أعطيتُ السائق العنوان وقد جلستُ بجانبه ، متأملاً بناية دائرتي وهي تتراجع على صفحة المرآة الجانبية لتختفي وراء عشرات البنايات التي لا تكف بدورها عن التراجع بسرعة خارقة .

إنها تقبع ورائي هناك ، في إحدى غرف تلك البناية ، قرب شجيرة الظل بطيئة النمو ، تتأمل وجهها في مرآتها الصغيرة ، واضعة آخر اللمسات على زينتها ، في حين تقبع أمامي ، على بعد مئات الكيلومترات ، فاجعة لن تستطيع زينة الدنيا كلها التخفيف من بشاعتها . . . مفارقة ليستْ وليدة اللحظة بالتأكيد ؛ فها أنذا أتذكر جولاتنا الطويلة في شوارع بغداد ، عقب انتهاء (عاصفة الصحراء) وإعلان وقف

إطلاق النار ، بأدق تفاصيلها . كنت كمن يتلمس بأنامل راجفة جسده بعد نجاته من زلزال مدمر قلب الدنيا رأسًا على عقب ، بحثًا عن أي جرح أو نزف فاته التنبه إليه في ذروة الفاجعة . كانت كل عمارة مصابة بقذيفة . . . وكل نصب تذكاري شوهته الشظايا . . . كل جدار مال على جنبه متهدمًا . . . كل سقف انبطح ملتصقًا بالأرض ، كل منشأة صناعية عطلت عن أداء مهمتها . . . كان كل ما خلّفته الحرب وراءها من دمار في كل حيّ من أحياء بغداد ـ سواء في (الكاظميّة) أم (الأعظميّة) أم (الوزيريّة) أم (باب المعظّم) أم (السنك) أم (الباب الشرقي) . . . ـ كان جرحًا ينزف ملء روحي . . . لم أكن أبكي بطبيعة الحال ، إنما أشعر بأن ما يجري في عروقي محض دموع لا دماء . . وكانت أسماء تشاركني في تألمي دون شك ، يحمر أنفها المرهف انفعالاً ، وتترقرق الدموع في عينيها السوداوين ، لكنها لم تفتها ملاحظة الأزياء الجديدة وهي تزهو على أجساد (المانيكانات) المنتصبة برشاقة خلف الواجهات الزجاجية ، كنت على ثقة من أن سائق أبيها سيمر ، بعد يوم أو يومين ، على تلك المحلات ليقتني لها ما أثار إعجابها!

لم أجد ضيرًا في ذلك لولا ما حصل لحظة وقفنا قرب (جسر الجمهورية) ، هذا الجسر الذي كان يشغل موضعًا أثيرًا لدينا نحن الاثنين ولاسيما في الأشهر الأولى لغرامنا ؛ فما أكثر ما اجتزناه نحو (الكرخ) أو (الرصافة) متشابكي اليدين ، وما أكثر ما اتكأنا على سياجه مراقبين النوارس وهي تحلّق في سماء دجلة الخالد تاركة الجرفين يرددان أصداء صرخاتها الحادة ، وما أكثر ما تأملنا من فوقه (نصب الحرية) الذي جعله (جواد سليم) على شكل لافتة عملاقة تعلو رؤوس الحشود في الأسفل ، ملخّصة نضال العراقيين ضدّ الغزاة والمحتلّين على امتداد الزمن .

كان الجسر قد انقصم من منتصفه . كان الموضع الذي اعتاد قلبانا النبض فوقه محض فراغ . . . كان ماضي غرامنا كله هناك منكس الرأس ، تعبث الأمواج بجرحه دون اكتراث!

في تلك اللحظة تنبـــهتُ إلى أســمـــاء وهي تكلّمني ، وحين استوضحتُ منها الأمر ، سألتني بمنتهى الجدية إن كان في وسعي العثور على مصوّر ليلتقط لنا صورة تذكارية يشكّل الجسر المنهار خلفيتها؟!

تأمّلتها لحظات قبل أن أجيبها :

– سأجد لك ذلك المصور ولكن ليس الآن . . . بل حين يربط الجسر (الرصافة) بـ (الكرخ) من جديد!

(٢)

ما كدتُ أغادر السيارة قبالة (كراج النهضة) حتى حظيتُ بمشهد طريف خفف بعض الشيء من كآبتي ؛ فقد شد انتباهي حشد صغير ، تجمّع تحت جسر المشاة ، يستمتع بمراقبة رجل ريفي - بدشداشة وحزام وطاقية وخفّين - وهو يحاول اجتياز الشارع نحو (الكراج) .

كان ضئيل الحجم ، محض عظام مغطاة بجلد دبغته الشمس ، أشبه ما يكون بذلك الصنف من طيور (الذعرة) الكثيرة الصخب والضجيج ؛ يراقب بعينيه الفأريتين القلقتين السيارات التي لا تكف عن التدفق ، في انتظار اللحظة المناسبة للعبور ، حتى إذا ما جازف بالتقدم خطوات ، وسط تشجيع الحشد ، تراجع متقهقرًا مع انطلاق أول نفير ، وعيناه تنطقان باليأس!

وتمرّ لحظات يستجمع خلالها شجاعته قبل أن يستجيب مرة أخرى لأصوات التشجيع : فينطلق بتهور حتى يكاد يبلغ الحاجز الوسطي ، لكنه سرعان ما ينقلب مخذولاً ، ليستقبله الحشد هذه المرة بضحكات تهكم!

- عجبًا . . لِمَ لا يستعين في العبور بالجسر ما دام غير قادر على اجتياز الشارع؟

تساءلتُ دهشًا ، فأجابني رجل أصلع متين البنيان بزندين مفتولين

مثل زنود المصارعين بدا شكله مألوفًا لديّ :

– يبدو أنه يحسب أنّ الجسر ما أقيم لعبور المشاة بل لتسير السيارات من تحتـه!

ورفع صوته مستهدفًا به سمع الرجل الضئيل دون شك :

– هيا . . اذبحها على قبلة وأرحنا يا (أبو خضر) .

والتفتَ نحوي مخاطبًا إياي بصوت خفيض :

– لقد ابتليتُ به ابتلاءً ؛ فمنذ لقائنا في (الشورجة) ومعرفته بأن وجهة سفرنا واحدة تمسّك بأذيالي كالغريق متوسلاً إليّ أنْ أعينه في الوصول إلى (الكراج) وذلك بمساعدته في عبور الشوارع بحجة أنّ أولاد الحرام قد استغلوا طمعه ، لكونه قد مدّ رجليه أبعد من غطائه ، فغدروا به مفقدين بذلك إيّاه رشده! . . أما من هم أولاد الحرام هؤلاء؟ فالعلم عند الله!

وأوسع الرجل من خطاه ليعترض سبيل (أبو خضر) ، الذي كان يهيئ نفسه لخوض مغامرة العبور مرة أخرى ، مخاطبًا إياه بضجر :

– أكتب علينا اليوم أنْ تزفنا حشود الناس كلما اعترض سبيلنا شارع؟ . . اسمح لي . .

استأذنه بأدب جمّ ليلتقطه من حزامه حاملاً إياه بين ذراعيه مثلما يُحمل الأطفال . واجتاز به الشارع وسط تصفيق الحشد ، دون أنْ يولي السيارات المنطلقة أدنى اهتمام ؛ مطمئنًا إلى أنّ سوّاقها سيوقفونها تلقائيًا بإزاء مشهدهما الطريف ، تاركًا صاحبه يجيل على ما حوله نظرات انتصار!

ومرقتُ بدوري في أثرهما لأفاجأ بـ (أبو خضر) يقفل محاولاً العودة من حيث حُمل في اللحظة التي مسّتْ فيها قدماه الرصيف لولا أنّ الآخر صاح وقد سارع إلى الإمساك بحزامه من الخلف :

- ألا تخبرني ما هي قصتك اليوم؟ أتشتهي التمزق تحت عجلات واحدة من هذه السيارات المنطلقة بسرعة الصواريخ؟

فتوسل إليه (أبو خضر) باذلاً أقصى جهوده للإفلات من قبضته الفولاذية :

- دعني ؛ فقد سقطت فردة خفي من قدمي .

- اهدأ . . اهدأ . . سأعيدها لك خلال لحظة . . امسك به يا أستاذ .

خاطبني وهو يرشدني إلى كيفية الإمساك بحزامه ، وتخطى الشارع ليعود خلال ثوانٍ بفردة الخف المنشودة التي رمى بها قرب قدم صاحبها وهو يعلق بأسى مصطنع :

- كان عليّ أنْ التقيك منذ سنوات لأدرك أن مهنة (الكيشوانية) هي التي تلائمني عوضًا عن تصليح السيارات!

وانطلق داخلاً (الكراج) وسط حشد الداخلين وصاحبه يهرول في أعقابه . وتبعتهما بدوري بعدما ابتعت علبة سجائر ، وقد ذكرتني رائحة الشواء المتصاعدة من أحد المطاعم القريبة بمبلغ جوعي ؛ فوجبة فطوري لم تتخط بيضة نصف مسلوقة سال صفارها وذهب هدرًا من ثنايا صمونة لا أتذكر ـ وأنا في عجلة من أمري للوصول إلى الدائرة في الوقت المناسب ـ كيف ازدرتها .

وأسهم منظر أكوام المعجّنات والفطائر ، المعروضة في زنابيل وأكياس بلاستيكية عند أبواب تلك المحلات الصغيرة القائمة على جانبي المدخل ، بتأجيج ذلك الجوع . إلا أنّ مرارة دخان السجائر التي أفرطت في تدخينها ، فضلاً عن رائحة دهن محترق صادرة عن عربة لبيع (الفلافل) ملأتاني بالغثيان . كان يكفيني أن أتناول أي شيء لأتقيأه من فوري .

في الداخل كان الزحام على أشده : يتقاطر الناس من شتى الأماكن

ليسارعوا إلى احتلال مقاعدهم في السيارات الواقفة بمحاذاة أرصفتها ـ حيث نداءات (الدلالين) تصدح بأسماء مختلف المدن العراقية ، تتخللها أصوات باعة الصحف والمجلات والسجائر والمرطبات والكرزات والحلويات ـ لتنطلق بهم نحو الخارج مفسحة المجال لسيارات أخرى سرعان ما تحتل مواضعها .

ما كدتُ أدنو من الرصيف الخاص بسيارات مدينتي حتى رأيت الرجلين اللذين سبق لي لقاؤهما عند جسر المشاة ينتظران هناك حيث بادرني (أبو خضر) دون مقدمات بالسؤال عن وجهتي ، وحين أخبرته التفت نحو صاحبه مبشرًا :

– حمدًا لله ؛ ها هو مسافر آخر ينضم إلينا يا رمزي ، وبذلك لم يعد ينقصنا الآن سوى خمسة عشر مسافرًا و . . سيارة!

فعلّق رمزي غامزًا إياي بإحدى عينيه :

– لا شك أنه يمت بصلة قربى للمرحوم جحا الذي خرج ذات يوم من بيته عاقدًا العزم على شراء دابة ، فعثر في طريقه على نعل ، فسجد لله شاكرًا معلنًا أنه لم يعد ينقصه سوى ثلاثة أخرى فضلاً عن الدابة نفسها!

وأضاف وقد التفت نحو (أبو خضر) :

– من أين نأتي بهؤلاء المسافرين الخمسة عشر وقد تلاحقت عشرات السيارات منطلقة نحو المدينة حال انتشار الخبر؟!

وكان منظر الرصيف الخالي من أية سيارة ـ خلاف الأرصفة الأخرى ـ خير برهان على صحة استنتاجه .

وحين سألتهما عن حقيقة ما حصل تبارى الاثنان في تأكيد استحالة معرفة ذلك ؛ فخطوط الهاتف قد انقطعت ، وما من سيارة قدمت من هناك بعد .

كانت الكارثة إذن جماعية أكبر من قلقي على أبي ؛ فذلك النداء الهاتفي المبتور الذي دفع بي إلى أن أهرع إلى هنا كان واحدًا من نداءات مماثلة حدت بعشرات الناس إلى أن يسبقوني في القدوم إلى (الكراج) لتحملهم السيارات إلى المدينة .

قضيت وقتًا طويلاً واقفًا تحت مظلة إسمنتية تعلو مقاعد كونكريتية مثبّتة بالرصيف مقلّبًا في ذهني مختلف الاحتمالات التي لم تخرج عما هو متوقع في مثل هذه الأيام : قصف جويّ مفاجئ بعذر من الأعذار المعهودة ـ أو دون عذر! ـ تَسبّبَ في سقوط عشرات الضحايا حيث حشود الناس تتدفق الآن نحو مستشفى المدينة المركزي الذي يكون قد غصّ بالأطباء والطبيبات والممرضين والممرضات وهم ، بصداريهم البيض ، في حركة دائبة بين الردهات التي لا تكاد أسرّتها تستوعب عشرات الجرحى والمصابين!

وعادتْ رؤى تطالع ذاكرتي بوجهها الحبيب ؛ فما من مرة اجتزنا ذلك الشارع ونحن في طريقنا إلى إحدى دور السينما إلا تلكّأتْ قرب بوابة المستشفى مخاطبة إياي مازحة :

– لا تنسَ ، حين تمر في المستقبل بهذا الموضع ، من أنْ تسأل عن . . الدكتورة رؤى . . فقد تتنازل فتستقبلك برغم ضيق وقتها!

وبدا (أبو خضر) نافد الصبر لانقضاء الوقت دون أن ينضم إلينا مسافر آخر ؛ ما يكاد يلمح رجلاً محمّلاً بحقيبة يمر عرضًا بالقرب منا حتى يهرع في استقباله ليسأله عن وجهته ؛ وذلك ما دفع برمزي إلى أن ينفجر به منذرًا :

– إن لم تكف عن اعتراض المسافرين كل لحظة سألتقطك من حزامك وأعيدك إلى الجانب الآخر من الشارع تاركًا حشود الناس تزفك

وأنت تستميت محاولاً العبور دون جدوى!

فصعّد (أبو خضر) نظرة متهيبة على قامة رمزي كأنه يحاول التأكد من قدرته على تنفيذ وعيده قبل أن يجيبه مهزومًا :

– لو عرفتَ بالمصيبة التي ورطتني (أم أولادي) بها لعذرتني على قلقي .

– كلنا قلقون على أحباب لنا هناك ؛ فأنا لي أخت هي آخر من تبقى من أفراد أسرتي الذين استشهد منهم من استشهد ، وفُقِدَ منهم من فُقِدَ ، وهاجر من هاجر طلبًا للرزق .

علّق رمزي بمرارة ، فعدتُ أتأمل وجهه وقد ازددتُ يقينًا من أنني سبق لي أن التقيته لا بشكل عابر ـ كما يصادف أن يلتقي اثنان يقطنان مدينة واحدة ـ بل ثمة موقف خاص جمعني به لا شك أن مرور هذه السنوات الطوال على هجري المدينة هو الذي غيّبه عن ذاكرتي اللحظة .

وكان (أبو خضر) قد هرع في استقبال امرأتين ـ كهلة وصبية في مقتبل العمر غارقتين في السواد ـ يسير في أعقابهما شاب ظاهر الأناقة ـ كان يرتدي ملابس رمادية بقميص أبيض وربطة عنق سوداء ، وثمة حقيبة صغيرة تتدلى من إحدى كتفيه ـ رافقهما إلى أحد المقاعد الإسمنتية ، حتى إذا ما جلستا تركهما لينضم إلينا سائلاً إيانا بقلق عما حصل مبقيًا عينيه مصوبتين نحوهما في انتظار أدنى إيماءة من إحداهما ليعتذر إلينا قبل أن يهرع جالبًا لهما خلال لحظات ما طلبتاه من مرطبات أو أكياس كرزات أو علب لبان .

كان ثمة ما يلفت الانتباه في علاقة الشاب بالمرأتين ؛ فبقدر ما كان هو يتحيّن الفرص للدنو منهما وخدمتهما ـ تحت نظرات التشجيع والإعجاب التي كانت الصبية تلاحقه بها ـ كانت المرأة المسنّة لا تتناول ما

كان يحمله لهما إلا على مضض ، لتكافئه في خاتمة المطاف بنظرة ضارية!

وكان (أبو خضر) قد أفلت من رقابة رمزي الصارمة فأخذ يهرول على هواه مستقبلاً الغادي والرائح ليكافأ على تعبه باصطحاب مسافرين اثنين انضما إلينا تحت المظلة .

كان المسافر الأول رجلاً تخطّى الثلاثين من عمره ، لم يكد يبادرنا بالسلام حتى أخذ يتنقّل بعدستي نظارته السميكتين بيننا مدقّقًا في وجوهنا النظر سائلاً إيانا بالتناوب عن سرّ عدم وجود سيارة مهيّأة للإقلاع من فورها إلى هناك؟

وحينما لم يمنحه أحدنا الجواب الشافي أوضح وقد عاد يدقّق النظر في وجوهنا :

ـ عليّ الإسراع بالالتحاق بمستشفى المدينة المركزيّ في مثل هذا الوقت الذي سيغصّ فيه بعشرات الجرحى ؛ ذلك لأنني أعمل فيه ممرضًا .

وكان المسافر الآخر رجلاً عجوزًا يتوكأ على عصا ، جاء به شاب بدا نسخة فتية منه ، قضى دقائق في مبادلته حوارًا هامسًا قبل أن يلثم يده مودعًا ، داسًا في أحد جيوبه شيئًا ما ـ خمّنتُ أنه رزمة نقود ـ ليغادرنا راجيًا إيانا أن نحيط والده برعايتنا ؛ ذلك لأنه يشكو من ضعف في ذاكرته قد يدفع به إلى مغادرة السيارة قبل الوصول إلى المكان المنشود .

وبدا الرجل العجوز في توكئه على عصاه يسبح في ملكوت أحلامه ؛ فقد أسبل جفنيه على عينيه الغائرتين ليكلّم نفسه همسًا من حين لآخر موزعًا الابتسامات من حوله!

ولم يعد (الكراج) يسع (أبو خضر) لحظة هرع لا لاستقبال مسافرين جدد هذه المرة بل سيارة (مرسيدس) زرقاء ذات ثمانية عشر مقعدًا ، تقدم منها مهللاً مكبرًا مرشدًا إياها بحركات من يديه ـ مثل شرطي المرور تمامًا ـ

إلى مكان الوقوف ، في حين تخطته السيارة هادرة لتقف بمحاذاة الرصيف مجرّعة إيانا أولى خيباتنا ؛ فقد أطفأ سائقها محركها في الوقت الذي كنا قد تزاحمنا عند مقدمتها وفي ظننا أنها ستحملنا من فورها إلى المدينة!

ومرّتْ لحظات مشحونة بالترقب ، وأعيننا مصوّبة نحو باب السيارة الذي انفتح في آخر الأمر ليشرف علينا السائق الذي تملانا بنظرة متعالية ـ لا تصدر عادة إلا عمن هو موقن من أنه يتحكم بمصير الآخرين! ـ قبل أن يتنازل بتحيتنا بهزة من رأسه . وبقي واقفًا في موضعه لحظات يطالعنا بفم مزموم كنا نترقب انفتاحه ملهوفين . وحين تحققت المعجزة خاطبنا بعبارة بالغة الاقتضاب :

– اسمحوا لي!

وهبط وقد حمل بذراع دلوًا وبالأخرى خرقة . وشق سبيله وسطنا متوجهًا نحو دورة المياه ليعود بعد دقائق ينوء تحت ثقل الدلو المملوء ماء .

وقضى وقتًا طويلاً في خضّ خرقته العتيدة في الماء ، حتى إذا ما استقام بظهره قضى وقتًا أطول في عصرها قبل أن يجلد بها زجاجة السيارة الأمامية معلنًا بنبرة حاسمة :

– لن أتحرّك بسيارتي إلا بعد اكتمال عدد الركاب!

فانبرى له الشاب معترضًا :

– وكيف تريد أن يكتمل وقد سبقتك عشرات السيارات بالتوجه إلى هناك حال انتشار الخبر؟

بيد أن السائق لم يتنازل بالرد عليه ؛ إنما اكتفى بأن تملاه بنظرة متباطئة ـ توقف بها عند خصلة الشعر الراقصة على جبينه والحقيبة المدلاة خلف كتفه باستهتار ـ ليواصل بعدها مسح الزجاجة بعزم أشد .

وتأجج انفعال الجميع فتشابك اللغط دفعة واحدة على شكل جمل

مبتورة تتخللها لعنات وشتائم مبهمة ، وبغتة ارتفع صوت (أبو خضر) مبشّرًا بقدوم مسافر جديد ؛ فاستدارت العيون متملية بشوق قامة كهل أنيق بالكوفية والعقال كان يهرول وقد تأبط عباءته المطوية ، مثبتًا باليد الأخرى العقال فوق رأسه .

لم يكد السائق يشخّص القادم الجديد حتى فحّ من بين أسنانه وقد ازداد وجهه العبوس تجهمًا :

– ها هو غراب الشؤم يأتي!

ومضى في مهادنة انفعاله ـ فقد أدركتُ من احمرار وجهه وتشنج عظمتي فكيه بحركات إيقاعية أنه بات مهيأ للانفجار في أية لحظة ـ بالتفنن في البحث والتنقيب عن أية لطخة ضئيلة تعكر صفاء الزجاجة ليسارع إلى مسحها بمنتهى الجدية والحرص وكأنما يستحيل على سيارته النجاح في السير بوجود ذلك العائق!

وصاح الممرض وهو يدقق النظر في وجه السائق عن قرب :

– لابد لك من الإسراع بالتحرّك بنا إلى هناك ؛ إذ يبدو أن سيارتك ستكون آخر السيارات المغادرة .

– أخشى أن تكون آخر السيارات قد غادرت (الكراج) منذ بعض الوقت!

أجابه السائق مواصلاً عمله بحماسة ، فعاد الرجل يقترح وقد كاد يلصق أنفه بوجهه :

– اسمع أيها الأخ . . نستطيع أن نزيد أجرتك . . ها؟ ما رأيك؟ أنا واثق من أن الجميع يؤيدني في رفع الأجرة . . أليس كذلك يا إخوان؟

طرح سؤاله وقد التفت نحونا وعدستا نظارته تخطفان بسطوعهما الأبصار ، بيد أن السائق تشاغل عنه بخضّ خرقته مجددًا في الدلو ،

وحين أفرد قامته قال ، والماء ينهمر بصخب من خرقته :

– ليست المسألة مسألة رفع الأجرة ، بل إن وضع سيارتي لا يبعث على الاطمئنان ؛ فثمة صوت مريب التقطته أذني يصدر عن المحرك .

– في هذه الحالة ما مسوّغ تعذيبنا بهذا الشكل؟ انقلع بسيارتك لنبحث لنا عن سيارة أخرى!

صاح الكهل الأنيق ، فجاراه السائق في الصياح بعزم أشد :

– سأنقلع وقتما أشاء ، وفي وسعك أنت اختيار السيارة التي ستوصلك إلى هناك ؛ فالنقود لا تعوزك كما أعلم جيدًا!

وتدخل رمزي محاولاً تهدئة الاثنين :

– اطمئن ؛ ما من صوت في المحرك يثير الريبة . . وأستطيع أن أراهنك على أنه لا عيب فيه . . وعلى كل حال في وسعك الاستعانة بي في حالة حصول عطل لا سمح الله .

فتساءل السائق وهو يعصر خرقته :

– وما أدراك أنت بمثل هذه الأمور؟

– أنا أعمل في أحد محلات تصليح السيارات في (الشيخ عمر) على بعد أمتار من (الكراج) .

واستطرد رمزي غامزًا السائق بطريقة مرحة مزينًا له الأمر :

– ستجد بي خير عون في المستقبل . . سأتكفل بتصليح سيارتك دون مقابل في حالة إصابتها بأي عطل .

– فأل الله ولا فألك! . . أتظنني سأجازف بتشغيل سيارتي بعد هذا الكلام الباعث على التشاؤم؟

عاد الكهل يصيح وقد خرج عن طوره هذه المرة :

– كفاك دلالاً يا أخي . . من يرك وأنت تعاملنا بهذا الشكل يحسب

أنك ستوصلنا إلى هناك حبًا بسواد أعيننا لا لقاء نقود!

فأطلق السائق لغضبه العنان :

– وفّر نقودك لنفسك ؛ فأنا أعلم أنك تملك منها الكثير . . يكفي أنك تاجر . . أعرف عدد (العلاوي) التي تملكها في (الشورجة) و(جميلة) . . أعرف ذلك . . كما أعرف أمورًا أخرى سأكاشفك بها عن طيب خاطر إن راقك ذلك!!

صعق التاجر ؛ فجال حوله بنظرة محرجة هاتفًا بصوت حاول عبثًا السيطرة عليه :

– ما شأنك أنت بما أملك؟ سبحان الله! . . أعليّ القبول بتعنتك لكوني أملك مالاً فضّل الله به عليّ؟ احتكم إلى ضميرك يا رجل . .

– دع ضميري وشأنه ؛ ذلك لأنه لا يشبع جوع أطفالي قيد شعرة!

أجابه السائق وهو يتملّى بنظرة ذات مغزى ملابس التاجر الأنيقة ـ السترة والزبون وسلسلة ساعة الجيب المدلاة على صدره ـ وجلد بخرقته الزجاجة بعنف ، حتى انني شعرت بالرذاذ المتطاير يمسّ ببرودته وجهي ، وأضاف مفرغًا ثورته بمسح الزجاجة بحركات عشوائية خرقاء أضاعت جهده الطويل في التدقيق في مسح أضأل اللطخات :

– لقد سلبنا التجار وأكلة السحت الحرام والجشعون الذين اتخذوا من الحصار وسيلة لمضاعفة ثرواتهم ، لقد سلبنا هؤلاء ضمائرنا بالتقسيط : فكلما مُدد الحصار فسارعوا إلى رفع الأسعار سلبونا جزءاً من ضمائرنا المسكينة!

كان الجو قد تكهرب . شعرت بأن الأمر مقبل على التعقيد . وحين حاولت التدخل لتهدئة الخواطر سبقني الشاب الأرعن بأن صاح دون أن يغادر الفتاة بعينيه :

– اسمع . . . لن يعفيك جشع الآخرين من أداء واجبك في مثل هذا الظرف الطارئ . . أتسمع؟ ليس في وسعك التنصل من ذلك بإحالة ضميرك على التقاعد ؛ لأنك في مثل هذه الحالة ملزم بالخضوع لحكم القانون!

أدركتُ مبلغ خطأي لأنني لم أتدخل في الوقت المناسب ؛ ذلك لأن الشاب لم يكن موفَّقًا في توقيت انتقاده الجارح ذاك ؛ فقد تجمدت يد السائق بالخرقة على زجاجة السيارة ، وامتدار نحوه ليسأله من بين أسنانه ، وقد شحب وجهه هذه المرة :

– أي قانون هو هذا الذي يلزمني بأن أذهب من تلقاء نفسي إلى حتفي؟ ها؟ أي قانون هذا؟

وتابع وقد أطلق لغضبه الحبيس العنان ، تاركًا خرقته تنزلق من بين أصابعه ساقطة ، راكلاً في الوقت نفسه الدلو الذي مال جانبًا ، فتدفق ماؤه في كل اتجاه :

– كيف تريدني لقاء مبلغ قد لا يوفر وجبة طعام لأسرتي أن أجازف بالتوجه بسيارتي إلى مدينة لا علم لي بالمصيبة التي نزلت بها؟ في وسعك أن تقطع هذه الأمتار المعدودة ، وتذهب إلى هناك ، حيث هواتف (الكراج) . . . جرِّب أن تطلب بدالة مدينتك ألف مرة . . . أتدري ما الجواب الذي ستحظى به؟ إنه لا يتخطى الـ . . . طوط . . طوط . . طوط . .

منعتُ بصعوبة ابتسامة كادت تمطّ فمي على الرغم مني ؛ فقد أجاد السائق ـ في ذروة غضبه ـ تقليد ذلك الصوت الرتيب الذي يتردد عادة في الهاتف حينما يكون الخط مشغولاً .

تدخلتُ في محاولة يائسة للتهدئة :

– لا يوجد مسوّغ لتضخيم الأمور بهذا الشكل . . . سنعرف كل

شيء خلال ساعات . . . من المؤكد أن ثمة تصريحًا للناطق العسكري سيذاع .

وأدى كلامي مفعوله ؛ فقد هدأ السائق قليلاً حتى انه شرع يجول بنظراته حوله بحثًا عن شيء ما ، حتى إذا ما اهتدى إلى خرقته التقطها بمنتهى الحرص ليلقي بها في جوف الدلو الذي دسه داخل سيارته . وأردف محاولاً تسويغ موقفه :

– اعذروني يا جماعة فهذه السيارة هي مصدر رزق أسرتي الوحيد ؛ إنها مبعث أملهم ومحط رعايتهم الدائمة ، وما من مرة قامت فيها زوجتي بزيارة إلى أحد الأئمة في (كربلاء) أو (النجف) إلا وجاءت منه بشيء ما علقته هناك في الداخل فوق المقود كتميمة تحميها من المصائب والكوارث . كما أنها تحرص ، من حين لآخر ، على حرملتها من (دشبولها) حتى (صالنصتها) تاركة حبات الحرمل تطق مثلما تطق أعين الحساد!

وأضاف وقد عاد يصوّب عينيه نحو الشاب :

– ما الذي يخسره هو بذهابه إلى هناك؟ ربطة عنقه؟ أم حقيبته التي قد لا تضم في جوفها أكثر من قميص ومشط وقنينة عطر؟

بدا من الواضح أن المشادة قد ترشحتْ مجدداً للتأجج لولا أن (أبو خضر) فاجأنا بأن رفع صوته نادبًا سوء حظه :

– لعن الله تلك الساعة التي فكرتُ فيها بمدّ رجليّ أبعد من غطائي . . . لعن الله تلك الساعة!

ارتفعت ضحكات مفاجئة ، وردد رمزي المثل المعروف (عرب وين؟ طنبوره وين؟) ، وأدار أكثر من واحد كفه المكوّرة قرب جبينه دلالة كون الرجل ممسوسًا . وبدا الشاب وكأنه وجد في ما حدث فرصة للتهرّب من مواجهة لن تأتي عليه بالنفع بالتأكيد ، فعاد إلى ملاحقة الفتاة بنظراته

التي كانت تحظى باستجابتها برغم مراقبة المرأة الأخرى!

- استهدِ بالرحمن يا بني . . استهد بالرحمن . . .

صاح الرجل العجوز أخيرًا وقد قرر الخروج من ملكوت أحلامه ، فتمتم السائق بخشوع :

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

فعاد العجوز يسترسل في كلامه بالرقة نفسها ، مكرراً بعض كلماته كما هو شأن من يكون في سنه :

- بارك الله فيك يا ولدي . . . بارك الله فيك . . . لا مسوّغ لتهويل الأمر . . لعل ما حصل ليس بالسوء الذي تتصوره . . . لعله محض غارة . . . نعم محض غارة من هذه الغارات التي اعتدنا النوم والاستيقاظ على وقعها بعد ما نسينا العالم من حولنا . . . لعل الأمر كذلك .

سارعتُ بالتدخل ، مستثمراً الهدوء الذي شمل الجميع :

- من المؤكد أن الأمر كذلك . . . محض غارة لا يعلم إلا الله بما خلّفت من ضحايا قد يكون من بينهم من يمت بصلة قربى لنا نحن الذين نستصرخ ضميرك لإيصالنا إلى هناك لنعرف حقيقة ما حصل .

وشدّتِ المرأة الأكبر سنًا من أزري بأن قالت من بين ثنايا فوطتها التي كانت قد تلثمت بها ، لافة العباءة حول جسدها بإحكام :

- نحن في عهدتك يا وليدي . . . أنا والدة شهيد ، وابنتي هذه أخته . . أيرضيك أن . .

وصمتتْ وقد غصّ صوتها بالدموع ، فأخذ السائق يجول بعينيه حوله طارفًا بأجفانه وهو في حيرة من أمره ، فخاطبته مغتنماً الفرصة السانحة :

- لا تشغل بالك بعدم اكتمال عدد الركاب ؛ ففي وسعنا تعويضك عن العدد الناقص ، فضلاً عن رفع الأجرة . . . وأنا شخصيًا على

استعداد لأدفع عن راكبين لقاء مشاركتك في الصدر .

ونال اقتراحي استحسان المسافرين باستثناء الشاب ، الأمر الذي هدد بتأزم الوضع مرة أخرى ، فتدخلتُ محاولاً تسويغ موقف الشاب تلافيًا لأزمة جديدة :

- اعذره . . . لعله لا يملك . . .

لكن الشاب قاطعني بغلظة :

- لا . . . ليس الأمر كما تتوهم ؛ فلدي أنا المال اللازم وزيادة . لكنني لا أرضى أن أغدو ضحية للجشع والاستغلال .

- أنا جشع ومستغل؟

صاح السائق منتفضًا ، فسارعت إلى الإمساك بمعصمه . ودفعته إلى داخل سيارته بعدما فتحت بابها بيدي الطليقة وأنا أهمس له :

- هيا . . . لا تضيّع وقتك بالرد على كل ما يقال . . . توكل على الله فالشمس لن تلبث أن تميل غربًا .

والتفتُ نحو الآخرين مهيبًا بهم بكل صرامة :

- وأنتم يا إخوان . . . هيا . . . خذوا أماكنكم . . . لا مسوّغ لتأخير الرجل أكثر .

فتدافعوا نحو المقاعد غير مصدقين الأمر . وحشرتِ الأم ابنتها على آخر المقاعد وقد تنبهتْ دون شك إلى أن ثمة أمرًا ما على وشك أن يبدأ في غفلة منها!

جلستُ على المقعد الأمامي ، متأملاً تلك التمائم التي تؤطر القسم العلوي لزجاجة السيارة ـ آية الكرسي ، حجابات ، كف مفتوحة الأصابع تتوسطها عين زرقاء ، خضرمات وخرز ، سبحة سوداء طويلة ـ مفكرًا بزوجة السائق في زياراتها الدورية إلى الأئمة ، والدموع التي ذرفتها وهي تناجيهم

مستعطفة ، تاركة في عهدتهم مصير زوجها المرتبط بمصير سيارة هجستُ بها وقد تحولت إلى كائن حي يستدعي الرعاية والحنان!

واستدار السائق بوجهه نحوي ليخاطبني بصوت أدركتُ أنه يستهدف به سمع الشاب :

– ليس الجشع والاستغلال محض كلمتين نلوكهما في أفواهنا لاهين لنسارع إلى بصقهما في وجه أول من يخالفنا الرأي .

وأضاف بصوت يقطر مرارة وقد صوّب عينيه نحو المرآة الداخلية التي تعلو رأسه بحثًا عن الشاب الذي لحته ، قبل أن أجلس ، يحتل مقعدًا يسمح له بمبادلة الفتاة النظر :

– ثمة تاجر كان يسكن في مواجهة شقتي التي لا تكاد تستوعب أفراد أسرتي الذين ينمون ويتكاثرون كالأرانب . . .

والتفتَ بوجهه العبوس نحو الركاب وقد استند بزنده المشعر إلى المسند الخلفي لمقعده ، مخاطبا إياهم هذه المرة وجهًا لوجه :

– لم يكد يمضي على فرض الحصار علينا عامان أو ثلاثة حتى أفلح في شراء البيوت المحيطة ببيته من جميع الجوانب ، عاهدًا بها إلى فوج من عمال بناء تحت إشراف مقاولين ومهندسين يعملون ليل نهار في تشييد بناء عجيب أخذ مظهره الباذخ يشعرنا ـ نحن سكان منطقة (الملحانيّة) ـ بالعار والخجل من شكل شققنا وبيوتنا المتواضعة التي أشبه ما تكون ببيوت الدمى!

وتساءل وقد عاد بوجهه إلى الأمام داسًا مفتاح التشغيل في موضعه :

– أتستطيعون أن تخمّنوا ما يعمد إلى اتباعه كلما مُدد الحصار علينا؟

وأدار المفتاح ليصبح في الوقت نفسه رافعًا صوته فوق هدير المحرك :

– إنه يذبح خروفًا شكرًا لله!!

(٣)

في بداية الرحلة ساد صمت متوتر مشحون بالترقب على الركاب كأنهم في شك من أنهم أفلحوا في إقناع هذا السائق العنيد بإيصالهم إلى مدينة يعدّون اللحظات قلقًا للوصول إليها .

كنت في واقع الأمر أشاركهم في شعورهم ذاك ، أدعو ربي في سري ألاّ يحدث ما يسبّب في تعكير مزاج السائق ليستدير بنا راجعًا إلى (الكراج) ، بيد أن الدقائق تعاقبت دون أن يحدث ما يستدعي القلق ؛ فقد انصرف الرجل بكل كيانه إلى قيادة سيارته بسلام وسط أرتال سيارات تنطلق في الاتجاه نفسه ، وفي عمق المرآة الجانبية لاح لي بعض الركاب وقد استداروا بوجوههم نحو نوافذهم ، متأملين ما نمر به ، وقد استرخت قسماتهم بعد طول توتر ، كأنهم اطمأنوا إلى أنهم شرعوا في الانطلاق نحو الاتجاه الصحيح .

وكانت السيارة قد ارتقت بنا الطريق السريع ، حيث معالم بغداد امتدت تحت بصري من ذلك العلو كتلاً خرسانية على شكل بيوت ومعامل ومنشآت ومدارس وأسواق ، تتقاطع على امتدادها أو تتوازى شوارع وأزقة وجسور مشاة ، تخفف من جهامتها بعض الشيء خضرة أشجار النخيل والسدر واليوكالبتوس ، وهنا وهناك تبرز فجأة عمارة عملاقة تجذب

بارتفاعها الشاهق الانتباه . وإلى اليسار ، من خلف بضع بنايات تراجعت إلى الوراء ، لاح (نصب الشهيد) بفلقتي قبته الشذريتين اللتين بدتا وكأنهما تنفرجان ببطء منفتحتين إحداهما عن الأخرى ، فاسحتين المجال لروح الشهيد الحبيسة في الأسفل لتنطلق نحو زرقة سماء نيسان المتقلبة .

وخطر أبي في ذهني من جديد .

أيكون قد ذهب ضحيّة ما جرى هناك اليوم؟

كاد ذلك السؤال ينفلت مني بصوت مسموع لولا تنبّهي إلى أنني لستُ وحدي ؛ فركّاب السيارة يتراصفون خلفي على مقاعدهم ، والسائق على مقربة مني يتحيّن أول فرصة ليبادرني بالكلام!

وخفق قلبي هلعًا وقد شعرتُ بأبي ينفض عن ركام الماضي الغبار ليحدجني بإحدى نظراته المخيفة التي كانت أكثر وقعًا آلاف المرات من صفعات أمي التي كنا - أنا وشقيقاتي اللائي يكبرنني في العمر - نتقبّلها وأجسادنا الضئيلة تختضّ بضحك مكتوم . كان يكفي أبي أن يصعقني بواحدة من نظراته تلك لكي أنكمش على نفسي طوال ذلك النهار ، أتجنب الطعام والشراب في انتظار صباح اليوم التالي وسماع صوته وهو يدعوني إلى غرفته لأعلم أنه صفح عني!

ووجدتني أستعيد - وسط صمت الركاب الذي كان رمزي الوحيد الذي يحاول تبديده بتعليقات فكهة يكون (أبو خضر) ضحيتها عادة! - ذكرى تلك الأيام الغابرة حينما كنتُ أدلف بخطى متهيبة داخلاً تلك الغرفة التي كان أبي يحظر على غيره تخطّي عتبتها بغيابه - ذلك الغياب الدائم الذي لم يكن ينقطع إلا على مدد متباعدة ، في الأعياد والإجازات ، حينما كان يأتي بملابسه العسكرية التي تعلو كمها الأيمن ثلاثة خيوط سود ، والتي كانت مصدر فخر أمي في الزقاق ، فيخيم على

البيت صمت متوتر ، نتبادل خلاله الحديث همسًا ، وأعيننا تتطلع برهبة نحو الباب المغلق ـ في تلك الغرفة شبه المعتمة ، والتي لا يكاد المصباح الكهربائي المتدلي من سقفها المرتفع يضيء أثاثها المتواضع الذي عمله أبي بنفسه ـ خزانة خشبية ذات باب بضلفتين إلى اليمين ، وسرير وبضعة كراسي معمولة من جريد النخيل موزعة إلى اليسار ـ في تلك الغرفة المزدانة بعشرات البنادق التي تعلوها صورة جدي ، كنت أمكث مع أبي ساعات طوالاً وسط بنادقه التي حصل عليها بطرق شتى : فالبندقية التي (يعاشرها) ـ بحسب تعبيره ـ مدة من الزمن لا يستطيع التخلي عنها بسهولة ، ولابد من الحصول عليها أو على صنف مماثل لها يذكّره بها . كنت أظل قابعًا في مواجهته على البساط ، وعيناي تتابعان أصابعه الغليظة الملطخة بدهن (الجمام) وهو منهمك بتفكيك تلك البنادق وتزييتها وإعادة تركيبها ، في حين يكون ذهني منصرفا لصبية الزقاق الذين لا تكف مقاليعهم عن اقتناص العصافير!

– تأكد أن هذه البنادق هي الإرث الوحيد الذي سأخلّفه لك بعد موتي ؛ فدونها لا تساوي حياتك فلسًا أحمر!

ذلك ما كان أبي يردده على سمعي وهو يلقنني مفرداته العسكرية البحتة المتعلقة بالبنادق وملحقاتها من (قوانات) الرصاص الجلدية ، وأصناف الطلقات (الكرخانة) و(الشدادة) التي يحرص على تعليمي كيفية تعبئتها : فيريني (البوشة) التي تتوسط الكبسولة . ومن كيس (الشمتة) ـ الذي كان لا ينسى التنويه بضرورة وضعه في مكان جاف وبعيد عن النار ـ كان يملؤها بالكمية اللازمة من البارود ، ومن ثم يردفها بالرصاصة . ومثلما كان المعلم يصدع رأسي في المدرسة بأسماء حروف الهجاء ، كان أبي يلقنني أبجديته الخاصة التي تبدأ بأجزاء البندقية من

(لولة) و(كنداغ) و(فرشة) و(طرنبة) و(دبج) و(عقرب) ، وتنتهي بأسماء بنادقه البدائية من (أم وريدة) و(أم جنيح) و(أم قوطي) و(بشتاوة) تلك البندقية القصيرة بأصنافها الثلاثة : (الفرد) ذات الأنبوبة الواحدة ، و(المطبجة) ذات الأنبوبتين المتجاورتين ، و(المركوبة) ذات الأنبوبتين اللتين تعلو إحداهما الأخرى ، و(المطموسة) و(الدلعة) و(الشريفية) و(المسلوبة) و(الماطلية) و(الطكاكة) و(البرنو) و(الكسرية) .

كان يعبئ ذهني بتلك الأسماء ذات الإيقاع الخشن والمسكونة جميعها بالموت دون أن يكتشف أن ضجري منها ـ بل منه هو أيضًا ـ ينمو باطراد . وازدادت القضية تعقيدًا حينما أحيل على التقاعد ؛ فقد حوّل البيت إلى ثكنة حقيقية لا ينقصها سوى مدفع ، وحوّل وجبات الطعام إلى (ساحة عرضات) لم نكن نستغرب لو أعجبه أن يدعونا إليها على صوت بوق . ولا أزال أتذكر ذلك اليوم الذي خطرتْ في ذهنه فكرة البحث عن صورة يتيمة كانت له وهو برتبة عريف . وأضناني البحث طوال نهار كامل كان عليّ خلاله ملاحقته في تنقله المحموم خلال غرف البيت ، نابشًا في صرر أمي وأكياسها وزنابيلها العامرة بكل ما يخطر في البال بدءاً بفئران تمرق هاربة ، ومرورًا بزجاجات فارغة وأخرى تحتوي على مواد غامضة لا يعلم سرها الا الله ، فضلاً عن أكياس حناء وثمار مجففة ولحاء جوز وحلي فضية وجلود ثعابين ، انتهاء بحبوب (أسبرين) كانت تأتي بها أمي على دفعات من المستشفى كدواء وحيد لكل ما وجد على سطح الأرض من أمراض!

وبعد بحث طويل لم نقع إلا على صورة شمسية ظهر فيها أبي بالكوفية والعقال وقد أسند كفه إلى ركبتيه ، وعيناه الصغيرتان المتلامعتان حول منبت أنفه الكبير مثبتتان في عيني الناظر مباشرة بشيء من

التحدي والعناد ، كأنه يتوعد المصور المجهول ، أو من لا تعجبه الصورة بالويل والثبور . وكاد اليأس يتطرق إلى قلبينا بعد ما لم تبق أمامنا سوى صورة واحدة . وكنا قد تحولنا إلى كائنين خرافيين يغطينا الغبار ونسيج العنكبوت وتفوح من ثيابنا رائحة زبل الفئران . وكان أبي قد أوشك أن ينفجر ساخطًا حينما تهللت أساريره وهو يستل الصورة المنشودة التي بدا فيها بهيئة جانبية ، عيناه شرستان حد اللعنة ، وقد صالب ذراعه اليمنى ، التي تعلو كمها ثلاثة خيوط سود ، باتجاه العدسة مباشرة حتى بدتْ أضخم من حجمها الحقيقي ، مثلما تظهر أذرع بعض الممثلين في أفلام (الكاوبوي) . بدا من الواضح أن كل همه كان منصرفًا إلى تلك الخيوط العتيدة التي لو لم يظهرها المصور لكان أبي كافأه بعين مزدانة بهالة بنفسجية لم تكن تبهجه بالتأكيد!

وانتهت متاعب أبي لتبدأ هذه المرة متاعبي أنا ؛ فقد كان عليّ التوجّه إلى (إستوديو) سبق له التعامل معه منذ زمن بعيد من أجل تكبير الصورة . ولحظة حاولت الخروج لم ينس أن يؤكد عليّ ضرورة ألا أنساق لأفكاري فتضيع الصورة مني (لا سمح الله!) . . . مكررًا على سمعي للمرة الألف بأن لا أدع المصور يستغفلني فيبتر الصورة عند الخيوط . ويوم تسلم الصورة اعتصم بغرفته ، مطبقًا الباب وراءه . واجتمع شمل الأسرة بأكملها بدءًا بأمي وانتهاء بي أنا أصغر أفراد الأسرة . وعلى مدى وقت طويل بقينا نتطلع بعيون ساكنة نحو الباب الذي تردد من خلفه صرير منشار يعمل في الخشب ، أعقبه أزيز حجر ماس يقطع الزجاج ، ومن ثم ضربات مطرقة ، وصوت تهشم شيء ما ، غادر بعدها أبي الغرفة بسبابة مفردة يسيل منها الدم . وحينما شهقت أمي مستفظعة نهرها بقسوة ، طالبًا منها إعداد (عطابة) سارع بوضعها على إصبعه والنار لا تزال مشتعلة

فيها . ومن جوف الغرفة ، إلى يمين صورة جدي ، أطلّتْ صورة العريف أبي المعلقة في مواجهة الباب تمامًا ، وزجاجتها تفيض بوهج النهار!

– أرأيت؟ كان عليّ أن أنتظر هذه الأعوام الطوال كلها قبل أن أسمح لنفسي بتعليق صورتي بجانب صورة جدك .

سمعتُ أبي يخاطبني وأنا مستغرق في تأمل صورته . وأضاف بعدما أمر أمي بأن تأتيه بخرقة ليشد بها جرحه :

– تذكّرْ هذه اللحظة . لا تدعها تغيب عن ذهنك أبدًا . تذكّرها بأدق تفاصيلها يوم تتأكد من أنك أصبحتَ جديرًا بأن تعلق صورتك إلى يمين صورتي . وعلى هذا المنوال يفترض بمن يأتي بعدك أن يستمر : التنازل عن حفنة من أجمل سنوات العمر سعيًا لتحقيق الهدف المنشود قبل التمتع بلحظات الفوز!

وذلك ما شككتُ في حصوله معي ؛ فبرغم صغر سني آنذاك ، لكنني كنت أعلم الناس بنفسي : يزيدني مرور الأعوام نفورًا من سلوك طريق كان أبي يحاول قسري على سلوكه ؛ فالحياة التي كنت أعيشها بدت أكثر دعة وأمانًا ، لا مجال فيها لتلك المخاوف ، لا بل المفارقة التي لم تكن تخطر لأبي بالتأكيد كانت تتمثل بأنه هو نفسه كان مصدر قلقي ورعبي ، ولاسيما حين كان يسوم أمي العذاب دون مسوّغ : فقد كان يكفيه أن يرجع من المقهى محتدًا لسبب من الأسباب حتى يفرغ فيها غيظه ، مختلقًا أسبابًا عديدة لا تعوزها الحجج والبراهين : فافتقاده حاجة من حاجياته مثلا ـ قداحته أو سبحته أو حلقة مفاتيحه ـ قد يؤوله إلى قلة احترامها له :

ـ يفترض بالمرأة الصالحة أن تولي الأشياء التي تخص زوجها اهتمامها ؛ تدرك قبله وجودها في جيبه .

وكان يحدث ـ والمشادة لا تزال في بدايتها ـ أن يتم العثور على تلك الحاجة ، فكان غضب أبي يزداد استعارًا :

– محنة الزوج الحقيقية تبدأ حين يغدو هزأة وسط أسرته ؛ يثور ويغضب قبل أن يُلقم حجرًا!

وهكذا ، كانت المعركة مرشحة للانفجار في جميع الأحوال ، تدار من قبل طرف واحد هو أبي بطبيعة الحال : يرغي ويزبد ، وقد يعمد إلى الضرب والركل ، في حين تكون أمي ملزمة بالصمت حتى لو سببتْ إحدى الضربات في إسالة قليل من دمها!

كان أقصى ما تعمد إلى اتباعه في مثل هذه الحال هو اعتصامها بظلام غرفتها مطلقة لدموعها العنان ، فكنت أتسلل وراءها ، وأرابط بالقرب منها صامتًا أراقبها بعينين لا تطرفان ، فكانت تهيب بي هامسة ، من خلال نشيجها ، طالبة مني الابتعاد خوفًا من التعرض لانتقامه . . . فكنت أجيبها بدوري هامسًا بأنني لا أخشاه . . . بل يكفي أن اكبر قليلاً لكي أوقفه عند حده!!

كنا نمضي في حوار هامس محوره أبي الذي كنا ـ دون سابق اتفاق ـ نتجنب ذكره علانية منتقمين بذلك منه باختزاله إلى محض مجهول سعيًا منا لتجنّب شره ، ولكن عبثًا ؛ إذ إن تحذيرات أمي لي سرعان ما تحققتْ ؛ فذات يوم ضبطني أبي ـ عقب إحدى معاركه مع أمي ـ وأنا في سبيلي للتسلل وراءها للالتحاق بها في غرفتها ، فشزرني بنظرة وعيد ، وصاح بي محذرًا مفصّلاً كلماته واحدة واحدة :

– لو كنت حريصًا على ألا تتعرض قدمك للكسر فحذار من أن تتخطى بها تلك العتبة!

يومذاك لم يكد أبي يغادر البيت حتى أفلتتْ من أمي عبارة حسبتُ

معها الأرض تميد بي من تحتي مزلزلة :

– سيفعلها! . . . ثق أنه سيكسر رجلك مثلما سبق له أن حاول قتلك!!

أبي حاول قتلي؟! كيف لي أن أصدّق هذا الكلام وأنا خير من يدرك أنني محط آماله لكوني ولده الوحيد الذي رزق به بعد خمس بنات؟!

كان ، برغم حرصه على كبت عواطفه ، يسعى إلى أن يجعل مني نموذجًا له صلابةً وقسوةً وهو يقودني نحو تخوم الرجولة ـ الرجولة التي كان يراها فعلاً يمارس ، لا محض كلام يقال ـ

كان من دأبه تلقيني المواعظ والعبر ، مستمدًا إياها من تجارب حياته المريرة ـ وحياة جدي من قبله ـ تلك الحياة العجيبة التي كان يلخصها بطريقته الفذة في الكلام على شكل سلسلة كوارث وحروب وأوبئة ومعارك ومجاعات وسيول ، تتردد خلالها أسماء ـ كانت تشحذ خيالي كلما طالعتني في ما بعد على صفحات الكتب ـ مثل (دكة الغربية) و(دكة ابن رشيد) و(السفربر) و(ثورة العشرين) و(الحرب العالمية الثانية) و(حرب فلسطين) . . .

كان يجعلني ـ وأنا أسمعه ـ أدرك تلقائيًا ضرورة أن يحرص الإنسان على البقاء حيًا برغم بحار الدماء والدموع والأشلاء التي قد تضطره الظروف إلى خوضها .

تُرى كيف يحاول إنسان على هذه الشاكلة قتل ابنه؟!

سؤال لاحقتُ به أمي مدة طويلة قبل أن تسعفني بجواب جاء على إثر نشوب معركة جديدة : فقد اندفعتُ خلالها بتهور لحماية أمي ، فلم أشعر إلا وقد طيّرتني إحدى ركلات أبي العشوائية ، فاصطدمت بشيء ما فقدتُ على أثره الوعي!

حين أفقتُ من إغماءتي وجدتني ممدًا في حضن أمي وقد استقر رأسي على ركبتها في انتظار توقف نزيف أنفي .

– سلمتَ يا شبلي الجسور . . . ها أنت تحمي أمك مرة ثانية من الذل والهوان!

دهشتُ وأنا أسمع أمي تردد ذلك الكلام وهي تمسد شعري بحنان والدموع تترقرق في عينيها ؛ فتلك كانت أول مرة أحاول فيها بتهور حمايتها!

وحين حاولتُ سؤالها شعرتُ بشفتي العليا ثقيلة لا تستجيب لي كما ينبغي ، فتلمستها لأفاجأ بها وقد تورّمتْ وتخثر الدم المتجلط عليها!

– اهدأ . . . اهدأ . . . سأشبع فضولك هذه المرة بالإجابة عن سؤالك الذي لم تكف عن ملاحقتي به .

حدثتني مطولاً ذلك اليوم عن الرعب الذي رافقها منذ (بشّرتْ) أبي بكونها حاملاً في أول إجازة يقدم بها إلى البيت عقب زواجهما ؛ فقد فوجئتْ به يخاطبها بصيغة حاسمة لا مجال فيها للاعتراض :

– سيكون ذكرًا يرفع رأسي بين الأهل والعشيرة!

رمقته أمي بنظر غير مصدقة وفي ظنها أنه يمزح ،لكنها اكتشفتْ مرعوبة جديته في ما يقول ؛ ذلك لأنه لم يكتف بأنه كان قد اختار سلفًا اسم ذكر يطلقه على (ابنه) حال ولادته ، بل إنه كان يأتيها ، عقب ذلك اليوم ، محمّلاً بالهدايا لابنه (المنتظر) لا تخرج من نطاق الهدايا الخاصة بالذكور!

– هكذا رافقني الرعب تسعة شهور كاملة كنت خلالها أدعو ربي ليل نهار ألا يخذلني هذه المرة . ويوم جاءني المخاض وشعرت برحمي تتمزق قبل أن تلفظ أول جنين حملت به ، تجاوزتُ آلامي لأسأل القابلة

كالمستغيث عن جنس المولود . وحين أخبرتني أنها (بنت كالقمر) أطلقت لدموعي العنان!

وكان أبي ، كما حدثتني أمي ، قد عرف بحقيقة الأمر في اللحظة التي تناهت إلى سمعه صرخة ابنته البكر ؛ ذلك لأنه لم تتردد في أعقابها الزغاريد المتوقعة ، فغادر البيت نحو المقهى . ولم يعد إلا بعدما تجاوز الليل منتصفه ، مختزلاً غضبه بأن صفق الباب صفقة هزت البيت كله ، انفرد بعدها بنفسه في غرفته .

على هذا المنوال قضى أبي أيام إجازته ، لم يبادل خلالها أمي كلمة واحدة ، حتى إذا ما حل اليوم الأخير دخل عليها غرفتها متجاهلاً طفلته النائمة في مهدها . أمرها بأن تذهب إلى بيت أهلها ولا تعود إلا حينما يبعث في طلبها ، فصدعت أمي لأمره دون مناقشة ، واحتضنت طفلتها وغادرت بها البيت ذليلة منكسة الرأس ، تتعثر بأذيال ثوبها مدركة أنه لن يبعث في طلبها كما وعدها إلا بحصول معجزة .

– وقد حصلت تلك المعجزة على يد جدك الشهم ؛ فبعد مضي شهر على وجودي منسية في بيت أهلي استثمر مقدم أبيك في إحدى إجازاته بأن وثب على صهوة أحد خيوله وغادر قريته نحو المدينة ، حانثًا بذلك بعهد كان قد قطعه على نفسه بأن يقاطع أباك إلى الأبد بسبب (عقوقه) إياه وهجره قريته وسكنه في المدينة .

وضحكت أمي وقد أشرق وجهها . وأضافت مبتسمة كيف أن جدي اصطحبها من بيت أهلها عائدًا بها إلى بيت زوجها ليدفع بالطفلة الصارخة إلى حضن أبيها ، مخاطبًا إياه بطريقته الساخرة والجارحة في الوقت نفسه :

– من أوهمك يا بني أن الذكر أنفع لأبيه من الأنثى؟ فثمة أب ـ نعرفه نحن الاثنين جيدًا! ـ هجره وحيده ليسكن المدينة ، مفضّلاً الترف

فيها على قسوة الحياة في الريف!

بهذه الطريقة انتهت مشكلة ولادة كبرى شقيقاتي . وبمرور الزمن (غفر) أبي لأمي جنايتها في حقه ، لكن المصيبة أنه انصرف بهمه إلى أن يعوض ما فاته في حملها الأول . ويوم جاءها المخاض ثانية غادر البيت بحقيبته معلنًا أنه سينتظر في المقهى على أمل أن يوافى بـ (البشارة) هناك! . . . بيد أن انتظاره طال دون نتيجة ؛ فغادر المقهى ليرتمي في أول سيارة صادفها في الكراج ، والتحق بوحدته . ولم يعد إلى المدينة إلا بعد مضي أشهر .

هكذا تلاحقتْ (خيبات) أبي أربع مرات متتالية كان يجهد خلالها نفسه في اختيار الاسم الملائم لابنه المنتظر ، حاملاً في كل زيارة هدايا تليق به سرعان ما تلتحق بهدايا سبقتها .

ويوم (أتحفته) أمي بابنته الخامسة خاطبها من خلف باب غرفتها الموارب وعلى مسمع من القابلة :

– اسمعي يا امرأة : سأرضى بقسمتي ونصيبي شريطة أن تقلعي عن التفكير في الحمل والولادة مرة أخرى ؛ إذ يبدو أن رحمك أشبه بأرض سبخة ، لا يرجى منها خير!

بدا شرطًا معقولاً يجنّب أبي خيبة أمل جديدة لم يعد قادرًا على تحمّلها ، كما أنه وضع حدًا لشعور أمي بالمهانة والإذلال ، فانصرفت إلى إغداق حنانها على بناتها الخمس محيطة إيّاهن برعايتها ، محاولة تعويضهن عن افتقادهن رعاية أبي وحنانه . بيد أن عاطفتهما التي كانا يغذيانها في الماضي بأحلامهما ومشاريعهما المشتركة تحولت إلى ضرب من علاقة (رسمية) تجمع أحدهما بالآخر بحكم ظروف لا دخل لهما فيها مثلما يصادف اجتماع جارين في جيرة لا مفر لهما من تحملها برغم ما

تجلب عليهما من منغصات!

كانت أمي تحرص على القيام بواجباتها تجاه أبي ؛ ما يكاد يعود إلى المدينة في إحدى إجازاته حتى تكرس نفسها لخدمته : يجد حمّامه قد أعد له قبل أن يطلب ذلك . وتطالعه ملابسه نظيفة مكوية معلقة على مشاجبها داخل خزانته الخشبية . وحين يعود من المقهى تكون أكلته المفضلة في انتظاره .

وكان أبي يتقبل من أمي تلك الرعاية دون أن يكافئها بكلمة شكر واحدة . لكنه في الوقت نفسه كان يحرص على ألا يغفل عما تكون ـ هي وبناتها ـ بحاجة إليه ؛ لا يقصر معهن في مأكل أو ملبس .

كانت الحياة تمضي بالأسرة على تلك الوتيرة ، تبدو ظاهريًا وكأنما لا يعوزها شيء ، إلا أنها في واقع الأمر كانت تفتقد أهم شيء لا تقوم لأية أسرة قائمة دونه ؛ كانت تفتقد التعاطف والانسجام ، يعيش كل واحد من الزوجين في عالم معزول عن الآخر .

آنذاك حدث ما زلزل رتابة الحياة ؛ فعلى غير توقع صُعقتْ أمي على احتمال كونها حاملاً!

في البداية لم تصدق الأمر ؛ فقد كانت قد كبرت حتى وخط الشيب شعرها . وكانت قد اطمأنت منذ سنوات إلى أنها تخطت طور الحمل والولادة ، فحسبت شعورها ذاك يعود لكونها أسيرة تلك الأعراض التي تنتاب المرأة حين تقترب من سن اليأس .

كان عليها الانتظار بعض الوقت عسى أن تكذِّب الوقائع شكوكها ، بيد أن الأشهر تعاقبت وجسدها يزداد امتلاء واستدارة ، يضيق بالثياب التي لم يعد التوسيع يجديها نفعا!

كان رعبها الوحيد يتمثل بيوم يقدم أبي : كيف تجابهه بـ (جريمتها)؟

إذ من المؤكد أنه لن يقتنع بأن ما حدث جاء بإهمال منها ، بل سيعزوه إلى (خطة) أعدّتْ سلفًا لتوريطه بـ (نصف دزينة) من بنات لا يكاد يحفظ أسماءهن!

وهكذا ، هيّأتْ أمي صرّة ضمّت ما ستكون بحاجة إليه عند طردها ، ملقنة ابنتها البكر كيفية إدارة شؤون البيت بغيابها ، طالبة منها أن تولي أباها جلّ اهتمامها ، لا توفّر له مسوّغًا للتبرم والغضب .

أمر واحد لم تستطع البت فيه : أين تولّي بوجهها حينما تطرد؟ من المؤكد أن بيت أهلها سيكون آخر موضع تفكر في اللجوء إليه ؛ فسبق لها في بداية زواجها ـ حينما لم تكن بعد عرفت زوجها على حقيقته ـ أن هربت إلى هناك على أثر أول مشادة حصلت بينهما ، فكانت النتيجة فضيحة مجلجلة ؛ فقد اقتحم زوجها دون حياء بيت أهلها ليسحبها من ضفيرتها تحت أنظار أبيها الهرم المسالم الذي لم يكتف بأن ضحك محرجًا وحسب ، بل إنه لام ابنته على تركها بيت زوجها ، مؤكدًا لها أنها لن تجد باب بيته مفتوحًا في استقبالها مرة أخرى ؛ إذ حري بها ملازمة بيت الزوجية!

وهكذا وكّلتْ أمي أمرها إلى الله يوم أدركتْ ـ من خلال الصمت الذي خيّم على البيت فجأة ـ أن أبي قد عاد!

كانت منفردة بنفسها في غرفتها أمام خزانة الملابس ، تطوي بعض القطع ، معيدة ترتيبها أو تعليقها في مواضعها ، منتقية قطعًا أخرى هالها حين اكتشفت أنها قطع ملابس (ولادية) كانت تفردها عن بقية الملابس أملاً في غسلها وإعدادها للاستعمال عند الحاجة!

حينما تنبهت إلى دخول أبي البيت سارعت إلى دس تلك الملابس في أبعد موضع كان في وسع يدها الوصول إليه ، كأنها تخفي آثار جريمة . وجمدت في موضعها خافقة القلب تتابع بسمعها وقع خطى ذينك

(البسطالين) الثقيلين وهو يتردد بجلاء في صمت المنزل ، متخذاً سبيله نحو الغرفة المعهودة ، حتى إذا ما مرت لحظات تناهى إلى سمعها ، من خلال الجدار الفاصل ، صرير السرير الجريدي ، فأطلقتِ الهواء الذي طال احتباسه في صدرها وقد أدركت أنه سينام بعض الوقت ؛ وبذلك سيكون لديها ساعة أو اثنتان قبل وقوع الكارثة . غادرتِ الغرفة على رؤوس أصابعها ، متخذة سبيلها نحو المطبخ . ودون أن تصدر نأمة واحدة انهمكت في إعداد الغداء ، مستلهمة ما سبق لأمها أن لقنتها من (أسرار) تتعلق بالطبخ انطلاقًا من حكمة مجرّبة مفادها أن الوصول إلى قلب الرجل يمر أحيانا بالمعدة!

في الظهيرة التقته في الصالة ، وكان قد استحمّ وبدلّ ملابسه ، وجلس في انتظار تناول غدائه في المكان المعهود . غمغمت أمي مرحّبة به وهي تضع الصينية أمامه ، محاذرة مبادلته النظر ، فأجابها باقتضاب لامحًا إياها بنظرة سريعة قبل أن يمد يده نحو طعامه ، لكنه سرعان ما ارتدّ بها متطلعًا إليها هذه المرة بنظرة طويلة شعرت أمي بوقعها عليها مثل وقع السكين!

– ما الذي جرى لك؟

تساءل مدققًا فيها النظر . وأمرها بأن تقبل وتدبر أمامه ، حتى إذا ما امتثلت لأمره نحّى الصينية بعيدًا عنه بحركة عنيفة وهو يردد :

– ألم نتفق على أنه لا شأن لك بالحمل والولادة؟

– يشهد الله على أنني لا أعلم كيف حصل الأمر!

سمعتْ نفسها تجيب بصوت خافت ، وانتظرت جوابه طويلاً . . . أطول من دهر ، تباطأت اللحظات في سيرها كأنما توقف الزمن عن التحرك . شعرت بنفسها كمتهم يتلهف للحظة النطق بالحكم . . . وليكن الحكم بالموت!

- اسقطيه . . . أتسمعين؟ اسقطي حملك!

غالبتْ أمي ارتعاشة ألـمّتْ بها على غير توقع وهي تسمعه يصدر قراره ، واستجمعت آخر ما تملك من شجاعة لتتمتم متوسلة :

- أيهون عليك أن تكون سببًا في قتل ابنك؟

- قتل ابني؟ يا لك من متفائلة! . . من الذي أوهمك بأنه سيكون ذكرًا؟

أجابته وقد تجددت آمالها :

- لم لا؟ فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير .

تأملها لحظات قبل أن يهدر صارخًا :

- كلا . . . لن تخدعيني هذه المرة . . . أتسمعين؟ لن تخدعيني . . . لابد لك من إسقاط حملك . . . هذا أمر لا مهرب لك منه!

وشفع قراره ذاك بأن غادر البيت ليعود مساء محمّلاً بعلب أدوية وأعشاب طبية قد تساعدها على إجهاض جنينها!

- هيا . . اعملي منذ اللحظة على التخلص منه ؛ ذلك لأن كل يوم يمر يزيد الأمر تعقيدًا .

نصحها قبل أن يلجأ إلى غرفته مطبقا الباب وراءه ، فانقضت أمي على تلك العلب والأعشاب لتزدرد متقززة أضعاف الكمية اللازمة ، وقد قررت الإجهاز على نفسها لا على الجنين وحده!

لم تجد غير نفسها تفرغ فيها غضبها الدفين الذي كان يزداد استعارًا كلما لم تجدها تلك الأشياء نفعًا .

- كنت أنشد الموت . لقد تحوّل حملي إلى وسيلة وفّرتْ لي العذر للإجهاز على نفسي . لم يكن الجنين هو المستهدف بكل تلك الأدوية أو بتلك الحركات العنيفة التي دأبتُ على ممارستها ليل نهار - القفز من

درجات السلم ، حمل أثقل الأشياء ، الاضطجاع على بطني واعتلاء بناتي ظهري ـ أبدًا ، لم يكن هو المستهدف ، بل إنها نفسي التي كنت أستهدفها بكل تلك الأمور . كنت أستجدي الموت بأي ثمن!

بيد أن الجنين لم يتزحزح من موضعه . ولم تكن بأبي حاجة ليسأل عن النتيجة ؛ فنظرة واحدة يلقيها صباح كل يوم على بطن أمي كانت كفيلة بأن تجابهه بحقيقة كون ابنته السادسة في طريقها إلى أن (تتوج) كهولته بمقدمها الميمون!

ويوم أعدّ حقيبته واستعد للسفر خاطب أمي بحسم :

– سأتغيب عنكم هذه المرة مدة طويلة ؛ فاحرصي على أن ينتهي كل شيء قبل أن أعود .

ولم تدخر أمي وسعها لتنفيذ كل ما أراد لولا حصول أمر هز كيانها ؛ فذات يوم صعقت على أول رفسة يقوم بها الجنين وسط أحشائها ، شعرت به يحرك قدمه ـ أو لعلها ركبته ـ داخل بطنها حتى كان في وسعها تتبع تلك الحركة لمسًا باليد! . . . صحت فجأة على حقيقة كون كائن حي يعلن عن وجوده وسط كيانها!

– لن أسقطه وليحدث ما يحدث!

صاحتْ على مسمع من نساء الزقاق . وأضافت قبل أن تدخل بيتها :

ـ ليكن هذا الجنين بنتًا . . . لا بل ليكن مسخًا مشوّهًا . . . فالأمر المؤكد الذي لا رجعة لي عنه هو أنني لن أسقطه . . . وكفى!

وبضربة حاسمة من مكنستها تخلصت من تلك الأشياء التي جلبها زوجها لغرض إسقاط حملها .

إلا أن السؤال الذي بقي يشغل بال نساء الزقاق هو :

– هل ستتشبث بقرارها ذاك؟ أم أنها ستنهار حالما يطل زوجها برأسه

عند مدخل الزقاق؟

ويوم شوهد أبي ينزل بحقيبته من السيارة في الكراج تبرع أكثر من واحد لإيصال الخبر بسرعة البرق إلى أمي .

– لحظتها شعرتُ بأولى علامات الطلق : اشتعل أسفل بطني وظهري بألم رهيب ، ومعه انتابني إحساس غريب بالبرد برغم دفء الجو!

وضعتْ عباءتها على رأسها لتدور في البيت على غير هدى ، ملتقطة في طريقها الصرّة التي أعدتها سلفًا . كانت تتجنب الدنو من الباب لتخرج خوفًا من أن تلتقيه في الزقاق . فجأة اتجهت نحو السلّم مرتقية درجاته نحو السطح لتتخطاه في اتجاه السياج الواطئ الذي يفصله عن سطح بيت يقع بابه على زقاق مجاور ، واجتازته بخفة برغم ثقل بطنها ، شاعرة بعد فوات الأوان بالجلد ينسلخ عن إحدى ساقيها بفعل احتكاكها بحافة الطابوق الخشنة ، وانحدرت هابطة درجات سلم ذلك البيت لتسارع إلى طمأنة أفراد تلك الأسرة الذين فوجئوا بها تحلّ بينهم من حيث لا يتوقعون . ولم تكن بها حاجة إلى تسويغ سرّ لجوئها إلى هذه الطريقة غير المألوفة باقتحام بيتهم ؛ ذلك لأنهم كانوا على معرفة بقصتها .

طمأنوها إلى أنها ستكون في بيتهم بأمان ، فاكتفت بأن طلبت كأس ماء لم تكد تشربها حتى غادرت بيتهم شاكرة ؛ إذ إنها لم تفتها نظرات الإحراج التي لمحتها ترتسم في أكثر من عين ؛ بدا من الواضح أنهم يخشون أن يقتحم زوجها عليهم بيتهم ليسحبها من ضفيرتها ، مكررًا تلك الفضيحة المجلجلة التي اشتهر أمرها في الأزقة المجاورة منذ سنوات .

دارت طويلاً في الأزقة ، والشمس التي تصبغ بأشعتها البرتقالية أعلى الجدران تنذرها بأن وقتها محدود ؛ إذ أين تولي بوجهها حين يسود الظلام؟

فجأة وجدتْ نفسها تقف في نهاية زقاق يفضي بها إلى بساتين

النخيل حيث بنات آوى تضج في عويل فاجع مودعة النهار الموشك على الرحيل ، وطيور القمري تسجع بحنان معلنة عن عودتها إلى أعشاشها في أعلى النخيل . ولم تتردد أمي سوى لحظة واحدة شقت بعدها سبيلها وسط البساتين!

– وقد أدهشني إقدامي على تلك المغامرة ؛ فأنا خير من تعلم أنني أكثر خلق الله جبنًا ، فكيف جرؤت على اختراق البساتين وحيدة في مثل ذلك الوقت من النهار ، وثمة جنين اختار ذلك الوقت العصيب موعدًا لقدومه لهذه الدنيا؟!

ركضتْ طويلاً على امتداد تلك الدروب التي مهدت ترابها قبلها أقدام البشر وأظلاف الدواب ومخالب الحيوانات . كانت آثارهم مرتسمة هناك على التراب الهش الذي تغوص فيه الأقدام . وكان الألم الرهيب قد طوق حوضها بحلقته الكاوية : يأتيها على شكل موجات تزداد تقاربًا بمرور الوقت . ولم تكن تسمع سوى وقع خطواتها المهرولة وصوت أنفاسها المتلاحقة .

ترى كيف اهتدت إلى الطريق الصحيح ، فوصلت بيت جدي القائم وسط قريته دون أن تضل سبيلها؟

ذلك ما كانت تجهله حقًا ، والشيء الوحيد الذي بقي عالقًا بذاكرتها بوضوح هو منظر الفوانيس المضاءة وأفواه التنانير النافثة لهبًا . . . يا إلهي! . . . ذلك كان أجمل منظر تقع عليه عيناها بعد وحشة الطريق!

كانت بوّابة بيت جدي الشاهقة التي في وسع الخيّال المروق منها دون أن يحني رأسه ، كانت مفتوحة في استقبالها على سعتها ؛ فقد كان من المألوف ألا تغلق إلا عند انتصاف الليل ؛ فبيت جدي كان أشبه بمضيف يضج على امتداد ساعات النهار والليل بصخب الداخلين والخارجين الذين

تربطهم بجدي عشرات المصالح : فهناك الحنطة والشعير والخضر ، والاتجار بالتمور والفواكه ، فضلاً عن شغفه المعروف بالخيول ، ذلك الشغف الذي جعل علاقته تتشعب على مدى الصيت الذي يبلغه حصان معروف النسب!

هناك ، في ذلك الفناء الواسع المزروع بالأشجار ، والذي تطوقه عشرات الحجرات من الجهات الأربع ، أسقطت أمي صرتها وانهارت وقد خذلتها ساقاها ، بيد أن عشرات الأيدي تلقفتها قبل أن تمس الأرض لتحملها إلى حجرة جدي .

– ولم تكن بالمرحومة جدتك حاجة إلى أن ترهق نفسها في توليدي ؛ ذلك لأنه لم يكد ظهري يستقر على البساط حتى مرق الجنين من بين ساقيّ صارخًا . . . وعلى الفور أدركتُ أنه ذكر ؛ فالدلائل كلها ـ سواء أثناء الحمل أو الطلق ـ كانت مختلفة عن المرات الخمس السابقة . . . هكذا جئتَ يا شبلي إلى الدنيا ، ومجيئك رد لي اعتباري ؛ فقد كان على أبيك التنازل عن كبريائه والقدوم إلى القرية أكثر من مرة قبل أن يأذن لي جدك بالعودة معه إلى المدينة وأنا أحتضنك مرفوعة الرأس!

(٤)

تنبهتُ من شرودي على صوت السائق وهو يخاطبني :

– هوّن عليك يا أستاذ ؛ لا يوجد مسوّغ للإفراط في التدخين بهذا الشكل!

التفت نحوه رامقًا إياه بنظرة متسائلة ، فابتسم لي قبل أن يردف موضحًا وقد عاد بعينه نحو الطريق حيث سيارته تنطلق بنا بأقصى سرعتها :

– منذ خلّفنا بغداد وراءنا وأنت دائب على التدخين ؛ لم تكد تنفد سيجارتك الأولى حتى أشعلت الثانية من عقبها!

أجبته متفكهًا مع نفثة دخان :

– أفرط بالتدخين احتفاءً بيوم مولدي!

– عجبًا! . . . يفترض بمن يحتفي بيوم مولده أن يستبشر لا أن يحرق أعصابه بالتدخين!

قالها مفحمًا كأنه أمسك بي متلبسًا بموقف متناقض ، فأجبته مجاريًا إياه في افتراضه البليد ذاك عساه أن يكف عن طرح أسئلته الغبية :

– ذلك لأن يوم مولدي كاد يكون يوم موتي!

هنّأتُ نفسي مستبشرًا بإصابة الهدف ؛ فقد صعق السائق ، وأخذ

يتفحصني بنظره مدققة كأنه يحاول التأكد من سلامة قواي العقلية! . . . لكنه سرعان ما أهملني ، وعاد يصوّب عينيه نحو الطريق على أثر انطلاق نفير لتحذير من سيارة مرقت من يساره متقدمة سيارته .

بقيتُ أراقبه بعض الوقت وقد أمسك بذراعيه المشعرتين بالمقود بأبهة مبالغ فيها ، غير آبه بالسيارات القادمة من الاتجاه المعاكس وهي تنمو بسرعة خارقة قبل أن تنخطف إلى الوراء بدوي خاطف ، متابعًا السيارات التي تسبق سيارته بنظرات فضولية مشوبة بخيبة سرعان ما تتحول إلى انتصار ساحق حينما يعود ويسبقها بدوره . وفي لحظات مجده تلك كان يلتفت نحوي محاولاً الإمساك بي متلبسًا باختلاس النظر إليه ، فأسارع إلى الالتفات يمينًا متتبعًا أعمدة الهاتف وهي تتتالى متراجعة إلى الوراء ، وأسلاكها النحاسية تتوهج تحت الشمس التي مالت غربًا .

– أتمزح يا أستاذ؟ أم أنت جاد؟!

سمعتُ منتفضًا السائق وهو يسألني مجددًا ، فأسقط في يدي ؛ إذ يبدو أنه لا مهرب لي منه ما دمت أسير هذا المقعد الملاصق لمقعده اللعين .

أجبته بأكثر الكلمات إيجازًا :

– بل أنا في منتهى الجدية .

لكنه لم يرحمني ؛ فقد عاد يسألني بطريقته البغيضة تلك :

– في هذه الحالة كيف يعقل أن يكون يوم مولد المرء هو نفسه يوم موته؟

تأملته لحظات قبل أن أختصر ضجري منه على شكل سؤال لئيم ظاهر البراءة :

– قل لي : ألا يكاد الموت يلازم الإنسان ملازمة ظله له منذ لحظة ولادته؟

تمتم مستاء لاسعًا إياي بنظرة ضارية :

- يا ستّار . . . يا منجّي!

وجدتها فرصة لا تعوض لأجدد الهجوم مصيبًا إياه هذه المرة في الصميم :

- يكفي أن تنفجر اللحظة ـ لا سمح الله ـ إحدى عجلات سيارتك لنتحول في لحظات من أحياء إلى أموات!

صاح السائق وقد تحول استياؤه إلى غضب مسترعيًا بذلك انتباه الركاب الآخرين :

- أستغفر الله العظيم . . . على أي وجه منحوس تراني صبّحتُ اليوم؟

واصلتُ هجومي دون أن تأخذني به شفقة :

- أو تكفي لمسة من إصبع طيار أمريكي مخمور قابع في جوف طائرته على ارتفاع شاهق لتضع حدا لحياتنا!

وشارك الركاب السائق ، هذه المرة ، في ترديد كلمات الاستعاذة والاستغفار ، وخرجتِ الأم الثكلى عن صمتها الذي لازمها منذ بدء الرحلة لتعاتبني من مقعدها القصي بسبب إثارتي الهلع بين الركاب ، متناسية أن السيارة ماضية بنا في رحلتها بسلام!

وصاح الممرض وهو يدير عدستيه السميكتين بحثاً عني دون شك :

- الأمر كما تقول يا أستاذ ، بيد أن الأعمار بيد الله .

وأضاف معترفًا أنه حين التحق بالخدمة العسكرية بعد تخرّجه في (المعهد الطبي الفني) ـ وكانت الحرب قد نشبتْ مع إيران ـ كان شديد الوجل ، يحسب أنه وحده المستهدف بأية قذيفة تمرق صافرة قربه ، لكنه سرعان ما تعلم أنه يمكن للجندي أن يخوض معارك دامية ويخرج منها

سالمًا ليقتل في حادث سير وهو في طريقه إلى بيته للتمتع بإجازته!

وحظي كلامه ذاك بتأييد الركاب ؛ فتبارى أكثر من واحد في ذكر أمثلة عن جنود لم تنل منهم أعتى المعارك ليموتوا على فراشهم وسط أسرهم!

وضرب الرجل العجوز بنفسه مثلاً على ما قيل ؛ فقد بدأ حياته العسكرية المديدة جنديًا متطوعًا في فوج (موسى الكاظم) وختمها في حرب فلسطين حينما وصل مع أفراد وحدته إلى مشارف (تل أبيب) التي كانت قد أصبحت في مرمى المدفعية العراقية دون أن يصاب بخدش واحد!

ودققتُ النظر في المرآة الجانبية باحثًا عن وجهه وسط وجوه الركاب المحاذية لنوافذ الجانب الأيمن للسيارة ؛ فقد استنتجت من كلامه أنه أكبر بكثير مما يوحي به منظره ، بل لعله يقارب المرحوم جدي في السن لو أن العمر كان قد امتدّ به حتى الآن .

وكانت هناك أمور أخرى تقرّبه من جدي مثل هدوئه ورزانته وحرصه على أن يستقطب اهتمام الآخرين حين يهم بالحديث .

وبقي صوته المشروخ الصادر عن حنجرة لا شك أن التبوغ القوية قد أتلفتها يتردد وسط هدير السيارة وهو يتنحنح سالكًا حلقه من حين لآخر ، معرجًا في حديثه هذه المرة على الحرب الأخيرة وأثرها على قريته التي هي واحدة من تلك القرى المتاخمة لبساتين النخيل ، والتي تسمى كل واحدة منها باسم قلعة ـ كان يلفظها (جلعة) ـ يلحق بها اسم الملاك الذي يكون بيته أبرز معلم فيها ، وهي ضرب من قرى تكون مسوّرة عادة ذات بوابة تغلق ليلاً ، تتوزع البيوت في داخلها محدقة بساحة تستغل لدرس البيادر عقب الحصاد ، تتوسطها في الغالب شجرة معمرة يحمل جذعها الغليظ

المملوء بالشقوق والعقد آثار مسامير وحروق ولطخات حناء ودم ، حيث عُلّقتْ هناك الفوانيس والأضاحي مرات عديدة في حفلات الأعراس والختان وما أشبه .

قال كيف أن سوء الحظ كان قد لازم تلك (الجلعة) في الثمانينات ؛ فعلى أثر اشتعال الحرب مع إيران لم تعد الحياة فيها مأمونة بسبب قربها من الحدود . وأسهمت شحة المياه في تعقيد حياة قاطنيها ، فشرعوا في هجرها ، متجهين بأسرهم نحو المدينة القريبة والمدن الأخرى .

واستدرك موضحًا قبل أن يمضي في حديثه :

– وكان ابني ضمن من هاجر بأسرته إلى بغداد ، حيث أزوره من حين لآخر ، وأمكث عنده يومين أو ثلاثة قبل أن يودعني على مضض ؛ إذ إنه ابن حلال لا أخيّره عليكم ، لا يقصّر معي في شيء لله الحمد .

قال إنه لا يعلم ما الذي حدا بجميع المهاجرين إلى اختياره هو دون الآخرين ليحمّلوه مسؤولية رعاية بيوتهم بغيابهم!

– لعل ذلك يعود ليقينهم من استحالة أن أهجر (الجلعة) مثلهم ؛ ذلك لأنه لم يبق في العمر ما يقتضي الحرص على الحياة ، مقتنعًا من دنياي ببضع نخلات وعنزتين وشاة تقوم بأودي ، فضلاً عن نصف كفن وعلبة مختومة تضم في جوفها قليلاً من ماء بئر (زمزم) جاءني بهما الملاك الذي تحمل (الجلعة) اسمه : فيوم كان في سبيله لحج بيت الله سألني عن (الصوغة) التي أريد منه جلبها لي من مكة المكرّمة ، فطلبت منه ذينك الشيئين . قال : سآتيك بهما ، ولكن اطلب غيرها مثل صحبك الآخرين : سبحة يسر أو قطعة قماش . لكنني شكرته وأكدت ثانية طلبي ذاك ، فجاءني بهما بارك الله فيه . وقد تبرعتُ عن طيب خاطر بنصف الكفن وقليل من ماء العلبة للمرحومة امرأتي حين حضرتها منيتها ، واحتفظت

بالنصف الآخر وببقية الماء لنفسي : أعمد كل عام ، في موسم الحج ، إلى لف جسدي بالكفن وترديد (لبيك اللهم لبيك) في الموعد نفسه الذي يردد فيه ملايين الحجاج ذلك النداء في الديار المقدسة ، حالمًا باليوم الذي سيحظى فيه جسدي بالتبلل بذلك الماء الطهور ويلف بذلك الكفن المبارك .

يوم قرر أول رجل الهجرة بأسرته سلّمه مفتاح بيته ، راجيًا إياه احاطته برعايته واهتمامه ولاسيما في الشتاء ؛ فهناك مواضع في السقف تتسرب منها مياه الأمطار . وأكد له ، وهو يتهرب بعينيه المغرورقتين بالدموع من نظرته ، أنه سيعود بأسرته . . . ما تكاد الحرب تنتهي حتى يعود إلى بيته شاكرًا له فضله عليه .

وحين هاجرت أسرة ثانية سلموه أيضًا مفتاح بيتهم ، عاهدين إليه مهمة سقي فسيلة نامية قرب الباب .

وهكذا أخذت الأسر تهاجر بالتعاقب مسلّمة إياه مفاتيح بيوتها بحجج وأعذار مختلفة : الاهتمام ببلابل تركت في أقفاصها تصدح من حين لآخر بشدو عذب يأخذ بمجامع القلوب في وحشة بيوت خلت من سكانها . . . رعاية حمائم تثير بهديلها المتواصل الحزن . . . إطعام دجاجات كانت أعدادها في تزايد مستمر ؛ إذ إنها كانت تعمد إلى وضع بيوضها في مواضع خفية يستحيل اكتشافها إلا بعدما تكون قد فقست عن أفراخ مزغبة تلاحق أمها موصوصة . . . بل ثمة من أوصاه بكلبه . . . وآخر بعجله . . . وثالث بعنزته . . .

هكذا خلت (الجلعة) في آخر الأمر من الجميع . وأمسى هو الساكن الوحيد فيها ؛ ما يكاد ينهي عمله في نخلاته حتى يلتقط سلسلة مفاتيحه ويقضي بقية ساعات النهار في تفقّد البيوت التي تُركتْ في عهدته ، غير

شاعر بمرور الوقت إلا حين يجنّ الليل ؛ فقد كان يكتنفه شعور بالوحشة وهو يتقلب على فراشه مصغيًا ، حتى انبلاج الفجر ، إلى الريح تعصف ببساتين النخيل برتابة تبعث على الجنون .

ذات ليلة فوجئ بصوت بدا مألوفًا لديه وهو يسأله :

– لم لا تعلق فانوسًا مضاء على شجرة الساحة؟

تلفت حوله مغالبًا دهشته ، ولكنه لم يلمح أي مخلوق في الجوار ؛ فعزى ذلك النداء إلى وهم من أوهامه .

في الليلة التالية ما كاد ينفّذ ذلك الاقتراح حتى فوجئ بالصوت نفسه يسأله :

– ألم يقلّ الآن شعورك بالوحشة؟

وحين أخذ يتلفت حوله بحثًا عن المتكلم عاد الصوت نفسه يخاطبه :

– لا تتعب نفسك بحثًا عني ؛ فقلما يفلح الأحياء في رؤية الموتى!

– أأنت ميت إذن؟

تساءل مصعوقًا ، فعاتبه صاحب الصوت لأنه لم يشخّصه منذ البداية برغم أنه كان من أقرب أصدقائه إليه!

وفي ليلة أخرى فوجئ بصوت امرأته وهي تقترح عليه تعليق فانوس آخر على بوابة (الجلعة) الخارجية .

وتوالت عليه اقتراحات أصدقائه الموتى . وكانت النتيجة إضاءة (الجلعة) بعشرات الفوانيس التي بددت شعوره بالوحشة!

واستدرك مستبقًا احتمال عدم تصديق بعض الركاب لكلامه :

– لكم أن تصدّقوا ما حدثتكم به أو لا ، شيء واحد أطلبه منكم هو ألا تحسبوني خرفًا تهيأ له حصول تلك الأمور بسبب شعوري بالخوف ؛ فالزمن أمات الخوف في قلبي .

هكذا قضى لياليه في سمر متواصل مع أصدقائه الموتى ، يعزز مع بعضهم علاقات لم تسعفه الظروف في تعزيزها معهم وهم أحياء ، بل إنه كان بصدد تحقيق حلم طالما راوده آنذاك وهو رؤية هؤلاء الموتى عيانًا لا سماع أصواتهم فقط ، بيد أن قيام حرب جديدة وضع حدًا لذلك الحلم ؛ فقد اضطر أصدقاؤه إلى العودة إلى مثواهم الأخير ، تاركين إياه ينصرف إلى تزييت الأقفال التي علاها الصدأ ، وتفقد البيوت واحدًا واحدًا مرممًا ما بها حاجة إلى ترميم ، مالئـًا (الحباب) بالماء ، معيدًا الدجاجات إلى أقنانها ، والعجول والخراف إلى مرابطها ؛ فالدلائل كلها كانت تشير إلى أنه قد آن لتلك البيوت أن تعمر هذه المرة بأنفاس الأحياء العائدين إلى ديارهم بعد طول اغتراب .

وسلك حلقه طويلاً قبل أن ينهي حديثه قائلاً :

– وعادوا كما توقعت . . . وأصبح من دأب صغارهم التحلّق حولي كل مساء قرب شجرة الساحة ، طالبين مني أن أقص عليهم المزيد من حكايات أصدقائي الموتى!

وتصاعدت تعليقات الركاب بين مصدّق ومكذّب لإمكانية التحدث مع الموتى ، في حين تجاوز رمزي ذلك الأمر بابتسامة متسامحة ، مبديًا ملاحظة عرضية كانت قد شدت انتباهه :

– ألا تلاحظون مدى المفارقة الكامنة في أن تشرّد حرب ناسًا من ديارهم لتعيدهم إليها حرب أخرى؟!

وعلى غير توقع انفجر (أبو خضر) صارخًا :

– لم تعدهم الحرب إلى ديارهم ، بل أعادهم (وسخ الدنيا) الفلوس!

وأوضح وقد استهدفته عيون الركاب من شتى الاتجاهات :

– أعادهم التمر ـ ماذا يسمونه؟ الذهب الأحمر؟ ـ والحنطة والشعير

والشلب . . أعادتهم أطماعهم بعدما تضاعفت أسعار تلك الأشياء - بسبب الحصار - مئات المرات . . . اسألوني أنا و . . . .

وأنهى ثورته بترديد مثله الذي شاركه أكثر من راكب في ترديده ضاحكًا :

– لعن الله ذلك اليوم الذي مددت فيه رجليَّ أبعد من غطائي!

وعرّج الركاب بأحاديثهم هذه المرة على تلك الأيام التي لا تنسى ، ولاسيما الأيام التي سبقت بدء (عاصفة الصحراء) ، وكيف تعددت التوقعات وتناقضت حول احتمال قيام الحرب أم لا . وكانت الإذاعات ووكالات الأنباء قد أسهمت في حصول ذلك التبلبل ؛ فقد جنّدت أكثر من جهة إعلامية كل ما في جعبتها من أساليب من أجل إشعال حرب نفسية سبقتْ ذلك الهجوم الجوي الرهيب الذي لم يجرِ له مثيل في تاريخ الحروب الحديثة ، بما في ذلك بثّ شائعات عن احتمال ضرب العراق بأسلحة غير تقليدية لا تبقي ولا تذر!!

وفي الدائرة كان محررو المجلة يرددون بدورهم تلك الشائعات شاحنين إياها بكلّ ما يجعل وجه أسماء يشحب برغم سمك طبقة (المكياج) التي تعلوه ، فكانت ترمقني ، من خلف مكتبها ، بنظرة استغاثة كأنّ بوسعي ، أنا الذي لا سلاح لي سوى قلمي ، إنقاذها في حالة حصول تلك الحرب!!

وبتعاقب الأيام وارتفاع حمّى تلك الشائعات أخذتْ أسماء تتنازل بالمرور عليّ في شقتي في منطقة (الدولعي) بسيارة أبيها التي كانت ترفض الترجل منها ، حادجة ، كل ما يحيط بها من بيوت متواضعة وناس بسطاء ، بنظرات احتقار ، مكتفية بالانفراد بي في المقعد الخلفي ، بعدما تكون قد تخلّصتْ من السائق بإرساله في مشوار نحو مخزن للبضائع يقع على بعد بضعة كيلومترات ، مرا به في طريقهما نحوي!

كانت تلخّص رعبها على شكل منلوجات هستيرية محورها الرئيس ذلك الأرق الملازم لها ؛ إذ إنها تكاد تقضي الليل كله وهي تتنقل بمؤشر مذياعها الضخم ـ الذي في وسعه التقاط إذاعات الدنيا كلها! ـ بحثًا عن بصيص أمل .

– سيضربوننا بالقنابل! . . . أتسمع؟ بل قد يضربوننا بأسلحة كيمياوية أو بايلوجية . . . خردل . . . سيانيد! . . . ما الذي يمنعهم عن ذلك؟ نحن وحدنا بإزاء العالم كله . . . كيف السبيل للنجاة إذن؟ أنا لا أخشى الموت قدر خشيتي من التشوّه : بتر عضو من أعضائي . . . أو حرق وجهي . . . ذلك ما يرعبني حقًا ؛ إذ ما قيمة الوجود حين يتحول الإنسان إلى مسخ يستقبل الدنيا بعين عوراء أو بجسد يسنده عكاز؟!

كانت تحاول أحيانًا خداع نفسها مهادنة مخاوفها ؛ فتقول إن (بابا) ـ أسوة بقاطني (شارع الأميرات) دون استثناء ـ تهيأ لكل طارئ : فقد خزّن أكياسًا من الرز والسكر والطحين وصفائح الدهن وما أشبه لتلبية حاجة الأسرة من المواد الغذائية ـ وتلبية حاجة السوق أيضًا ؛ فقد كنتُ أعلم أنه قد توفّرتْ لأبيها ولأمثاله من التجار فرصة ذهبية لاحتكار تلك المواد ومضاعفة ثرواتهم عشرات المرات! ـ كما أنه كان قد أعدّ ـ طبقًا لتعليمات الدفاع المدني! ـ أكثر من غرفة في البيت للجوء إليها حين ضربنا بالقنابل الكيماوية ؛ فقد غطى نوافذ تلك الغرف بـ (النايلون) بعدما حشر شرائط الإسفنج في الشقوق والمفاصل ، ووفّر في داخلها كميات مناسبة من الطعام والماء ومضخات الحريق ، فضلاً عن أغطية صوفية أوصى بتبليلها وتغطية النوافذ بها من الداخل عند ظهور بوادر الخطر!

بيد أن الشائعات راجت أكثر ، وأخذ محررو الجلة يرددون هذه المرة احتمال أن تلجأ الولايات المتحدة الأمريكية إلى استعمال السلاح

النووي ؛ فأخذتْ أسماء تصيح بي قبل أن يتسنى للسائق الوقت اللازم للقيام بالمشوار المعهود :

– خبّرني أليس من المضحك التفكير في تطبيق تعليمات الدفاع المدني في حرب قد تُستعمل فيها قنابل ذرية؟

وكانت تضيف قبل أن تسمع ردي :

– ما الذي يمنع الأمريكيين من القيام بذلك وهم الذين سبق لهم ، في الحرب العالمية الثانية ، أن ضربوا مدينتي (هيروشيما) و(ناكزاكي) بقنبلتين ذريتين فرضوا بسببهما على اليابانيين الاستسلام!

وحينما حدث ما حدث ، وتسابقت أسراب الطائرات الأمريكية والبريطانية والفرنسية ـ فضلاً عن طائرات بعض «الأشقاء العرب»! ـ في إفراغ حمولتها من أطنان القنابل في أكبر عملية ثأر (حضارية) من مدينة عريقة اسمها (بغداد) ـ هذا الاسم الذي ما يكاد يُذكر حتى يعبق التاريخ بأريجه العذب ـ كانت أسماء تقف بالسيارة أسفل شقتي لتصرخ بي هذه المرة أمام السائق ، معترفة بأنها لم تعد تطيق البقاء في بغداد ؛ فقد أيقنت أن الحرب أشرس من كل التوقعات ، وأن كل ما هيّأه (بابا) من وسائل لمجابهتها لا تجدي فتيلاً ؛ لذا لا مفر لها من أن تلجأ مع أسرتها إلى مدينة قريبة قد تكون (بعقوبة) . . . .

وصمتتْ متوقعة أن أبدي اعتراضًا ما ، وحينما لم أفعل أردفتْ وهي تتهرب بعينيها مني :

– سنلجأ إلى بيت أسرة تمتّ لنا بصلة قربى واهية ، وهم أناس ريفيون لا يزالون متمسكين بالقيم والتقاليد المتعارف عليها . .

لحظتني بنظرة سريعة قبل أن تواصل نواحها من أن الحياة أضحت في بغداد مستحيلة : فقد ضربوا الكهرباء أول ما ضربوا ليلحقوا بها الماء

والهاتف . . . وها هو دوي القنابل المتساقطة وانفجارات صواريخ (التوماهوك) و(الكروز) المنصبة على رؤوسنا من شتى بقاع الأرض وبحارها يختلط بعويل صافرات الإنذار الذي لم يعد يسع المرء التفريق بين الذي يعلن بدء الغارة عن الذي يبشّر بانتهائها ؛ فالغارات تتلاحق على مدار الساعة وكأن القيامة قامت!

وعادت إلى قضية اللجوء إلى تلك الأسرة (الريفية) في بعقوبة ، مؤكدة ثانية عدم تفهّم أفرادها لعلاقات عاطفية لم تدعم بعد بالصيغة الرسمية المتعارف عليها!

حينها أشفقتُ على أسماء وهي تجاهد لكي لا تبدو وكأنها في سبيلها إلى التخلي عني في لحظة توديعها لي ، فسارعت إلى انتشالها من شعورها بالإحراج مؤكدًا لها استحالة تزحزحي عن بغداد . وأضفتُ لحظة رأيتها ترمقني بنظرة إعجاب مصطنع وقد اتسعت عيناها المؤطرتان بالكحل :

– لا أعمد إلى ذلك بدافع بطولي ـ يكفي أن الحصول على رغيف خبز يقتضي الوقوف ساعات في طوابير معرضة في أية لحظة للإصابة بتلك الشظايا المتساقطة مثل قطرات المطر ـ بل إيمانًا مني بأن العراق كله مستهدف بهذا الهجوم .

وأضفتُ قبل أن يسعها الوقت اللازم للرد :

– وعلى كل حال إن أردتُ اللجوء إلى مكان ما لما وجدت خيرًا من مدينتي موضعًا مثاليًا لهذا الأمر .

يومها فكّرتُ جديًا بقطع هذا الطريق الإسفلتي الذي تجتازه هذه السيارة الضاجة بأحاديث ركابها القلقين ، واللجوء إلى مدينتي ، ولم يمنعني عن الإقدام على تلك الخطوة سوى حيرتي من كيفية مجابهة أبي

بعد سنوات القطيعة التي أبعدتْ أحدنا عن الآخر!

كيف لي أن التقيه مجددًا وصدى صفقة باب غرفته الذي أطبقه ورائي ، بعدما طردني إلى الأبد ، لا يزال يتردد في ذاكرتي مورثًا إياي اليأس؟

ثم كيف له هو أن يغفر لي اقتحامي عليه غرفته ومصارحته بحقيقة مشاعري نحوه بتلك الطريقة الفظة التي لم يألفها وهو الأب المستبد الذي اعتاد التحكّم في شؤون بيته؟

و(رؤى)؟ . . بأي وجه ألتقيها وقد تخلّيتُ عنها في محنتها وهي بين الحياة والموت؟

كانت جملة أمور تصيبني بالإحباط كلما فكرت بالسفر إلى هناك ، بيد أن أصدقائي ـ أخدان جلسات الشراب المعهودة ـ كانوا يجدون في قيام الحرب خير فرصة لإنهاء قطيعتي مع أبي ؛ حتى بلغ بهم الأمر أنهم رافقوني ذات يوم ، ونحن ثملون ، إلى (كراج النهضة) وقد عزموا على إيداعي أول سيارة متوجهة إلى مدينتي ولو قسرًا ، بيد أنني لم أكد ألمح وجهًا بدا مألوفًا لديّ ـ لعله كان أحد معارفي القدماء ـ حتى قفلتُ مغادرًا (الكراج) لا ألوي على شيء!

– إنك مريض دون أن تدري!

قالها ذلك الصديق المهووس بعلم النفس وهو يتأملني بنظرة متفحصة . وأضاف ناصحًا :

– يُفترض بك الإسراع بعلاج نفسك!

وشفع نصيحته بالمرور عليّ في شقتي بعد يومين أو ثلاثة طالبًا مني مرافقته إلى منطقة (البتاويين) لزيارة صديق سرعان ما تبيّن أنه طبيب نفسي تقوم عيادته المعتمة في إحدى طبقات عمارة عتيقة ترددتْ في

جنباتها ـ لحظة دخولنا ـ أصداء ناقوس كنيسة قائمة في الجوار ذكّرتني ، لسبب غير واضح ، بجدّي!

بدا الطبيب أحوج مني للعلاج ؛ فقد انشغل طويلاً بفتح أدراج مكتبه المتداعي لينبش فيها وقتًا أطول قبل أن يطبقها بعنف واحدًا عقب الآخر مكررًا دون كلل أنه يرى في الحرب المشتعلة من حولنا فرصة مثالية للعودة إلى العقل!

– أليس كذلك يا أستاذ؟

سألني بغتة وقد التفتَ نحوي غامزًا إياي بإحدى عينيه!

حتى إذا ما بدأ معي جلسته العلاجية العتيدة بقي يصغي لي وقتًا طويلاً دون أن يكفَّ عن هزّ رأسه الأصلع والابتسام بغموض لأفاجأ به يوقفني عن الاسترسال في الكلام ليترحّم بمنتهى الجدية على (سوفكليس) قبل أن يقرأ على روحه الفاتحة لكونه أعظم محلل نفسي استطاع بإبداعه اكتشاف أكثر العقد خفاء لدى الإنسان ، وأهملني ليضرب بنفسه مثلاً على ما يقول . وانساق لذكرياته عن طفولته الغابرة وعلاقته الملتبسة بوالديه!

في طريق العودة اكتفيتُ بأن سألتُ ذلك الصديق معاتبًا :

– ألا يفترض بك إيداع طبيبك هذا في مستشفى (الشماعية) عوضًا عن نصحي بالعلاج على يديه؟!

بيد أن ذلك الصديق لم ينهزم ؛ فقد بقي يتحايل عليّ بشتى الوسائل والسبل للقيام بزيارات متعاقبة إلى ذلك الطبيب انتهت بجعلي أحد زبائنه : أمرّ بعيادته من حين إلى آخر مترقبًا ، طوال جلسات العلاج ، سماع أصداء ناقوس الكنيسة تتردد في جنبات تلك العمارة العتيقة ، تلك الأصداء التي كانت تملأني حزنًا وتجعلني أتذكر جدي!

والحق أنني كنتُ أفتقد جدي أنذاك ؛ فلو أن العمر كان قد امتدّ به حتى ذلك الوقت لكنتُ لجأتُ إلى بيته دون تردد ، مستعيدًا معه سنوات طفولتي وصباي حينما كان يكفيني أن أسمع صوته لأدرك أن الدنيا لا تزال بخير :

– هيه . . أنتم يا أهل الكهف ، كفاكم نومًا . . . سيبلى فراشكم لطول اضطجاعكم عليه!

تلك جملته الأثيرة التي كان يصيح بها من خلف الباب كلما جاءنا زائرًا . وبنشاط لم يكن من دأبي كنت أنسلّ من فراشي ، فأسير بقدمين عاريتين ، مجنبًا نفسي التعثر بما يعترض سبيلي بسبب العتمة التي لم تنقشع بعد ، وسمعي مشدود لصرير الباب الذي تفتحه أمي . ومن خلال ذلك المستطيل المضاء بنور الفجر الباهت كنتُ أرى جدي وهو يعقل فرسه قرب العتبة ، مرخيًا عنها حزام السرج ، معلقًا برأسها مرشحة الشعير .

وبحياء غريب على رجل عجوز كان يضحك بهدوء وهو يدلف إلى المنزل ، مجيبًا عن استفسارات أمي عن صحته وأحواله ، متخففًا من أحماله بالتدريج : فيركن عصاه الغليظة خلف الباب ، وعلى مسمار في الحائط يعلق عباءته الصوفية ، وحينما يحاذي الصالة المفروشة بالبسط ينزع عن قدميه خفيه المحوكين من خيوط البريسم ، وبإزاء الجمرة النحاسية يضع خرجه المخطط ، مسقطًا بهزة من رأسه كوفيته المرقطة ، دون أن ينتبه لي ، أنا الذي أتحصن بعتمة إحدى الزوايا ، مراقبًا إياه بعينين ماكرتين ، كاتمًا ضحكة هائلة تزلزل جسدي الصغير سرعان ما تغدر بي وتنفجر ؛ فأندفع نحوه بخطى خفيفة ، وأفاجئه أثناء انحنائه ، فأشبك ذراعيّ حول عنقه ، مستنشقًا رائحة البراري التي تفوح من جسده القوي . وكان جدي يشبك بدوره ذراعيه المديدتين حول جسدي ، محتضنًا إياي وهو يفرد قامته ،

ليغرق رأسه في طاقيته البيضاء التي كدت أسقطها في اندفاعي الأخرق نحوه ، لافحًا وجهي بأنفاسه الدافئة العابقة برائحة التبغ :

– ها . . . أيها الولد العجوز؟ ألا تزال تبلل فراشك ليلاً؟

وتلك هي جملته الثانية التي لا يملّ من تكرارها ، ويشفعها بمداعبة الزغب المنتشر أسفل وجنتيّ ، والذي بسببه إنما يلقبني بالولد العجوز!

على يمين الجمرة ، وسط سحابة غبار أثارتها الحشية التي ألقتها أمي على البساط ، يتربع جدي ، ويجلسني على ركبته ، بعدها يغفل عني تمامًا ليبادل أمي ، التي تعمد إلى تهيئة الإفطار ، أحاديث لا تنتهي تدور حول القرية وبستانه وخيوله ، وأنا أتلهى بالنظر إلى وجهه عن قرب ، متمليًا بشيء من الدهشة عينيه الغائرتين تحت حاجبيه الكثيفين الأشيبين ، ولحيته الخفيفة التي خالطها البياض ، والتجاعيد والثنايا المتشابكة خلال سحنته السمراء المحروقة بفعل الشمس والرياح السموم .

كان يلذّ لي أن أراقبه عن كثب وهو منشغل عني بجملة أشياء تتوزع بين مضغ الخبز وارتشاف الشاي والكلام دون توقف وملء الغليون بالتبغ ، راكنًا إياه في زاوية فمه ، لتتصاعد منه سحب دخان تجعلني ألجأ للمكر : فأبالغ بالسعال لألفت انتباهه لي بعدما نسيني . وحينما أنجح أكون قد وقعت أسير نوبة سعال حقيقية تجعل جدي يربت على ظهري بغلظة :

– حا . . حا . . . لقد غدوت حقًا ولدًا عجوزًا!

وما أكاد أسيطر على سعالي ، وقد اخضلت عيناي بالدموع ، حتى أفاجأ به وقد تخلل شعري بأصابعه ، وشرع يهز رأسي بعنف كأنه يعمد إلى تهشيم عنقي ، مداعبًا إياي بطريقته الخرقاء التي كانت الشيء الوحيد السيء فيه!

لحظتئذ يكون أبي قد استيقظ ، وأخذ يشحط الأرض بخطاه المتعثرة

من فرط النعاس ، مرحبًا بأبيه ، سائلاً إياه عن صحته ، فيكرر جدي جملته الثالثة الأثيرة لديه :

– الصحة من عند الله أيها الولد العاق!

فيبتسم أبي وهو يجلس بجانبه ، مداعبًا إياه بادعائه أن تركه للقرية وسكنه في المدينة لا يعد عقوقًا منه ، إنما جاء ذلك بحكم الضرورة ؛ فالحياة في المدينة أكثر يسرًا وأمانًا لأسرته بسبب تغيبه الدائم عنها ، كما أن بالأطفال حاجة لدخول المدارس . ويجاريه جدي في مداعبته ؛ فيلح في تقريعه :

– لقد هربتَ من القرية وكفى . . . وتركتنا نحن الشيوخ نردّ عنكم غائلة المهرّبين واللصوص!

وهنا يتخلى عن مرحه ، ويستطرد بنبرة جادة متحدثًا عن عمليات سطو جديدة كانت نتيجتها سرقة ماشية بعض الفلاحين واحتراق قسم من الحقول ، وذلك ليس بالأمر المثير ؛ فسبق له أن حدثنا عن عمليات سطو مماثلة جرت في الماضي ، لكن الجديد في الأمر تأكيده أن ثمة شائعة انتشرت بين الفلاحين تتحدث عن خليط من إيرانيين وعراقيين خارجين على القانون وجدوا في الجبل القائم بين البلدين خير حصن مطمئنين إلى أنه ما من شرطي أو جندي يجازف بحياته بتعقّبهم إلى هناك!

ويضيف بنبرة منذرة :

– لقد كثر عدد المتحصنين بالجبل حتى باتوا يشكّلون قوة أضحتْ مصدر خطر على القرى المتاخمة للحدود!

– جدي . . . خذني إلى الجبل!

أفاجأ بصوتي النحيل ينطلق على الرغم مني غير أبه لتناقض طلبي المضحك مع جدية الموقف ؛ فما زارنا جدي مرة إلا وحدثنا عن ذلك الجبل

العجيب أحاديث تشحذ خيالي ، وتجعلني أتجول مغمض العينين خلال مراته الوعرة التي يستحيل اختراقها ، مطاردًا حيواناته وطيوره الوحشية!

– الجبل أكبر منك أيها الولد العجوز . لكنني على كل حال جئتك بشيء منه!

يجيبني وقد استعاد مرحه السابق ؛ فيسحب إليه الخرج القريب ، ومن إحدى فردتيه يخرج أقراص جبن وقربة لبن رطبة ، وحصيلة آخر عملية صيد قام بها تتوزع بين طيور الحجل والقطا والدراج . ومن الفردة الثانية يستلّ بأطراف أنامله كيسًا منتفخًا يرميه بطريقته الفظة المعهودة في حضني ، وما أكاد أشعر بشيء ما يتحرك في جوفه حتى أقذف به بعيدًا شاعرًا بالزغب المنتشر أسفل وجنتيّ وقد قفّ رعبًا . وأزداد خوفًا حينما أرى الكيس يختضّ في موضعه بعنف ، وتصدر عنه وصوصات خافتة تجعل جدي يبدو وكأنه جن تمامًا : فيقذف برأسه إلى الوراء مقهقهًا بانطلاق ، حتى يصبح بإمكاني رؤية حلقه المتورد وقد تدلت منه تلك الزائدة اللحمية الراعشة!

– ستبقى ذلك الولد الذي يرعبه طنين ذبابة . . . . هيا . . . . كن شجاعًا ، وافتح الكيس بنفسك لترى هديتي لك . . . . وإلا لن أكون جدك بعد الآن!

ويرفعني عن ركبته ليضربني على مؤخرتي . وبخطى وجلى أتقدم من الكيس ، وقلبي يدق في صدري بعنف ، وما أكاد أفتحه حتى أُفاجأ بطائر غريب بحجم حمامة يمرق من تحت أنفي ليتنقل بساقيه البرتقاليتين المصفرتين بوجل بين أرجاء الصالة بحثًا عن مخبأ يحتمي به . وأمام جمال ريشه الرمادي المزرقّ الذي تعلوه مسحة عسلية تتخللها حزوز حنائية ، لا أملك سوى أن أشهق منذهولاً ، فيعلق جدي :

– أرأيت؟ إنه ليس سوى فرخ طائر (كديري) . . . ولو ربيته لنما وأضحى كبير الحجم!

وبجدية مفرطة يتحدث جدي طويلاً عن هذا الطائر النفور الذي يستوطن ذلك الجبل القائم قرب الحدود ، والذي يستحيل صيده ؛ ذلك لأنه شديد الحذر ، لا يقرب البشر أبدًا ، ولا يترك الجبل إلا حينما تضطره ثلوج الشتاء للنزول إلى السهل .

ذلك اليوم هو أسعد أيام حياتي : تراني خلاله ألاحق جدي بأسئلتي المتعلقة بكيفية تربية طائر (الكديري) هذا؟ وما نوع الحَب الذي يلتقطه؟ وهل يشرب الماء كالدجاج قطرة إثر أخرى؟ أم يغترفه مثل الحمام؟ وألا يحتمل أن يفترسه قط الجيران؟ وألا يطير ويتركني حينما ينمو جناحاه؟ و . . . . والكثير من الأسئلة التي لا يملّ جدي من إجابتي عنها ، دون أن يكفّ عن إطلاق قهقهاته ، وتسميتي بالولد العجوز!

فجر اليوم التالي أستيقظ مرعوبًا على صوت جدي الذي يسحبني من ساقي ، فيخيّل إليّ لحظة خاطفة أن ما كنت أخشاه قد وقع ؛ وأن قط الجيران افترس طائري الحبيب . لكنني أُفاجأ بأن الأمر لا يتخطى أن جدي يهدف إلى أن يفرقع قرب أذني قبلة الوداع!

(٥)

كانت السيارة قد قطعت بنا مسافة طويلة من الطريق حيث خضرة الحقول شرعت تزداد ضيقًا وضآلة ، وقلّ عدد القرى والتجمعات السكانية المبعثرة على أطرافها ، وبات من النادر رؤية الصبيان على ظهور الحمير ، والكلاب تناور من حولهم بمرح وانطلاق ، ولم نعد نلمح الفلاحين المترقبين على قارعة الطريق قرب أكوام الخس والخيار المعروضة للبيع إلا عرضًا ، وافتقدنا منظر النساء الريفيات اللائي كنا نلمحهن في بداية الرحلة بكثرة لافتة للنظر : قرويات بأردية صارخة الألوان وسيقان ملفوفة بالخرق ، وعباءات مشدودة إلى الخصور ، وقد انحنت ظهورهن تحت أكوام الحطب التي تفوقهن حجمًا . راعيات يسرحن بأغنامهن حول مخاضات المياه المحاذية للطريق ، حيث تتكاثف النباتات . نساء يسجرن التنانير ، وأخريات واقفات تحت سقائف مرتجلة لبيع المرطبات ، أو متربعات على أكتاف الجداول والشاخات ، وهن منهمكات في غسل الملابس وأوعية الطعام .

شرعت الصحراء تهيمن على كل ما يحيط بنا حتى خط الأفق : تمتدّ رتيبة باعثة على الضجر والملل ، لا شيء يخفف من قسوة اتساعها المدوخ غير شجرة مفردة قائمة في هذا الجانب ، أو تل يرتفع في الجانب الآخر وقد جثم على ذروته طائر جارح سرعان ما يفرد جناحيه المديدين ليدفّ

بهما لحظات في موضعه قبل أن يسفّ منطلقًا نحو زرقة السماء .

استسلمتُ لارتجاج السيارة الرتيب ، شاعرًا عن طريق كوعي المرتكز على حافة النافذة باحتكاك العجلات على الطريق الإسفلتي المندفع باتجاهي ، مصغيًا للغط الركاب الذي عاد يرتفع من خلفي خافتًا ، تتخلله عبارات مبهمة يفصح بها بعضهم عن قلقه مما سيكون في انتظارنا في المدينة .

– (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

قالها الرجل العجوز بتسليم المؤمن الذي يوكل أموره إلى الله . ولاح لي في عمق المرآة الجانبية وهو يفتح الزر العلوي ، محررًا رقبته المعروقة من أسر الياقة ، ومال برأسه جانبًا لينام من فوره وقد فغر فمه بعض الشيء .

بدا رمزي وكأنه أخذ على عاتقه مهمة التخفيف من القلق المهيمن ، جاعلاً من (أبو خضر) – كالعادة! – ضحيته ؛ فكلما التفتُّ بوجهي إلى الوراء لمحته وقد عقد زنديه المفتولين على المسند الخلفي للمقعد الذي أمامه – حيث غاص ذلك الرجل بجرمه الصغير – ليسأله أسئلة مشفوعة بغمزات من عينيه كان يوزعها على المحيطين به دون أن تردعه تأوهات (أبو خضر) ، ومناشدته إياه أن يدعه وشأنه ؛ إذ تكفيه المصيبة التي نزلت به ، وعلى الفور وجد رمزي في تلك (المصيبة) خير فرصة لسلسلة أسئلة دفعت بـ (أبو خضر) إلى أن يكرر لازمته :

– لعن الله تلك الساعة التي قررت فيها مد رجليّ أبعد من غطائي!

ووسط القهقهات التي انطلقت من كل جانب – حتى ان الفتاة وجدت فيها خير فرصة لترسم على فمها أجمل ابتسامة قدمتها عن طيب خاطر للشاب الذي رد تحيتها بأحسن منها! – ارتفع صوت رمزي متسائلاً :

– ألا تخبرنا بأمر هذا الغطاء الذي مددت رجليك أبعد منه! . . .

ألحافًا كان أم بطانية؟

واستعرت الضحكات أكثر حتى ان (أبو خضر) اضطر إلى أن يشارك فيها بابتسامة محرجة تستدعي الإشفاق .

تمنّيتُ التدخل لوضع حد لعذابه لولا يقيني أنه من ذلك الصنف البسيط المتواضع إلى درجة السذاجة ، والذي قُدّر له أن يغدو أينما حلّ مصدر تفكه المحيطين به . وعلى كل حال شعرتُ بأن ثمة أمرًا ما يثقل عليه يود الإفصاح عنه بأي شكل من الأشكال ؛ فقد انساق عن طيب خاطر للعبة رمزي ، بل تخطاها بالقيام بحركة تهريجية لم أتوقعها منه : فقد فاجأنا بأن نهض فجأة ، وحاول المحافظة على توازنه بالاستناد إلى أكتاف القريبين منه ، حتى إذا ما أفلح في مغالبة اندفاع السيارة إلى الأمام ، قام بنصف دورة في موضعه عارضًا لأعيننا المغرورقة بالدموع قامته الضئيلة ، وثوبه الحائل ، وطاقيته التي يستحيل معرفة لونها الأصلي ، سائلاً إيانا بمنتهى الجدية :

– خبروني يا جماعة ، ما رأيكم بي؟

فصاح السائق وقد رفع وجهه متطلعًا إلى المرآة التي تعلو رأسه :

– اجلس في موضعك يا عماه ، ودعنا نصل إلى هدفنا بسلام .

وكان رمزي قد انقضّ على حزام (أبو خضر) محاولاً حلّ (إبزيمه) وهو يقول :

– انتظر . . . لابد لي من إنزال حزامك قليلا ليطوّق وركك قبل أن تبدأ وصلتك الراقصة!

فدفع (أبو خضر) يد رمزي بضجر قائلاً :

– يا لك من بطران! . . . . أي حزام! . . . وأية وصلة راقصة! . . قصدي كان سؤالكم عن ملابسي : دشداشتي وطاقيتي وحزامي . . . أثمة

ما يعيب فيها؟

- إطلاقًا . . . بل إنها مثال الذوق السليم!

تهالك (أبو خضر) ليغوص في مقعده ، حتى إذا ما مرّتْ لحظات فاجأنا بكلام جعلني أشاركهم في الضحك دون تحفظ ، مزيحًا إشفاقي عليه جانبًا ؛ فقد تساءل وهو يطرف بعينيه الفأريتين بأسى :

- صارحوني رحم الله أمواتكم : أيليق بي بعد هذا العمر ارتداء القميص والبنطلون!

- و(البايباغ) أيضًا! . . . ما المانع؟ أعرف أشخاصًا أضأل منك حجمًا بما لا يقاس ، لكنهم لا يكتفون بارتداء تلك الأشياء كلها . . . . بل يتوجونها بنظارات البريكية!

أجابه رمزي الذي كان أقدرنا على ضبط نفسه فلا يشاركنا في الضحك .

- ولكنني فلاح ، نسيتُ أن أذكر ذلك . . . أنا فلاح أبًا عن جد ؛ فما شأني بالقميص والبنطلون؟ ها؟ هيا خبرني : ما شأني بهما؟

تساءل (أبو خضر) بنبرة مفحمة ، فجاراه رمزي بأن مال برأسه إلى هذا الجانب مرة وإلى ذلك الجانب مرة بهيئة المنهزم قبل أن يسأله :

- لكنك نسيتَ أن تخبرنا عن تلك المناسبة التي استدعت منك ارتداء القميص والبنطلون . . . . أكان في عيد ميلادك . . . أم ختانك؟

فعلّق الشاب ، وعيناه مصوبتان نحو الهدف المنشود :

- بل لابد أنه كان في (الكرسمس)!

استدار (أبو خضر) رافعًا وجهه الضامر نحو رمزي خوفًا من أن يكون يسخر منه ، دون أن يولي القهقهات المنفجرة من حوله انتباهًا ، وحين اطمأن على (سلامة) نية رمزي أجابه قائلاً :

– ما من مناسبة اقتضت مني ذلك . . . . إنما هي (أهلي) التي طلبت مني ارتداء القميص والبنطلون!

– أهلك؟ تعني زوجتك؟

تلجلج (أبو خضر) لحظات وقد بان عليه الضيق . بدا في حيرة من كيفية اختيار التسمية اللائقة . وفي الختام حسم أمره بأن أعلن :

– أعني . . . . أم أولادي .

– حسن . . . . ولم طلبت أم أولادك منك ارتداء القميص والبنطلون؟

سأله رمزي جادًا هذه المرة وقد غلبه الفضول .

– ذلك بسبب وسخ الدنيا . . . . النقود!

– عجبًا! . . . وما شأن وسخ الدنيا بما ترتديه؟

– السالفة طويلة يا أخوان . . . دعوني أحدثكم بما جرى بالتفصيل .

مهّد (أبو خضر) لكلامه وقد اعتدل على مقعده ، فكبح بعض الركاب ضحكاتهم بصعوبة ، في حين كان آخرون يفلتون بين لحظة وأخرى ضحكات طال كظمها لم يولها الرجل اهتمامًا يذكر . وعلق الممرض وهو يدقق فيه النظر عن كثب :

– حدثنا . . . . وهل نملك لك منعًا وشهيتك للكلام في ذروة تفتحها؟

– ليس من باب الادعاء لو صارحتكم بأنني وجدت نفسي فجأة صاحب ثروة طائلة . . . . أكداس من النقود لا قدرة لي على عدّها . . . .

قاطعه رمزي على غير توقع :

– ومن أين جاءتك تلك الثروة؟ أسرقتها؟ أم أورثك إياها أحد أقاربك المتوفين؟

– أعوذ بالله! . . . كلا . . . لم أسرقها بطبيعة الحال . . . . كما أنني لم أرثها من قريب ؛ فكل من يمت لي بصلة يركض والعشا خُبّاز . . . . كل

ما هنالك هو أنني أزرع الشلب والحنطة ، فضلاً عن السمسم والخضر . . . .
وكل ما يخطر في أذهانكم . ما من نبات يؤكل لم أجرّب زراعته . . . . لم
لا مادامت هناك (الجمعية) التي تشتري منك ـ بسبب الحصار ـ كل شيء
بأسعار مغرية تدوّخ الرأس؟ كل موسم أذهب بأكياس متخمة بالحصول إلى
(الجمعية) لأعود بها وقد أتخمتها بالنقود . . . . آلاف الدنانير . . . بل
الملايين . . . لقد كثرت لدي النقود حتى لم تعد القدور وأغطية الوسائد
تكفي لاستيعابها . . .

قاطعه الشاب هذه المرة :

– دقيقة . . . . دقيقة . . . . أكنتَ تجمع نقودك في القدور وأغطية
الوسائد؟

– ذلك ما حصل قبل أن أعرف أن هناك مصارف من أجل هذا
الغرض . . . . المال عزيز يا جماعة الخير . . . لم يكن من اليسير عليّ أن
أحملها بنفسي لأعطيها لتلك المصارف عن طيب خاطر لقاء دفتر . . . لا
أطيل عليكم . . . لقد انقلبت حياتنا رأسًا على عقب : فـ (الحمل) الذي
كان (سياك) أم أولادي الوحيد ذهب طعمًا لنيران التنور ليحتل موضعه
(كنتور) من خشب (الصاج) بخمسة أبواب . . . . وحب الماء أزيح جانبًا
وملئ ترابًا لنزرع فيه شجيرة مطاط . . . . تصوروا! . . . . حتى المطاط
يزرع!! . . . . ما حاجتنا إلى حب وهناك ثلاجة يابانية على أحدث طراز ما
تكاد تضع فيها دورق الماء حتى يتجمد بقدرة قادر؟ . . . .التلفزيون الملون
تصدّر أهم موضع في البيت . . . . ورحم الله (القصخون) الذي كان يروي
لنا على أنغام ربابه سيرة عنترة لقاء رغيف خبز أو حفنة تمر . . . . و . . . .
وأم أولادي نفسها تغيرت : لم نكتف بإثقال زنديها و ـ والعرض واحد ـ
وساقيها بحلي تزن أكثر من كيلو . . . . بل إنها أخذت تلبس فوق

صايتها . . . . ما الذي يسمونه . . . روب . . . . أخذت تلبس روبًا أزرق نقشت على ظهره صورة آفة . . .

– تقصد تنينًا!

– تنين . . . . آفة . . . ما أدراني أنا؟ المهم أنها شرعت تتابعني في دخولي وخروجي البيت بنظرات غير راضية . . . . تضيّق عينيها هكذا لتتأملني من رأسي إلى قدمي قبل أن تتأفف مستاءة . . . لم أعد أطيق صبرًا . . . . سألتها ذات يوم ، وقد أخذت تصعّد عينيها وتنزلهما ، عما دهاها؟ أجابتني منفجرة أن كل شيء تغير في البيت باستثناء دشداشتي وطاقيتي . . . . ما حاجتي بهما؟ سألتها : أجننت يا امرأة؟ أتريدينني أن أذهب إلى الزرع ربي كما خلقتني؟ صاحت : فليذهب الزرع في داهية . . . . أكتب علينا أن نظل نزرع إلى الأبد؟ هدّأتها ، وطيّبتُ من خاطرها ؛ فهي تبقى شريكتي أيام الفقر والعوز . . . طلبت منها ألا تضع عقلها في دشداشتي وطاقيتي ؛ إذ تكفيها حليها وأروابها ونفانيفها وفوطها وجراغدها . . . لكنها أبت إلا الإمعان في عنادها ؛ قالت أتوحمت المرحومة أمك بالدشداشة والطاقية حين كانت حاملاً بك؟ ألابد لك من التشبث بهما إلى يوم القيامة؟ طلبتُ منها أن توضح قصدها ، فأجابتني أن قصدها واضح ؛ إذ ما مسوّغ التشبّث بهذه الدشداشة وهذه الطاقية ، ما دام هناك (أفندية) لا يملكون جزءًا مما نملك ولكنهم يرفلون بالقمصان والبناطيل؟ قلت لها : استهدي بالرحمن يا امرأة . . . لا تجعليني أضحوكة للجيران ؛ ما الذي يحسبونه قد جرى لي حين يرونني بالقميص والبنطلون وأنا في طريقي إلى الزرع؟ فصاحت وقد جُنّ جنونها : الزرع مرة أخرى؟ قلت لك فليذهب الزرع في داهية ، ما حاجتنا به بعد الآن؟ أنذرتني ـ وأنا أعلم جدية إنذاراتها ؛ فسبق لها أن نفذتها ـ بأنها ستهجرني . . . هكذا

ستترك البيت بعد هذا العمر وتعود إلى بيت أهلها إن لم أعمل برأيها . طلبت منها إمهالي موسمًا أو موسمين . قلت : سأضرب ضربتي ، فأضاعف ثروتي عشرات المرات ، وأنتقل بأسرتي إلى بغداد لأستطيع لبس القميص والبنطلون دون أن أخشى أن أغدو أضحوكة للمعارف والجيران . وافقتْ على إمهالي . . . ولكن . . . موسمًا واحدًا فقط . . . وهكذا مددت رجليّ أبعد من غطائيّ!

عاد رمزي يقاطعه :

– مهلاً . . . انتظر لحظة . . . الآن وقد وصلتَ إلى الغطاء ومد الرجلين . . . لم لا تزال متشبثًا بدشداشتك وطاقيتك اللطيفة هذه؟

– سأخبرك . . . سحبتُ كل ما أملك من المصرف وقد عزمت على شراء التمر . . . هكذا نصحني أحد أبناء الزنى ، مقنعًا إياي بأنه البضاعة الوحيدة غير القابلة للكساد . . . إنه الذهب الأحمر . . . هتف بي وهو ينفخ على حبّة تمر ملمّعًا إياها . . . وبعدما استعرضها لعيني من شتى الاتجاهات ـ كأنها أول مرة أرى فيها حبة تمر! ـ صاح وهو يلقم تلك الحبة فمه : ألا يسمّون النفط بالذهب الأسود؟ حسن . . . ما المانع من أن نسمّي التمر بالذهب الأحمر؟ هيا سارع بشراء أكبر كمية منه قبل أن يسبقك الآخرون . . . . وأنا لبلاهتي صدّقته ؛ فهرعت إلى أصحاب البساتين . . . . لم أنتظر كي يحملوا تمورهم إلى المدينة ، بل سارعت في الذهاب إلى بساتينهم يتقدمني طابور من الحمير سرعان ما عدت به محمّلاً بالتمر الذي ملأت به (علوة) حتى السقف ، فاستأجرت (علوة) ثانية ملأتها حتى السقف كذلك . ولم أتوقف إلا وقد ملأت (علوة) ثالثة . تركت الزرع والشلب والخضر ، وأضحى كل همي منصرفًا إلى مراقبة أسعار التمر : من يوم لآخر أمرّ على ابن الزنى ذاك طلبًا للنصيحة ، فيرجوني التريث بعض

الوقت . يقول ، وهو يعاود النفخ على حبة تمر جديدة مستعرضًا إياها لعيني من جميع الجهات لكي أتملى جمالها الخارق ، إنه الذهب الأحمر . . . انتظر حتى يبيع صغار الملاكين ما خزّنوه لتغدو المحتكر الوحيد للذهب الأحمر ؛ فحينها ستلهج بقراءة سورة الفاتحة على أرواح موتاي ، وذلك ما لم يحدث لطّخ الله أرواح موتاه بالقطران ؛ فقد بقي سعر التمر يراوح بين صعود طفيف سرعان ما يعاود الهبوط . هرعت إلى ابن الزنى ذاك كرة أخرى . خاطبته قائلاً وأنا أرتجف هلعًا : متى ترتفع الأسعار يا ابن الحلال؟ الأشهر تتعاقب وسعر ذهبك الأحمر يراوح في موضعه ، وحين مدّ يده ليتناول حبة تمر سارعتُ إلى الإمساك بمعصمه ؛ فأنا أعرف تفاصيل التمثيلية : النفخ . . . واستعراض التمرة لعيني من جميع الجهات . . . . أجابني أن سعره سيصعد في شهر رمضان . . . ومر شهر رمضان دون نتيجة ، فأقنعني أن انتصاف الشتاء هو الكفيل برفع الأسعار ؛ فمع البرد يستطاب عادة ازدراد التمر . ومرّ الشتاء وما من أحد يقرب تمري . بدا الأمر وكأن هناك مؤامرة كبرى تستهدف تمري ؛ فقد زهد التجار فجأة في شراء التمر . ما من واحد منهم يتنازل بالسؤال عن تمري . وهذه المرة جاءني ابن الزنى بنفسه . قال لي إنه عليّ السفر إلى بغداد للاتفاق مع تاجر صديق على بيع تمري له . وأعطاني عنوانه . وحين التقيت ذلك التاجر في مكتبه في (الشورجة) ردّت روحي إلى بدني ؛ طمأنني من أنه سيشتري تمري ، بل إنه اتفق معي على سعر لا بأس به لم أكن أوافق عليه لولا أنه أفلح في إقناعي ؛ فقد استلّ من أحد جيوبه أداة صغيرة ذات أزرار كثيرة تتخللها نقوش ضوئية خضر . . . .

- تعني حاسبة؟

قاطعه التاجر هذه المرة . وكان يجلس في الصف نفسه ، لا يفصله

عنه سوى مقعد لا يشغله أحد . ودس يده في أحد جيوبه ليخرج حاسبة بحجم علبة سجائر مدها نحو الفلاح الذي صاح :

– تمامًا . . . . مثل هذه . . . . ضغط على أزرارها ، وأراني نقوشًا ضوئية خضرًا ارتسمت في أعلاها ، قائلاً إن سعر الدولار هو كذا . . . . وحين سألته وما علاقة سعر تمراتي بسعر الدولار؟ ابتسم لي مشفقًا وقال : كيف ذلك؟ فسعر الدولار هو الذي يتحكم في تجارتنا . لم أناقشه بطبيعة الحال خوفًا من أن يكتشف جهلي ؛ إذ إنني لا أستطيع أن أفهم ما الذي يربط سعر تمراتي بالدولار . . . على كل حال أخبرته باستعدادي لشحن تمري متى شاء . فأمهلني بعض الوقت . قال : لم العجلة؟ وأضاف ضاحكًا ، مذكرًا إياي بابن الزنى الذي خلفته ورائي في مدينتي : فالتمر هو الذهب الأحمر الذي لن يصيب سوقه الكساد . سألته : والعربون؟ فاعتذر بحاجته إلى نقوده كلها لإنجاز صفقات لشراء الرز والشاي والسكّر . . . وأوضح أنه تاجر جملة كبير ، يتاجر بمختلف البضائع . وأضاف : المهم هو أنني اتفقت معك على السعر . . . لقد أعطيتك كلمة . . . وكلمة التاجر لا تصبح اثنتين . وهكذا أصبح من دأبي التوجه من حين إلى آخر إلى بغداد ، حيث اعتاد ذلك التاجر أن يلوّح بحاسبته عند استقبالي ليريني بها سعر الدولار ، طالبًا مني إمهاله بعض الوقت . وأمهلته كثيرًا . . . بل أمهلته أكثر مما ينبغي ؛ فها هو شهر نيسان وقد أوشك على الانتهاء ، ولم يبق على نزول التمر الجديد سوى شهرين أو ثلاثة ، وأم أولادي لا تكف عن ملاحقتي بعينيها كلما دخلت البيت . . . وهكذا عزمتُ أمري ، وركبت صباح هذا اليوم أول سيارة متوجهة إلى بغداد ، مهيئًا سلفًا كل الكلمات النابية التي امتنعتُ حتى الآن عن إسماعها التاجر ، مصارحًا إياه ـ وعيناي مثبتتان في عينيه ـ بأنه ليس أكثر من محتكر . . . لص . . سالب

الناس أرزاقهم . . . وكان جسدي قد شرع يتراجف غضبًا لحظة غادرت السيارة في كراج النهضة . . . حتى إذا ما وصلت إلى (الشورجة) ولاح لي وجهه المتورّد الشبعان وهو جالس وراء مكتبه ، يحيط به مجموعة من التجار لا تقل وجوههم عنه توردًا وشبعًا ، شرع دمي يغلي في عروقي . اقتحمت مكتبه دون سلام أو كلام ، وقد عقدت العزم على إنهاء المسألة بأية صورة كانت . لكنه عرف كيف يهدئني ؛ فقد وثب عن كرسيه الدوّار في استقبالي ، وصافحني بحرارة ، طالبًا التفضل بالجلوس ، رافعًا في الوقت نفسه صوته وهو يهيب بـ (الجايجي) القريب الإسراع بجلب إستكان شاي لي من (رأس القوري) . كان استقبالاً يبشّر بالخير أنساني كل الكلمات والشتائم التي سبق لي إعدادها ، بل إنني في الواقع أشبعتُ نفسي لومًا وتقريعًا لكوني قد انسقت لأفكاري بشكل لا يليق بي . ولبثتُ جالسًا على ذلك الكرسي ، أعبّ إستكانات الشاي دون ملل وقد عزمت على ألا أفاتحه بالموضوع ، تاركًا الأمر له هذه المرة ، واثقًا من أنه سينصفني في خاتمة المطاف . وحين رأيته لا يولي لأمري اهتمامًا ، مكتفيًا بأن يستدير بكرسيه نحوي مكررًا سؤاله عن صحتي وأحوالي بشكل آلي ليواصل بعدها ثرثرته مع زملائه ، لم أجد بدًا من تذكيره بغرضي من زيارته ، وذلك بالاشتراك في أحاديثهم بشكل موجز لا تخفى دلالته : كأنْ أعلّق ـ في اللحظة المناسبة بطبيعة الحال ـ أن كلمة التاجر لا تصبح اثنتين . . . أو أن الوفاء بالعهد من شيم التجار . . . حتى إذا ما لم تحقق طريقتي الغرض المنشود استثمرت تطرقهم إلى أصناف البضائع الأكثر رواجًا بأنْ أكدّتُ أن التمر . . . الذهب الأحمر يعدّ من أكثر البضائع بُعدًا عن الكساد!! . . وهنّأتُ نفسي حين رأيته يستدير بكل جسده في اتجاهي . ثبّتُّ نظرتي المتلهفة على فمه في انتظار سماع الكلمة التي ستكتب لي عمرًا جديدًا .

لكنه فاجأني بآخر ما يخطر في البال ؛ فقد صفع جبينه ، كمن يقرّع نفسه لنسيانه أمرًا كان لا يحق له نسيانه ، وسألني على غير توقع : بالمناسبة . . . ألم تسمع بما وقع في مدينتك؟ لم أحر جوابًا ؛ إذ ما الذي يحتمل أن يكون قد وقع في مدينة لم يمضِ على مغادرتي إياها سوى ساعات؟ قال : لقد حدث أمر ما . . . انفجار . . . قصف . . . عملية تخريبية . . . العلم عند الله ، المهم أن خطوط الهاتف تعطلت عن العمل . وهناك الكثيرون من أهل بلدتك سافروا إليها حال سماعهم بالخبر! . . لقد أقلقني ذلك الكلام دون شك ، ولكنْ . . . ليس إلى الدرجة التي أنسى معها تمراتي . سألته وقد انفجر الغضب المختزن في صدري دفعة واحدة : دعْ مدينتي لمصيرها ـ فالله المنجّي ـ وخبّرني بمصير تمراتي : أيبقى معلّقًا إلى الأبد؟ أجابني : كلا بطبيعة الحال ، ولكن . . . والتقط حاسبته الصغيرة المستقرة أمامه على المكتب . وبعدما ضغط على بعض أزرارها أكمل : ولكن السعر تغيّر تبعًا لتغير سعر الدولار . سألته مقرّعًا : وكلمة التاجر؟ أجابني باستهانة : أية كلمة تعني يا رجل؟ فكلمة الرجل تقررها هذه! . . . وأضاف بعدما لوّح بحاسبته : الأسعار تتغير هذه الأيام بين ساعة وأخرى ، فضلاً عن أن ما وقع في مدينتك سيؤثّر على سعر تمرك . . وقبل أن يتسنّى لي الاعتراض التفتَ نحو زملائه مستشهدًا بهم ، فلم يخذلوه ؛ فقد بادر كل واحد منهم إلى إخراج حاسبته والعبث بأزرارها قبل أن يعلن تأييده له ، مؤكدين ، دون استثناء ، أن أسعار البضائع مرهونة بسعر العملة الـ . . . ماذا يسمونها؟

فأسعفه التاجر :

– العملة الصعبة .

– تمامًا . . . العملة الصعبة . . . عشنا وشفنا : عملة صعبة وأخرى سهلة! . . ما الذي جرى للناس؟! . . . لا أطيل عليكم . . . لم أقتنع

بكلامهم ذاك بطبيعة الحال . كنت ملزمًا ببذل جهودي كلها سعيًا مني لانتزاع حقوقي الموشكة على الضياع . جادلتهم طويلاً مفنّدًا أراءهم دون تهيب . وجادلوني دون أن يكفوا عن ضغط أزرار حاسباتهم من حين لآخر ، مبرهنين ، بتلك الأرقام الضوئية الخضر ، على صحة حججهم . أرغيتُ وأزبدت مهيبًا بهم الإحساس بمحنتي وذلك بوضع أنفسهم في موضعي ليدركوا حجم الخسارة الذي يوشك أن ينزل بي . . . ولكن . . . عبثًا ؛ فقد وقفوا لي بالمرصاد ، مساندين زميلهم ، تاركين لحاسباتهم اللعينة القول الفصل كلما تأزّم الموقف . فجأة وجدتُ أن الصمت أولى بي . . . سكتُّ . . . زهدت في مجادلتهم . لم يعد مصير ثمراتي يهمني قيد شعرة . تذكّرتُ أيام زمان حين كان الناس يتبرّكون بالقرآن الكريم فيستخيرونه حين يكونون في سبيلهم للقيام بعمل ما . كانوا يتفاءلون بأول آية تطالع أعينهم لحظة فتحهم المصحف كيفما اتفق ؛ فيعملون بحسب تأويلها . . . كان القرآن كلام الله المنزّل على صدر محمد ، هو حجتهم وهاديهم في حياتهم وتجارتهم . . . أما الآن؟ تطلّعتُ بأسى إلى الحاسبات المستقرة بين أيديهم . . . أستغفر الله العظيم!

راء النذير

(١)

عمّ الصمتُ السيارة ، وبقي هدير المحرّك وحده يتردد في الأسماع . تنبهتُ إلى الركاب يتجنب بعضهم مبادلة بعض النظر ؛ كأن ثمة شعورًا بالندم يخامر الجميع لتماديهم في سخريتهم من (أبو خضر) . وكان رمزي قد كفّ عن توزيع غمزاته على المحيطين به ، وامتنع عن تأجيج الحوار بأسئلته الفكهة الساخرة ، مكفّرًا عن شعوره بالإثم بمسح غبار موهوم عن كتفي (أبو خضر) معدّلاً له طاقيته فوق رأسه!

كان التاجر الوحيد الذي جرؤ على إبداء رأي مخالف ؛ فقد علّق بحذر بعدما دسّ حاسبته في أحد جيوب سترته الأنيقة :

- لا يوجد مسوّغ لإجراء تلك المقارنة ؛ فالزمن تغير ، والاستعانة بالحاسبات غدتْ من متطلبات السوق ؛ ذلك لأنها ، ببضع لمسات ، تعطيك الرقم الذي ييسّر عليك تجارتك . . .

سارعتُ إلى مقاطعته خوفًا من أن يسبقني (أبو خضر) بكلام يفسد به على نفسه الخاتمة التي انتهى إليها :

- تعني رقم العملة الصعبة؟

فاستدار التاجر نحوي متضايقًا . وبعدما تأملني لحظات أجابني متحديًا :

– أجل . . . أعنيه هو ؛ إذ ما الضير منه ما دام قد غدا من متطلبات السوق؟

– بل الضير كل الضير يا رجل!

أجبته مبادلاً إياه النظر . وأردفتُ وأنا على استعداد لإهانته إنْ تطلب الأمر ذلك :

– أنا أعلم أن مصير تمر الرجل قد تحدد الآن ؛ فإما أن يبيعه بأقل من سعر الشراء إلى معامل الدبس ، وإما أن يتخلص منه ببيعه بسعر التراب علفًا للحيوانات . . . بيد أن ما يحزّ في النفس هو الدرك الذي انحدر إليه هؤلاء التجار!

كنتُ قد رفعت صوتي دون أن أشعر ؛ فقد انتبه العجوز من إغفاءته ، فأخذ يحملق بي من موضعه ، محاولاً أن يفقه سر ما يجري .

تابعتُ بصوت أهدأ ، متذكرًا أحد الأمثال الشعبية التي اعتاد أبي تكرارها على سمعي :

– ليس الضير في الحاسبات ؛ ذلك لأنه من المضحك أن أدعو إلى عدم الاستعانة بها ، إنما الضير كل الضير في العقول الرابضة وراء الأصابع التي تعبث بأزرار تلك الحاسبات ، مغتنمة ظروف الحصار في سرقة الناس وكأنما ليس لها عهد بذلك المثل القائل (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق)!

همس السائق مشجعًا بعد طول تجاهله لي :

– بارك الله فيك . . . لقد أخرسته!

بيد أنني لم تكن بي حاجة إلى التشجيع ؛ فامتناع التاجر عن الرد عليّ - ترفّعًا أو تهرّبًا - سلبني الحجة على مواصلة هذا الحوار الملغوم ، فعدتُ بوجهي إلى الأمام وصوت أبي يردد ، هذه المرة ، ذلك المثل ملء ذاكرتي ؛ فما من مرة انفرد بي في تلك الغرفة ، حيث اعتاد الانهماك في

تفسيخ البنادق وتزييتها قبل إعادة تركيبها وتعليقها على الحائط ، إلا وردد ذلك المثل مقترنًا بمأثرة جدي الذي جابه أعداءه الذين كانوا يفوقونه قوة وبطشًا ونفوذًا بالتحدي والصمود ؛ فقد وقف لهم في المحاكم ندًا يقارع الحجة بالحجة ، دون أن تردعه رصاصات التحذير التي صفَرتْ مرات ومرات على قيد شعرة من رأسه ، وهو ماضٍ في غرس الفسائل في أرضه ليلاً!!

– لعل شغفي بتجميع هذه البنادق التي سأقص يومًا ما عليك ـ حين تكبر بعض الشيء ـ قصة كل واحدة منها ، لعله يعود لذلك البستان الذي غُرس بالفسائل ليلاً!

هكذا اعتاد أبي الاسترسال في ضرب غريب من كلام كان يبدو كأنه يناجي به نفسه ؛ ذلك لأنه لم يكن يولي جهلي بما يقول أدنى اهتمام!

– من المؤكد أن الأمر كذلك ؛ فأنا لم أكن في يوم ما محبًا للقتل وسفك الدماء ، إنما أحببتُ البنادق لأنني أدركت أنني بها وحدها أردّ كيد القتلة وسفاكي الدماء عن بيتي وأرضي .

وكان يعقّب ، وهو يلاحظ نظرة الحيرة التي أتابعه بها ، محاولاً توضيح مغزى كلامه السابق :

– أنا رجل أميّ ، لا علم لي بما يلقنونكم به في المدارس ، بيد أن ما لن أنساه أبدًا هو أن ذلك البستان الذي غُرس بالفسائل ليلاً كان المدرسة التي تعلمت منها كل شيء . . . أجل . . . لا تُدهش من كلامي هذا ؛ ففي الجيش ، حين تطوعت فتدرّجتُ من جندي إلى جندي أول إلى نائب عريف فعريف ، ما من مرة حدثونا عن الوطن وحب الوطن وحتمية التضحية بالنفس دفاعًا عنه ، إلا ورأيت الوطن على شكل ذلك البستان!

حينها ينفض أبي يديه عن بنادقه ليسترسل مع ذكرياته وقد غامت

عيناه :

– بستان نما وكبر معي ، يكاد عمر أكبر نخلة فيه ـ تلك التي تتوسطه الآن تمامًا ـ يقارب سنوات عمري أنا ؛ فحين غرس جدك تلك الفسيلة كنتُ في حدود الرابعة أو الخامسة من عمري .

– ولكن . . . أي بستان تعني يا أبي؟

هكذا فاجأته ذات يوم بذلك السؤال وقد غلبني الفضول ، فتنبه لي بشيء من الدهشة كأنه فوجئ بوجودي متربعًا أمامه . وتأملني بحنان لحظات قبل أن يستدرك مقرّعًا نفسه :

– إنك معذور بسؤالك هذا ؛ فقد أبقيتك في جهل بما أقول ، ويبدو أنه آن لي أن أحدثك بتفاصيل ما جرى ؛ فقد بلغتَ العمر الذي يؤهّلك لسماع ذلك .

وهز رأسه لحظات مبتسمًا لي باعتزاز قبل أن يشبع فضولي :

– أتذكّرُ ما يشبه الحلم يوم صفّق جدك باب البيت داخلاً بطوله الفارع كالعاصفة ـ يا إلهي! . . . كم كان يبدو فارع الطول حينذاك! ـ ليهرع من فوره إلى الموضع الذي اعتاد أن يخفي فيه بندقيته ، آمرًا أمي بأن تدعني وشأني وتكفّ عن إفسادي بتدليلها لي ، طالبًا منها الإسراع في جلب لبنات كانت مكوّمة خلف البيت ، في حين انهمك هو في تفحّص بندقيته قبل أن يلقمها بالرصاص ، مهيبًا بي الكفّ عن مراقبته ببلاهة ، ومساعدته بملء الإبريق وانتظاره به خارج البيت .

وتأمّلني أبي بانتباه قبل أن يواصل كلامه :

– كنت أصغر منك بكثير . . . أكاد أكون بنصف عمرك ، إلا أن ذلك لم يمنعني من أن أصدع من فوري لأمره : فقد سارعت إلى التقاط ذلك الإبريق النحاسي الذي كاد يقاربني حجمًا ، حتى إذا ما ملأته بالماء من

الجدول القريب أخذت أرزح تحت ثقله وقد احتضنته ، ممسكًا به بكلتا يدي ، وأنا واقف به خافق القلب في انتظار أبي ، أميل به إلى هذا الجانب تارة وإلى الآخر طورًا دون أن أجرؤ على وضعه على الأرض ؛ فقد كان الرعب قد شلّني تمامًا : فهناك في الداخل أبي مع بندقيته التي لم يكن يقربها إلا نادرًا ، وهنا أمي تمرّ بي من حين لآخر محمّلة باللبنات رامقة إياي بعينين هلعتين ، وعلى مدى البصر تمتد حقول القمح وقد انتصبت السنابل على سيقانها بسكون مريب ، كأنها في انتظار وقوع حدث جلل زاد من رعبه بنات آوى كان من المألوف أن يتصاعد عويلها في مثل هذا الوقت من البساتين التي تؤطر بسوادها الأفق الغربي ، حيث الشمس آذنت بالمغيب ، فتلوّنت السماء في ذلك الموضع بلون الدم .

وعاد أبي يبتسم لنفسه بشرود مواصلاً كلامه :

– وبعد مرور وقت بطول دهر غادر جدك البيت ، حاملاً مسحاة شرع يقلب بها التراب بمحاذاة الحقل ، آمرًا إياي بأن أفرغ عليه ماء الإبريق قبل أن أملأه ثانية . هكذا بقينا نعمل صامتين ، يتردد من حين لآخر صليل المسحاة حين احتكاكها بحصاة مدفونة ، وأمي تراقبنا من فرجة الباب بعدما أنجزت عملها بحمل اللبنات إلى الداخل ، دون أن تجرؤ على سؤال جدك عن الأمر ، في حين مضى هذا في مواصلة عمله : فبعدما جبل الطين في الحفرة ، كوّر كمية منه بين يديه حملها إلى الداخل آمرًا أمي بأن تحذو حذوه . وشرع في تضييق تلك الفتحات التي تُعمل عادة في جدران البيوت المفردة في العراء ليتسنى لأصحابها التطلع من خلالها إلى جميع الاتجاهات تحسبًا لأي خطر أو تهديد ، وحوّلها إلى مزاغل لا تستوعب سوى فوهة بندقية . حينها لم تطق أمي صبرًا ؛ فتجرأت على سؤاله عما جرى؟ أثمة حرب قد وقعتْ؟ ولم يكن قد مرّ على الحرب العظمى إلا

أعوام معدودة. لكنه كعادته لم يجبها؛ فبعدما انتهى من عمله وغسل يديه وبدّل ثوبه اكتفى بإحكام إغلاق الباب من الداخل، وتقليل ضوء الفانوس إلى أدنى حد، ليقضي الليل كله في التنقل بين تلك المزاغل مراقبًا ما يجري في الخارج!

وأمهلني أبي بعض الوقت لأتملّى الرعب الذي تجرعه آنذاك قبل أن يكمل كلامه:

– على تلك الوتيرة مضتْ أيام كنا نترقب فيها حلول الليل بهلع لا يوصف؛ فقد كان جهلي بالخطر الوشيك يزيد خوفي تفاقمًا، فضلاً عن تمتمات أمي المبهمة، وهمسها الغامض، وتجمدها في موضعها مرهفة السمع كلما تردد صوت ما، كان يكاد يخرجني عن طوري. كنت، برغم حداثة سني، أحسب أن أبي قد أصيب بمسّ من الجنون لولا حصول أمور لم يكن لنا بها عهد من قبل: فكلما حلّ دور جدك في سقي حقله، فأطلق الماء في الموعد المحدد، فوجئ بعد ساعات بصدر جدوله المتفرع عن النهر قد ردم قبل أن يجري الماء فيه أمتارًا. وأصبحت لأمي مشكلتها أيضًا؛ فما من مرة أعادت فيها دجاجاتها ـ التي اعتادت تركها تسرح طوال ساعات النهار قرب الحقل ـ إلى القن عند حلول الظلام إلا وأعلنت مكفهرة الوجه عن اختفاء واحدة منها، لتضج ذات صباح بالصياح؛ فقد اعتادت أن تبدأ نهارها بإطعام دجاجاتها، ففوجئت بخلو القن منها كلها!... وحلّ بعدها الدور عليّ أنا: فذات ليلة لا تُنسى جفلت من نوم محموم حافل بالكوابيس على ضجيج حشد من الناس كانوا يحومون صارخين قرب الباب وهم يؤدون عملاً غامضًا لم أدرك مغزاه إلا بعدما خرجت من البيت لأصعق بمنظر نار هائلة كانت قد شبّتْ في مخزن الغلال سرعان ما شدّتْ أنظار الفلاحين؛ فتركوا بيوتهم المبعثرة في شتى

أرجاء السهل ، وهرعوا لإطفاء تلك النيران ، وقد نجحوا بعملهم الجماعي ذاك ؛ فانتشلوا عددًا من الأكياس التي لم تذهب طعمًا للنيران . وتمثّلتْ الضربة التي أصابت جدك في الصميم بالكارثة التي نزلت بمهر كان موضع رعايته الدائمة ؛ لا يكتفي بإطعامه الشعير المجروش ، بل يدعه يسرح على هواه عند كتف النهر ليعود من تلقاء نفسه مع غروب الشمس . يومذاك فوجئ بخلو الإسطبل منه ؛ فتنكب بندقيته آمرًا إياي بالالتحاق به لنتعقب آثار المهر التي سرعان ما قادتنا إليه ، فوجدناه راقدًا وسط بركة دم ، لا يكف جنبه عن الارتفاع والانخفاض وهو يتنفس بعسر ، وثمة جروح عميقة حزت طرفيه الخلفيين عند المفصل قاطعة الأوتار ، حيث اللحم بدا في ذلك الموضع ورديًا يميل إلى البياض ، لا يكف عن الارتعاش . ما كاد المهر يشعر بنا حتى أخذ يستميت لكي يثب واقفًا ، فيغرز طرفيه الأماميين في الأرض المعشبة محاولاً الاستواء على أطرافه الأربعة لولا أن طرفيه الخلفيين المشلولين كانا يخذلانه ، فيسقط في موضعه مثل جدار ينهار فجأة ، ويرتطم رأسه بالأرض بدوي مؤلم ، لكنه يكرر المحاولة اليائسة ثانية محمحمًا حمحمة أقرب ما تكون إلى البكاء . لحظتئذ حانت مني التفاتة نحو أبي الواقف فوق رأس مهره الأثير ، والبندقية مستقرة بين يديه ، لم أصدق عيني حين لاحظتُ ومض دمع يتوهج على إحدى وجنتيه ، حسبته محض خداع بصر بسبب الظلام الآخذ بالتكاثف من حولنا ، بيد أن تهدج صوته أكد صحة ملاحظتي ؛ فقد سمعته يردد بصوت باكٍ وهو يهيئ بندقيته للإطلاق : (متى كانت الخيول تُطبر يا أولاد الزنى؟! . . . لو كانت بقرة أو خروفًا لهان الأمر . . . أما أن يكون مهرًا أصيلاً معروف النسب . . .) واستعاض عن إكمال كلامه بالضغط على زناد البندقية فدوت إطلاقة يتيمة ارتطم على أثرها رأس المهر بالأرض إرتطامته

الأخيرة . وقفل جدك عائدًا إلى البيت لا يلوي على شيء ، وأنا أتعقبه مأخوذ اللب دون أن أكفَّ عن التلفت ، بين خطوة وأخرى ، نحو ذلك المهر الذي سكن في موضعه ذاك إلى الأبد . وعند باب البيت كاد جدك يصطدم بأمي التي كانت في سبيلها للالتحاق بنا على أثر سماعها صوت الإطلاقة ، فأفرغ غيظه فيها ، لينصرف على امتداد تلك الليلة إلى تدخين السجائر : يوقد الواحدة من عقب الأخرى . . . هكذا حتى مطلع الفجر .

وتصلب أبي في جلسته ، وكل ملمح فيه يشي بأنه وصل إلى ذروة قصته :

– ذات ليلة ضجت كلابنا بالنباح ، فسارع جدك إلى التقاط بندقيته التي اعتاد أن يضعها آنذاك في متناول يده . ونفخ مطفئًا ضوء الفانوس . ولم تمر سوى لحظات حتى دُقَّ الباب ، فالتصقتُ بأمي التي لم تكن أقل رعبًا مني . وعادوا يدقون الباب ثانية ، دقوا عليه طويلاً هذه المرة حتى خُيِّل إليَّ أنهم سيظلون يدقون إلى انبلاج ضوء الفجر . إلا أن أبي لم يحرك ساكنًا ، هجست به يتلمس سبيله في الظلام نحو الباب ، ليقف هناك لا يريم حراكًا ، إلى أن سمع صوت رجل من معارفه يناديه باسمه داعيًا إياه إلى فتح الباب ، فصدع لطلبه . لكنه لم يدعهم يدخلون ، إنما خرج إليهم بنفسه ، مرق إلى الخارج ببندقيته . . . هكذا لمحتُ طيفه المعتم يمرق من خلال فتحة الباب إلى نور القمر الذي كان يملأ العراء . وارتفعت أصوات من الخارج لم يسبق لي سماعها . بدا من الواضح أنهم غرباء اصطحبوا معهم ذلك الرجل سعيًا منهم لإقناع أبي بتسوية أمر ما دون اللجوء إلى العنف ، فضحك أبي بمرارة مؤكدًا أن العنف قد حصل ، وكانت نتيجته تطبير مهره وإحراق مخزن غلاله . تجادلوا طويلاً دون أن أفقه أغلب كلامهم ، بيد أن ما أتذكَّره جيدًا ذلك الغضب الذي عصف بجدك ؛ فقد

طردهم شرّ طردة ، وأطبق الباب وراءهم بعنف مردداً ذلك المثل الذي لعله كان أول مثل ترسخ في ذهني : (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق) . تلك الليلة ـ وقد ازداد تنقله الهموم بين المزاغل ـ كاشف أمي بسر ما يجري من حولنا ، ليس حبًا بها ـ إذ ما وجد إنسان مثله بغضًا بإظهار العواطف ـ بل تحسبًا من رصاصة قد ترديه في الظلام . قال محذرًا إن كل ما مر بنا لا يكاد يقارن بما نحن مقبلون عليه ؛ فحياته نفسها قد غدت الآن مستهدفة ، فارتفع صوت أمي بالبكاء . لكنه سارع إلى إخراسها بإحدى صرخاته الجبارة ، طالبًا ألا تستبق الأمور ؛ فحين تقع الواقعة يكون في وسعها ذرف ما تشاء من دموع . أخبرها أن كل ما يطلبه منها هو ألا تدع جثته تذهب طعمًا للجوارح والكواسر في برية تفصل الجار عن جاره مسافات شاسعة . قال إنهم قد استنفدوا وسائلهم كلها معه دون أن يحققوا هدفهم بإجباره على التخلي عن أرضه وبيعها لهم بالسعر الذي يحددونه هم . فتساءلت أمي ناشجة عن سر رغبتهم المفاجئة بامتلاك أرض ورثها عن آبائه وأجداده؟ فأجابها أن سبب ذلك يعود إلى شروع الإنكليز ، منذ أسابيع ، في النظر في مشكلات حدود الأراضي المتنازع عليها ليس من أجل حلها ، بل لمكافأة الشيوخ والملاكين الذين عاونوا الإنكليز في صراعهم مع العثمانيين ، مستندين بذلك إلى وثائق وسندات (طابو) زوّرها لهم الموظفون ، سعيًا منهم إلى توسيع حدود أراضيهم التي لم تعرف التوقف عند حد . وذكّرها بما جرى في زمن أبيه حين أصدرت الدولة العثمانية قانون (الطابو) ، وكيف أن الجشع دفع بعض المتنفذين آنذاك إلى أن يسجلوا أراضيهم في سجلات الدولة الرسمية بما يلوح للبصر حتى الأفق . في حين لم يكتف آخرون بذلك ، إنما سجلوا حدود أراضيهم بما في وسع خيّال قطعه وهو على ظهر حصانه على مدى ساعات نهار كامل . واختصر

آخرون حدود أراضيهم بما بين مشرق الشمس ومغربها! . . . قال إن المرحوم أباه استطاع الاحتفاظ بأرضه برغم ذلك ، وها هو الدور قد حل عليه الآن ليبرهن على جدارته بأن يكون سليل أبيه .

وصمت أبي وقتًا طويلاً مستجمعًا أفكاره قبل أن يستأنف حديثه :

– صباح اليوم التالي توجّه جدك إلى المدينة لمتابعة قضية أرضه في المحاكم ؛ فقد كان يعرف مدى اهتمام الإنكليز في إظهار أنفسهم متحضرين حريصين على اتباع القوانين والأنظمة على النقيض من العثمانيين ؛ ففي الوقت الذي كانوا يزوّرون فيه خفية الوثائق والسندات لصالح عملائهم ، كانوا يدقّقون علنًا في ما يعرض على محاكمهم من دعاوى تخص الأرض ، معززين بذلك الصيت الذي رفعوه شعارًا لهم عن كون القانون فوق الجميع . هناك قضى جدك نهاره ليهرع عند عودته من المدينة إلى بستان صديق قالعًا أول فسيلة ، حتى إذا ما حلّ الليل ألقى بها على كتفه ، والتقط المسحاة ، وتسلل في الظلام مغادرًا البيت ، وأنا في أعقابه . لم نتوقف إلا في منتصف الحقل تمامًا ، حيث شرع جدك يحفر الأرض دون أن يكفّ عن التلفت حوله وإرهاف السمع ، تاركًا إياي أجرف التراب الرطب بذراعي الاثنتين مبعدًا إياه عن حفرة سرعان ما غرس فيها الفسيلة ، منبهًا إياي همسًا على ضرورة توجيه موضع انفصال الفسيلة عن النخلة الأم في اتجاه القبلة . وبعد ذلك تمتم قارئًا سورة الفاتحة قبل أن يحيط الفسيلة بالتراب مطلقًا نحوها الماء . منذ ذلك اليوم أصبح من دأب جدك التوجه صباحًا إلى المدينة لمتابعة قضيته في المحاكم ، غارسًا في الليل فسيلة جديدة دون أن تردعه الرصاصات التي بدأت تستهدفه من حين لآخر . وعلى جري العادة : طالت القضية وتشابكت ما بين تأجيل واستئناف ولجان كشف واستقصاء وتدقيق وتسوية . . . طالت واستمرت

أعوامًا ، في حين بقيت الفسائل تمد جذورها في أرضه ، حتى إذا ما حلّتْ لحظة الحسم بعد صدور قانون تسوية الأرضي رقم (٥٠) وجدتِ المحكمة نفسها أمام الأمر الواقع ؛ فجدك كان قد أضحى صاحب بستان لا جدال على أن نخيله غدت من حقه استنادًا إلى قانون المغارسة!

وتطلع أبي نحوي وقتًا طويلاً كأنه في انتظار أن أطرح عليه سؤالاً ما . وحينما لم أفعل باغتني على غير توقع :

– أتحسب أن القضية انتهت عند هذا الحد؟

لم أجبه بطبيعة الحال ، بل بقيت أبادله النظر عسى أن يفصح عن رده بنفسه ، وذلك ما حصل ؛ فبعدما لملم أشياءه من حوله دلالة انتهاء عمله واصل كلامه :

– كلا . . . لم تنته القصة عند ذلك الحد وكأن الله سبحانه وتعالى ، لحكمة شاء أن يظهرها للناس ، خصّ ذلك البستان ببركته ؛ فقد أضحى مصدرًا لأمور غريبة جعلت حكايته على كل لسان : فذات ليلة ربيعية مقمرة هبت ريح عاصفة على غير توقع ، فادلهمت السماء خلال لحظات بسحب سود راعدة ، وتلوّن كل شيء بوهج أزرق يخطف الأبصار ، قعقع بعدها الرعد بسلسلة انفجارات متعاقبة انتهت بدويّ هائل اهتزت الأرض على وقعه ، وفي اللحظة عينها شبّتِ النار وسط البستان تمامًا . أحدث ذلك بسبب البرق؟ أم بفعل مجهول؟ من المحال معرفة ذلك . ما أتذكره بوضوح الآن هو أنني هرعت في أثر جدك نحو البستان ، والمطر يجلد وجهي بقطراته المثقلة برائحة الغبار ، مبللة ثيابي حتى العظام . كنت أركض بين النخيل كالأعمى مصطدمًا من حين لآخر بأشجار تعترض سبيلي فجأة ، متخذًا سبيلي نحو تلك النار التي كانت برغم غزارة المطر قد ازدادت ارتفاعًا ، وأخذت ألسنتها المتراقصة تضيء ما حولها إلى مسافة

بعيدة شدّت أنظار الفلاحين الموزعين في شتى أرجاء السهل ، فهرعوا مثنى وجماعات سعيًا منهم لإنقاذ بستان ينتمي إلى بساتينهم كلها ؛ فعلى امتداد السنوات التي وقف خلالها جدك ندًا صلبًا لخصومه لم يملك هؤلاء الفلاحون المعدمون ما يساندونه به غير مكافأته بأجود أصناف الفسائل : كل يوم يعود في ختامه من المدينة مرفوع الرأس يجد في انتظاره فسيلة سرعان ما تتخذ لها موقعها في بستانه مع هبوط الظلام ، هكذا تعاون الجميع على محاصرة تلك النيران في سريانها الخاطف وسط الأعشاب ، مطفئين إياها في آخر الأمر ، حيث ارتفعت سحب دخان زادها المطر كثافة . صباح اليوم التالي ، ومع شروق الشمس ، تعقبت جدك وهو يتخذ سبيله نحو تلك البقعة التي شبت فيها النار . . . فما الذي رأيناه؟ كانت الأرض في ذلك الموضع سوداء مغطاة برماد الحشائش والأدغال ، وفي وسطها تمامًا انتصبت النخلة ـ أول فسيلة زرعها جدك وسط حقله منذ سنوات ـ سالمة لم تلسع النيران سوى أطراف جريدها! . . . في ذلك الوقت حصلتْ تلك الأمور الغريبة ؛ فقد قيل إن أكثر من امرأة عاقر حظيت بنعمة الحمل بعد ازدرادها تمرات من تلك النخلة ، كما أنه كان يكفي الأم أن تتجول بطفلها المريض خلال ذلك البستان ليشفى من علته بعد أيام!!

(٢)

لعلني أدين لهذه الرحلة في نفض الغبار عن تلك القصة التي شكّلتْ أهم منعطف في حياتي ؛ فبسببها حسمتُ اختيار الكتابة لي طريقًا ؛ فمنذ اليوم الذي صدّر مدرس اللغة العربية بها نشرة الحائط بقيتْ ترافقني على امتداد سنوات عمري : تنمو ، مثل بستان جدي ، في ذاكرتي صفحة إثر أخرى في انتظار الوصول بها إلى خاتمة قد تسهم هذه السيارة بإيصالي إليها ؛ إذ إنها ، بركّابها الذين لكل واحد منهم بدوره قصته ، تبدو وكأنها لا تقرّبني من مدينتي وحسب ، بل إنها في واقع الأمر تربط حاضري بماضيّ برحلة حافلة بالتوقعات قد تنتهي في نهايتها على شكل رواية!

لقد زلزلتْ تلك القصة كياني يوم سمعتها أول مرة ، سالبة طمأنينتي الساذجة إلى أن الحياة تمضي بي دون مخاوف أو شكوك ، مسوّغة ، في الوقت نفسه ، منطق أبي عن كون الحياة صراعًا بين غالب ومغلوب ؛ ما من أمر يحدد موقعك غير إرادتك وتصميمك على الكفاح . ولعل ما تحيط بي اللحظة من أهوال - حصار بربري امتد أعوامًا ، طائرات أمريكية تخترق يوميًا سماء الوطن ، أصابع مهيأة لتضغط في أية لحظة على أزرار موزعة في شتى بقاع الأرض لتنهال صواريخ (التوماهوك) أو (الكروز) على رؤوس

الناس الأبرياء - لعل تلك الأمور خير برهان على صحة ذلك المنطق!

يومذاك لم تكد أمي تلمحني خارجًا من غرفة أبي حتى أوقفتني متفحصة وجهي مليًا، لتسألني باهتمام إن كان قد حدث أمر ما بيننا؟ فلم أملك إلا أن أرمقها بنظرة استغراب؛ فما الذي تتوقع حصوله غير الأمر المعتاد: التربّع ساعات بين يدي أبي وهو يقوم بعمله المألوف في تزييت البنادق، ساردًا على مسمعي ما نعنّ له من ذكريات لا شأن لي بها؟!

لكنها أعادت طرح سؤالها مساء اليوم نفسه عقب العشاء، مسوّغة إلحاحها ذاك بشرود ذهني؛ حتى انها اضطرت أكثر من مرة إلى أن تنبهني على طبق الطعام المهمل بين يدي، وأنا الذي كنت في السابق ألتهم ما يقدم لي بسرعة البرق!

أجبتها بأنه لم يحدث شيء، معترفًا لنفسي بما يخالف جوابي المرتجل ذاك؛ ذلك لأنني ما كدت ألجأ إلى فراشي مستعيدًا تفاصيل ما جرى حتى اكتشفت أن قصة تلك الأرض التي جازف جدي بحياته وحياة أفراد أسرته دون أن يفرط بها غارسًا إياها بالفسائل ليلاً قد أورثتني قلقًا لا سبيل لي إلى تجاوزه إلا برؤية جدي، ليس من أجل أن يتحفني بفرخ طائر ما يكاد ينمو حتى يطير في غفلة مني مغادرًا إياي دون وداع - فقد كبرت على مثل تلك الأمور الصبيانية - بل لكي يصطحبني إلى بستانه العجيب ذاك؛ فبرغم أنني ولدت بالقرب منه إلا أن أبي كان قد حظر على أمي التوجه إلى هناك عقابًا لها على تمردها عليه في ذلك اليوم المشهود. وانسحب ذلك الحظر عليّ أنا - ثمرة ذلك التمرد - بطبيعة الحال!

لكنني سرعان ما أدركت أن مقدم جدي إلى المدينة لم يكن مرتهنًا برغبتي أنا؛ فزياراته الدورية المتباعدة كانت تقترن عادة بنتاج أرضه وبستانه: ففضلاً عن هداياه التقليدية الموزعة بين (قِرَب اللبن) وأقراص

الجبن وحصيلة آخر عمليات صيده وقنصه ، لم يكن يأتينا إلا ويكون محمّلاً بباكورة فاكهة لا تزال نادرة عزيزة المنال ، حتى إننا اعتدنا تسمية زياراته تلك بأسماء هداياه : فهناك زيارة المشمش ، وزيارة العنب ، والتين ، والتفاح ، والرمان ، والرطب . . . وما أشبه!

كنت أجفل أحيانًا من نومي وقت الفجر ، وفي ظني أنني سمعت صوته وهو يصيح بجملته التي اعتاد الصياح بها كلما جاءنا زائرًا ، فأهرع بقدمي العاريتين نحو الباب ، مختلسًا النظر من خلال ثقب المفتاح إلى الزقاق الخالي من البشر في مثل هذا الوقت المبكر باستثناء بائع متجول قد أنحه وهو يكيل الحليب لإحدى الجارات ، فأعود مخذولاً لأندس في فراشي من جديد . . . وما تكاد تأخذني غفوة حتى أجفل ثانية من نومي على قبلات أمي ومناغاتها لي ـ كأنني لا أزال طفلها الأبدي الذي لم يكبر! ـ وهي توقظني للإسراع في الذهاب إلى المدرسة ، حيث الساعات تمضي بطيئة بين رنين الجرس البغيض وهو يعلن بدء الدرس الأول ، ورنينه العذب هذه المرة وهو يعلن انتهاء الدرس الأخير ، وأنا بين انطلاق الرنينين أصغي نصف منتبه أو نصف ذاهل إلى المدرّسين وهم يلقنوننا دروسهم بأصوات يختلط بها أحيانًا صوت أبي وهو يسرد عليّ قصة ذلك البستان ، معرضًا بذلك نفسي لنقمة المدرسين ؛ فما أكثر ما قرعني أحدهم لشرود ذهني في أثناء الدرس ، أو ضبطني آخر وأنا مستغرق في تزيين حواشي الكتاب أو الدفتر برسومات لا تمت إلى موضوع الدرس بصلة ، فيصرخ منبهًا إياي على ضرورة الانتباه لدرسه مرجئًا إظهار موهبتي في الفن إلى درس الرسم ، وذلك ما كنت أتبعه في واقع الحال دون أن تكون بي حاجة إلى تلك النصيحة ؛ فقد بدا درس الرسم فرصة مثالية للتنفيس عما يشغلني برسومات أثارت انتباه المدرس ؛ فنوه بجودتها أمام زملائي . وحين

سألني عما دفعني إلى رسمها على تلك الشاكلة؟ أوجزت له قصة ذلك البستان ، فنبهني على أن درس الرسم قد لا يكون ملائمًا لتجسيد ذلك الأمر مثل درس الإنشاء . قال إن الكلمات أقدر من الخطوط والألوان على الإفصاح عن مغزى تلك الأفكار .

والحق أنني كنت خير من يعرف ذلك الأمر ؛ ففي ذلك الوقت كنت قد بدأتُ أولى محاولاتي القصصية . وكنت أحرص على عرضها على مدرس اللغة العربية الذي كان يتوسّم بي موهبة إبداعية أخذ على عاتقه مهمة رعايتها بأكثر الطرق شذوذًا وغرابة : فقد كان من دأبه تسفيه كل ما كنت أقدمه له من نصوص ، متخذًا منها مادة للتفكه والتندّر في درس الإنشاء : فأمام حشد من زملاء كانوا يتسقّطون هفوات طالب مثلي (شذّ) عنهم بالانزواء في مكتبة المدرسة ليقرأ الروايات ، متأبطًا بعضها حين عودته إلى البيت ، دون أن يشاركهم في تخاطف الكرة ليشبعها ركلاً ونطحًا ، أمام (حشد) مرعب على تلك الشاكلة كان المدرس يستلّ على مهل نظارته الطبية من محفظتها الجلدية ليثبّتها على أرنبة أنفه الأقني . وبعدما يتأملني من فوق الإطار بنظرات شاردة كان يعود بعينيه إلى ورقتي التي بين يديه ليبدأ بجرد (عدد) الأخطاء الإملائية والنحوية التي وقعت فيها ، متنقلاً بعدها إلى ذكر (عدد) الأفكار التي تسربت إلى نصي من كتّاب عالميين كان على معرفة دقيقة بهم ؛ إذ كان هو الذي يختار لي الروايات من مكتبة المدرسة ، معرجًا في أثناء ذلك على ذكر (عدد) المواضع التي أثقلت بها نصي بأمور لا علاقة لها بالفكرة المركزيّة!

بعد ذكره لكل هذه (الأعداد) التي كانت تجعل زملائي يضجون في الضحك ، دافعة بي إلى حافة البكاء ، كان يختتم انتقاداته بعبارة ترفع قليلاً من معنوياتي ؛ فقد كان يؤكد ـ وهو يطوي نظارته الطبية على مهل ،

داسًا إياها في محفظتها التي يعيدها إلى جيب سترته الصغير ـ أنه لابد لمن يسلك طريق الإبداع من أن يتعلم من أخطائه قبل أن يضع أولى خطاه على السبيل الصحيح!

وهكذا فضّلتُ الامتناع عن كتابة تلك القصة كي لا أضطر إلى عرضها على ذلك المدرس ليجعل منها مادة تفكهه وتندره ؛ فقد أيقنت أنها تنطوي ، على النقيض من نصوصي السابقة ، على سحر خاص جعلني أضنّ بها على أقرب الناس لي .

لكنني فوجئتُ ، ذات يوم ، بذلك المدرس يقترح علينا ، في درس الإنشاء ، كتابة قصة أثّرتْ في حياتنا ، شريطة أن تكون مستمدة من واقعنا اليومي ، فقضيت الدقائق الأولى وأنا ألوك عقب قلمي بحيرة ، متطلعًا حولي بنظرات شاردة ، فاقترب المدرس مني ليسرني باسمًا بأنها فرصتي لكي أكتب قصة ذلك البستان الذي نما ليلاً ؛ فأدركتُ أن مدرس الرسم كان قد أخبره بالأمر!

تلك كانت أول مرة أستعين فيها بالحروف والكلمات لتجسيد تلك القصة التي رواها لي أبي دون أن أطمح إلى مضاهاته في طريقته الساحرة في سردها ؛ وذلك كان أحد الأسباب التي جعلتني أتهيب من الإسراع في كتابة تلك القصة على النقيض من المحاولات التي سبقتها .

بيد أن ما أذهلني حقًا هو أنني فوجئت ، بعد مضي أسبوع ، بأنني كنت قد غدوت حديث المدرسة دون أن أدري ؛ فلحظة وصولي إلى هناك استقبلتُ بحفاوة من قبل زملائي . وكان السؤال الوحيد الذي لا يملّون من تكراره هو :

– أرأيت نشرة الحائط؟

فكنتُ أسألهم بدوري بمنتهى البلادة :

– أية نشرة حائط؟

لقد غابتْ عن ذهني تمامًا تلك النشرات التي كان الطلاب يسهمون في تدبيج فقراتها تحت إشراف مدرس اللغة العربية في الغالب . فتزاحموا حولي ليقودوني نحو لوحة الإعلانات ، حيث علقت بالقرب منها نشرة كبيرة مزخرفة الحواشي والأركان ، وقد تصدرتها قصتي التي وضع لها المدرس عنوانًا غريبًا هو (طرس الكلام) أعقبه بالآية (٥٣) من سورة النور ، مذيّلاً إياها باسمي!

يا إلهي! . . . ما أجمل تلك اللحظات التي رأيت فيها اسمي وقد انفصل عني ليقترن بما كان يشغل ذهني ، يردده زملائي من حولي بمزيج من الاعتزاز والغيرة!!

لقد قضيت أسبوعًا كاملاً في نشوة متصلة : أبكّر في الذهاب إلى المدرسة صباح كل يوم لألقي بنظرة على تلك النشرة ، معيدًا قراءة قصتي عشرات المرات ، متشرّبًا حروفها وكلماتها حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب . ويوم حان موعد درس الإنشاء خصص مدرس اللغة العربية ذلك الدرس لقصتي : ودون أن يتطرق هذه المرة إلى ذكر (عدد) هفواتي بدأ درسه ، بعدما ثبت نظارته العتيدة على أرنبة أنفه ، بتفسير معنى العنوان قائلاً إن (الطرس) هو الكتاب الممحو الذي تعاد عليه الكتابة ، وذلك هو شأن كل كتابة إبداعية حقيقية ؛ ما من نص قيض له الخلود إلا نتيجة تراكم نصوص سابقة له . واستدرك وقد وقف فوق رأسي :

– إلا أن سر تميّز هذه القصة يتلخص بأنها حولّت الكلام المنطوق ـ لا الكلمات المدونة ـ إلى طرس : جدٌّ حافظ على أرضه بعمل يومي ـ كان من الممكن أن يقتل في أثنائه ـ استمر سنوات عدة ، توزع بين ملاحقة قضيته في المحاكم نهارًا ، وغرس الفسائل ليلاً . وحلّ بعد ذلك دور الابن الذي

دفعته تلك القضية إلى اعتماد البندقية وسيلة للحفاظ على وجوده ، مسوّغًا سلوكه ذاك بسرد تلك القصة ، تاركًا للحفيد إيجاد الوسيلة التي يؤدي بها دوره ؛ وقد تمثلت تلك الوسيلة بتحويل تلك القصة إلى نص إبداعي قد يتطلب التضحية بأجمل سنوات العمر قبل تطريسه على شكل كتاب!

كلام على غموضه آنذاك ذكّرني بما قاله لي أبي يوم علّق صورته إلى يمين صورة جدي طالبًا مني التنازل عن حفنة من أجمل سنوات العمر ، سعيًا لتحقيق الهدف المنشود قبل التمتع بلحظات الفوز!

وهكذا ، اكتشفت يومذاك الطريق الذي عليّ سلوكه في الحياة ، فازددت رغبة في استعارة المزيد من الروايات من مكتبة المدرسة ، ملتهمًا إياها بسرعة خارقة ، مفكرًا بجدي ومبلغ اعتزازه بي حين يكتشف أن حفيده قد رفع رأسه عاليًا في المدرسة .

وانصرفتُ على مدى أيام إلى إعادة كتابة القصة بأجمل صورة ممكنة ، مصدّرًا إياها بتلك الآية من سورة (النور) واضعًا لها العنوان نفسه الذي كان من ابتكار المدرس ، مذيلاً إياها باسمي ، حتى إذا ما صرّ باب بيتنا ذات صباح ، ودخل جدي محمّلاً بخرجه المعهود ، متخففًا من أحماله بالتدريج ، لم أتحصن بعتمة إحدى الزوايا ـ كما كان دأبي في طفولتي ـ بل تقدمت منه لأعانقه مستنشقًا رائحة البراري منه دون اللجوء إلى تلك الحركات الصبيانية المضحكة التي كنتُ قد ودّعتها منذ أعوام!

مددتُ له يدي بالقصة ، فتناول الأوراق مني ، وتنقل بنظرات حائرة بيني وبينها ، فأوضحتُ له أنها قصة بستانه الذي غرسه بالفسائل ليلاً ، فاتسعت عيناه دهشة قبل أن يسألني متشككًا :

– أكتبتها بنفسك أيها الولد العجوز؟

- بنفسي . . . وقد تصدّرتْ نشرة الحائط في المدرسة!

فعاد يتأمل الأوراق بنظراته الحائرة قبل أن يدسها في أحد جيوبه قائلاً :

- سأستعين بشخص ما ليقرأها لي عند عودتي . . . أما أنت فيكفيك أنك كتبتها!

أهملني بعدها ليبادل أبي وأمي الكلام المعهود ، في حين انزويت أنا بعيدًا عنه متجنبًا مبادلته النظر وفي ظني أنه لن يغفر لي حركتي البليدة تلك ؛ ذلك لأنه لم يخطر لي أن جدي الملم بأمور الدنيا يجهل القراءة والكتابة! . . . وكان السؤال الذي شغلني آنذاك يتعلق بالمصير الذي ستنتهي إليه أوراقي تلك؟ إذ من المؤكد أن جدي سيتخلّص منها حالما تسنح له الفرصة الملائمة ، حتى إذا ما استيقظت فجر اليوم التالي على سحبه لساقي مددتُ له خدي تلقائيًا ليطبع عليه قبلة الوداع غير المرغوب فيها لأعود لمواصلة النوم مستمتعًا بعطلة يوم الجمعة . ولكن الذي حدث أنه قرصني من خدي وصاح بي :

- هيا أيها الولد العجوز . . . لقد كبرت على القُبَل ، وآن لك أن تصحبني لزيارة القرية التي هجرها أبوك!

وعلى الفور غادرني النعاس نهائيًا ؛ يأخذني إلى القرية فأرى بستانه العجيب؟! هل يعقل ذلك؟ وتفرّستُ في وجه أبي برجاء ، فهزّ رأسه موافقًا ، فركلتُ غطاء نومي دون تردد ، وتقدّمت جدي مختطفًا في طريقي الخرج الخالي وعباءته المعلقة على مسمار ، وصوته المرح يتعقبني وهو يخاطب أبي :

- أتراه أيها الولد العاق؟ إنه أفضل منك على أي حال ؛ فهو يعرف كيف يتملقني!

ولجم جدي الفرس ، وشدَّ على ظهرها السرج الذي فرش فوقه الخرج والعباءة . ودسّ قدمه في الركاب ، وبخفة أدهشتني اعتلى صهوتها ليتطلع إلي من ذلك العلو ، ممسكًا العنان بيده اليسرى ، مفرقعًا لي بأصابع يده اليمنى ، هاتفًا بي دون أن يكف عن الابتسام :

– هيا . . . ارني شطارتك في ركوب الخيل!

وكدت أصرخ به : ما الذي دهاك يا جدي؟ فلم يسبق لي أن رأيت فرسًا إلا وثمة مسافة تفصلني عنها تجعلني بمنأى عن رفستها القاتلة ، فأنّى لي أن أركبها إذن؟ لكنني خشيتُ أن يتراجع عن أخذي معه ، ثم إنه لم يمهلني ؛ فقد انحنى باتجاهي حتى كاد رأسه يمس ركبته ، وأمسك بكفي طالبًا مني إيجاد الوسيلة الكفيلة برفعي نحوه ، فسارعت إلى إسناد قدمي اليسرى إلى قدمه الثابتة في الركاب . لكنه نهرني بقوله :

– ليس هكذا . . . ففي هذه الحالة ستجد نفسك وقد ركبت الفرس بشكل مقلوب!

فأسندتُ قدمي الأخرى إلى ركابه ، وكتمت أنفاسي وقد شرعت في الصعود شاعرًا بالدم وقد أوشك أن ينفجر من وجهي ، ولحظة عبرت بساقي الطليقة صهوة الفرس ، ووجدتني قابعًا في حضن جدي الذي ضمني إليه بذراعه ، أطلقت أنّة ارتياح . وجلد جدي رقبة الفرس بالعنان ؛ فقعقعت حوافرها على أرض الزقاق ببطء ووقار .

ومن الخلف جاءني صوت أمي تطلب مني أن أتنبه إلى نفسي ، فنهرها جدي مؤكدًا لها أنها ستفسدني بتدليلها لي ولن تجعلني أصبح رجلاً في يوم من الأيام!

ما كدنا نترك المدينة وراءنا متوغلين في الدروب الممتدة وسط بساتين النخيل - تلك التي اجتازتها أمي في ذلك اليوم المشهود وهي حامل بي -

حتى لكز جدي الفرس في جنبيها ، وبخفة عجيبة تحول سيرها النشط الذي كان يُسمع خلاله نقرات حوافرها الأربعة إلى خبب سريع مصحوب بنقرتين اثنتين متعاقبتين ، وعاد جدي يلكزها مرة أخرى ، فوثبت الفرس سابحة في الهواء ، وصدى نقر حوافرها يتردد بوضوح على امتداد الأشجار المتكاثفة من حولنا ، فشهقت مرعوبًا وقد آمنت بأنني سأسقط لا محالة ، ودوّتْ قهقهات جدي ، الذي كرهته لحظتئذ ، ملء سمعي!

- اثبت . . . . وإلا لن تصبح خيّالاً أبدًا!

ولكن كيف لي أن أثبت وأنا أرى الفرس وقد خفضت رأسها كأنها تطعن به الريح ، تاركة عفرتها المسترسلة تتطاير أمام عيني المغرورقتين بالدموع ، وذرى الأشجار تتقاذف في شتى الاتجاهات ، وزرقة السماء تنسحب من فوقنا بشكل مدوخ؟!

- لا تخف . . . فهي فرس عربية أصيلة من صنف كحيلة العجوز ، عدوها رهوان ، ولن تغدر بفارسها أبدًا!

وانفتحت البساتين أخيرًا أمامنا عن حقول قمح تمتدّ على مدى البصر ، تنهض في الجانب الآخر منها مجموعة بيوت طينية خمّنتُ أنها قرية جدي ، فجلت بعيني حولي بنظرة استغراب لم يمنحني جدي الوقت اللازم لكي أترجمها على شكل سؤال ، فقد علق موضحًا :

- عبثًا تدير بوجهك في الاتجاهات بحثًا عن ذلك البستان ؛ فقد مررنا به من جملة ما مررنا ببساتين لم يعد يحصرها العد .

وأضاف وهو يسحب العنان مهدئًا الفرس :

- كان بستانًا مفردًا ينهض وحده في الأرض الخلاء شوكة في أعين من نازعني على حقي في أرضي ، وها هو الآن وقد طوقته البساتين بعدما رحل الإنكليز وعملاؤهم ، واستتب الأمن والسلام .

وتركني جدي أتملّى روعة ما لاح لي هذه المرة : فبعيدًا عند حافة الأفق ، تحت غيمة رصاصية صبغت الشمس الموشكة على الشروق حاشيتها بوهج ذهبي ، امتد الجبل شذري اللون ، وقد اعتلت ذراه المستدقة مسحة وردية!

– أتذكر؟ ذلك هو الجبل الذي طلبتَ مني أن آخذك إليه يوم كنتَ طفلاً!

لكنني فكرت مع نفسي بأنه ليس كما صوّره لي جدي بأحاديثه تلك عن كونه مكمنًا موحشًا يتحصن فيه اللصوص والخارجون على القانون ؛ فقد بدا جميلاً بشكل يستدر الدموع . . . . وكأن جدي قرأ ما دار في خاطري ؛ فقد قال :

– لا يغرنك منظره ، فهو يبدو جميلاً عن بعد ، ولو رأيته عن قرب لما وقعت عيناك إلا على ممرات وعرة تمتد وسط كتل صخرية جهمة لا يقربها غير الماعز الوحشي وطيور الكديري والرخمة والمهرّبين واللصوص!

في القرية بهرني بيت جدي بفنائه الواسع المزروع بالأشجار ، وبحجراته العديدة ذات السقوف الخفيضة التي تعلو أبواب بعضها رؤوس وعول بقرون معقوفة صادها جدي بنفسه ، وحيواناته المنتشرة في شتى الاتجاهات ودجاجاته وطيوره التي لا يخلو شبر واحد منها ، لقد بهرني ذلك البيت العجيب بسحره الأخاذ ، فنسيتُ الجبل تمامًا!

(٣)

وها هي السيارة تذكّرني بذلك الجبل الآن ، وكأني بها في انطلاقها نحو مدينتي ـ مثل فرس جدي ـ تختزل عمري على شكل ذكريات يزاحم بعضها بعضًا ، ملقية على عاتقي مهمة ترتيبها بالطريقة التي تفصح بها مجتمعة عن المغزى المطلوب : فذلك الجبل مثلاً بقي يشحذ خيالي كلما حملني جدي معه على ظهر إحدى أفراسه ـ في زياراتي المتباعدة للقرية ـ وانفتحت البساتين عن كتلته الشذرية القائمة عند حافة الأفق ، حتى حل يوم خُيّل إليّ أن جدي قرر أن يحقق ذلك الحلم الذي راودني طويلاً بأن يأخذني إلى الجبل ؛ ففي فجر أحد الأيام ـ عقب نهار كامل أنهكني التجوال خلاله بين حجرات منزله العجيب ـ جفلتُ من نومي على سحبه لساقي ، وقادني من يدي ، وأنا أتعثر من فرط النعاس ليسكب على وجهي ماءً باردًا جعلني أقفز مذعورًا ، لكنه اكتفى بأن ضحك مستمتعًا ، وأومأ لي طالبًا مني أن أتعقبه ، وتبعته كالمأخوذ ، فإذا به يتقدمني إلى إسطبله القريب من بيته ، والذي لا يخلو عادة من ثلاثة خيول أو أربعة يقتنيها وهي لا تزال مهورًا صغيرة ، فيعتني بها ، ويربيها ليبيعها فيما بعد بسعر مناسب .

وامتلأ منخراي برائحة الدمن الخانقة ، وأدارت الخيول رؤوسها باتجاهنا

مطرطقة بآذانها المنتصبة . وضربت الفرس ، التي اعتاد جدي ركوبها ، الأرض بحافرها ، وصهلت برفق كأنها ترحب بنا ، وغفل جدي عني مدة طويلة ، تنقّل خلالها بين خيوله ، وهو يربت على أعرافها ونواصيها الراعشة ، ويمسّد لها بحنان غريب جباهها وخطومها ، متمتمًا لها بكلمات غامضة . وأزعجني وقوفي هناك دون عمل ، مكتفيًا بالتحديق حولي ببلاهة ، فسارعت بدس طاسة نحاسية في كيس مركون إلى جدار معلف يحتوي على شعير مجروش . وكان جدي قد تنبه لحركتي تلك فسألني وهو يرمقني بنظرة ساخرة :

– أتريد إطعامها أيها الولد العجوز؟

فحركت رأسي إيجابًا .

– لو كنت تنشد مساعدتي فهات السرج .

وجئته بالسرج الذي انهمك بشده إلى صهوة فرسه .

– لا تنس أن الخيول تُسقى أولاً قبل أن تُطعم!

قالها بصيغة من يلقي درسًا شفعه بحديث طويل عن تربية الخيول ، أنهاه بقوله :

– . . . الخيول كالبشر فيها الأصيلة التي لا تغدر بصاحبها ، وفيها الوضيعة التي ما تكاد تغفل عنها حتى ترفسك ما بين عينيك . . وأنا ما اقتنيت في حياتي سوى الأصناف الأصيلة منها . . . ولديّ أوراق تثبت ذلك ؛ فهذا الجواد الأدهم الذي يبدو كأنه قطعة من الليل (صقلاوي) ، وتلك الفرس الشهباء الموشومة في جبينها تنحدر بأصلها من (حمداني الفهد) ، وذلك الحصان الأبيض بذنبه ونواصيه وعفرته السوداء ـ وهو لون نادر بين الخيول ـ يعود بأصله إلى (هدبة نزحي) ، أما هذا الكميت ذو القوائم المحجّلة بالبياض فمن أصل (شويمة سباح) . . . .

وغادرنا الإسطبل واعتلينا صهوة الفرس ساحبين وراءنا الخيول الأربعة وجدي لا يكف عن مواصلة الكلام :

– لقد ربيتُ أغلب الأصناف الأصيلة النادرة سوى صنفين اثنين لم أقع عليهما بعد ، هما (عبيه الشراك) و(معنق حدرج) .

وبرغم أن تنازله بمكاشفتي بأسرار عمله الذي يعتز به ـ كأنني ند له ـ وسرد أصول خيوله الغامضة على سمعي قد أدهشني بعض الشيء ـ لا بل ملأني كبرياء ـ لكن الذي بهرني حقًا أنني اكتشفت أن وجهتنا ليست سوى الجبل نفسه! . . وكنا قد غادرنا القرية ، وأمامنا تمامًا انتصب الجبل بكتلته الشذرية التي خددتها شمس الصباح بلطخات بنفسجية ووردية .

وبرغم أننا كنا قد قطعنا باتجاهه مسافة لا بأس بها ، لكنه بقي بعيدًا ، كأننا لم نقترب منه قيد شعرة ، فعيل صبري تمامًا ، ولم أملك إلا أن أجازف بسؤاله :

– جدي . . . إلى أين نحن ذاهبان؟

لكنه ، كعادته حينما يجابه بسؤال غبي ، لم يتنازل بالرد عليّ . وتوغلنا خلال أرض رملية احتلتها أشجار أثل رمادية وأدغال صفصاف وغرب لتقف الفرس بنا بإزاء الوادي الكبير ، هذا الوادي الذي عمّقت السيول الموسمية مجراه الذي يبدأ من التخوم السفلية للجبل ، وينحدر في طريقه عبر الحقول والقرى والمدينة أيضًا ـ وتلألأت ، تحت السماء الزرقاء ، مخاضات مياه توزعت في القاع الفسيح المفروش بالرمال والحصى ، تحف بها شجيرات طرفاء وقصب اصطبغت أوراقها الغبراء بحمرة الطمي ، حيث سيول الشتاء تمخر بمياهها الغرينية الهائجة ملء الحافتين البعيدتين ، لتنحسر بعد أيام مخلّفة وراءها طبقات غرين تكون قد غطت النباتات التي مالت رؤوسها باتجاه التيار .

وتلكأتِ الفرس عند الحافة الشديدة الانحدار محدقة برهة إلى ذلك المنخفض الشاسع ، ومن ورائها تزاحمت الخيول مراوحة في مواضعها وهي تطرطق بآذانها المنتصبة ، وفوجئت بجدي يقسو على فرسه فيمعن في لكزها صارخًا بها حيث الأصداء ترجّعتْ بين الحافتين النائيتين ، وحنت الفرس رأسها بين قائمتيها الأماميتين لتنحدر بحذر للأسفل ، وما كادت تقطع مسافة قصيرة حتى اندفعت بكامل ثقلها ساحبة وراءها الخيول التي تطاير من تحت حوافرها شلال من الحصى والرمال ، وأنا موشك على الإغماء رعبًا وقد أيقنت أنني سأنزلق بين لحظة وأخرى من فوق عنق الفرس وتدق رقبتي ، فحاولت موازنة جسدي بالرجوع إلى الخلف حتى التصقت بجدي تمامًا . وتجاوزنا المحنة بسلام ، وطرطشت المياه مدومة حول قوائم الخيول التي تركها جدي تطفئ ظمأها وهو يصفر لها ، واغترفت الماء طويلاً ، ومن وقت لآخر كان أحدها يرفع رأسه بغتة ، متطلعًا بفضول إلى شتى جنبات الوادي ، محركًا أذنيه القصيرتين المنتصبتين بقلق ، متصيدًا الأصوات الغامضة التي لا تتناهى لأسماعنا نحن البشر .

– والآن هيا اقفز!

لحظتئذ أمنت بأن جدي قد جن تمامًا ؛ وإلا لم القفز؟ لكنه لم يمهلني ؛ فقد لجأ لمداعباته الخرقاء ، ودفعني بغلظة ، فتشبثت بقربوس الفرس وقد انزلق جسدي إلى الأسفل ، وقدمي التائهة في الفراغ تبحث دون جدوى عن شيء ما تستند إليه ، و . . . . هوب . . . طش . . . غمرتني المياه ، فشرقت بها ، بيد أن جدي لم يأبه لي وقد وقعت أسير نوبة سعال ، إنما فوجئت به يقذف نحوي بفرشاة كادت تشج رأسي ، وهبط عن فرسه صافعًا إياها على كفلها ، فاتخذت طريقها خارج الخاضة ، ودون أن يبادلني كلمة واحدة ، أمسك بأحد الخيول ، وانهمك بصب الماء على

جسده ، وتدليكه بفرشاة ، لا أعلم من أين استلها ، فاضطررت إلى مجاراته وأنا أحلف في سري بأغلظ الأيمان أنني ، لو عدت سالمًا إلى المدينة ، لامتنعتُ إلى الأبد عن مرافقته إلى القرية!

وغسلنا الخيول التي اتخذت طريقها واحدًا إثر الآخر خارج المياه ، والبخار يتصاعد من أجسادها الصقيلة التي كانت تهزها بعنف نافضة عنها البلل ، وتبعتها بدوري ، وأنا أتجنب النظر نحو جدي الذي أمسك بعنان أحد الخيول . وانتزع من شجيرة طرفاء غصنًا طريًا فرقع به في الهواء . . . فيف . . . وشرع الحصان بالدوران حوله على الأرض الرملية ، هذا الدوران الذي كان يزداد كلما زاد جدي من جلد الهواء ، حتى حلت لحظة استحال عليّ فيها التمييز بينهما خلال ذلك الدوران السريع المدوخ الذي أصابني بالدوار .

وأخيرًا ، بعدما انتهى من ترويض الخيول ، أبى جدي إلا أن يثبت جنونه بشكل نهائي ؛ فقد فاجأني بقوله :

– اسمع أيها الولد العجوز . . . ما رأيك لو سلمتك عنان أحد الخيول ، ووضعتك على صهوته العارية ، وصفعته على كفله ، لتكتشف بنفسك طريق الجبل الذي صدعت رأسي بسؤالك عنه؟!

لم أجبه ، والحق أنني لم أملك القدرة لحظتئذ على النطق ؛ لأنني أدركتُ بشكل لا يدع مجالاً للشك أي مجنون عريق هو جدي اللعين هذا! . . . الشيء الذي أتذكره إلى الآن هو أنني أقسمت في سري للمرة الثانية أنني ـ لو كتب الله لي النجاة ـ لن أصحبه في زيارة القرية حتى ولو أعطاني كنز قارون!

لكنني سرعان ما نسيتُ قسمي : إذ لم تكد تمضي مدة من الزمن حتى صحوت مشتاقًا على صوته :

– هيـه . . . . أنتم يا أهل الكهف ، كفاكـم نومًا . . . سـيبلى فراشكم لطول اضطجاعكم عليه!

وما إن لمحني حتى هتف بي :

– هذه المرة ستطول إقامتك معي في القرية أيامًا!

وشرع يتخفف من أحماله ليتربع في النهاية أمام الجمرة .

– ستصحبني في رحلة!

رحلة في مثل هذا الجو؟ ورميتُ بنظرة شاردة نحو فرسه الظاهرة من خلال الباب المفتوح ، وقد أرخت أذنيها باستسلام تحت رذاذ ناعم ظل يتواصل بعد أمطار عاصفة تساقطت طوال ثلاثة أيام متعاقبة . ولم أستطع الامتناع من أن أسرّ لنفسي ساخرًا : يا له من وقت مناسب للسفر! . . . وبرغم ذلك حركتُ رأسي موافقًا وقد نسيت قسمي القديم بأن لا أصحبه إلى القرية حتى ولو أعطاني كنز قارون!

حينما غادرنا المنزل صباح اليوم التالي أردفني جدي خلفه . وكان النهار صحوًا ، لم يبق من الأمطار العاصفة سوى بلل يعتلي الأرض وبرك مائية ركدت في بعض المواضع . ما كدنا نتوسط البساتين حتى أمسكتُ بجدي من خصره ، وسبقته بأن لكزتُ الفرس في جنبيها ، فانطلقت تعدو سابحة في الضباب المتكاثف ، وترجّعتْ أصداء قهقهاتنا من حولنا بوضوح ، وأنا أشعر بالهواء البارد يجلد وجهي حتى أفقدني الإحساس بأنفي .

لم نتوقف في القرية إلا وقتًا قصيرًا ، ملأ جدي خلاله كيسه بالتبغ ، ودس مسدسه في جيبه . ومرة أخرى خُيّل إليّ أن وجهتنا ليست سوى الجبل الذي اختفى تمامًا وسط سحب الضباب . ولم يكاشفني جدي بسر رحلتنا المباغتة تلك إلا بعدما تناهى لسمعي هدير سيل مكتوم فاض به

الوادي الكبير قبل يوم :

– اسمع أيها الولد العجوز . . . هناك صفقة لا تعوض تتكون من بضعة خيول ، ضمنها مهران ينحدران بأصلهما من ذينك الصنفين اللذين حدثتك عنهما من قبل . . .

وبعدما انفتحت أشجار الأثل البليلة عن منظر المياه المعتكرة الهائجة الممتدة تحت الضباب على مدى البصر ، استطرد بصوت أعلى :

– . . . . ولا يحول بيننا وبين تلك الصفقة سوى هذا السيل!

وقام بإيماءة استصغار نحو ذلك السيل الهائج كأنه جدول يمكن اجتيازه بقفزة واحدة! . . . ولم أتردد سوى لحظة خاطفة أحكمت بعدها من تطويقي لخصر جدي وقد آمنت بأنه أعداني بجسارته المتهورة .

– ركّز بصرك على ظهري . . .

صرخ وهو يلكز الفرس برفق . وبرغم يقيني أن ما نحن مقدمان عليه محض جنون مطبق ، لكن الأمر كان قد أفلت من يدي ؛ فقد أسلمت الفرس قيادها للتيار الكاسح الذي شرع يتداوم بصخب حول قوائمها غامرًا إياها باطراد . وتعثرت بغتة ، فكدنا ننخلع عن صهوتها . لكنها عادت توازن نفسها ، وبدت كأنها تمخر جانبيًا عكس التيار ، فتطلعت برعب نحو المياه الغرينية المزبدة التي بدأت تلطم ساقي العاريتين ، شاعرًا بضيق في صدري .

– جدي . . . لنرجع . . . لن أستطيع الاحتمال!

– ألم أقل لك ركّز بصرك على ظهري؟ إنه الدوار . . . اغمض عينيك جيدًا!

صاح بصوت جبار حاول أن يعلو به على هدير السيل الذي أطبق على فرسنا التائهة وسط خضمه المتلاطم . وأغمضت عيني . لكن

إحساسي بالدوار تضاعف ، فصرفت بأسناني وأنا في ذروة نقمتي على ضعفي . وركزت بصري على ظهر جدي مغترفًا الهواء بفمي ومنخري والمياه تعلو فخذي دون توقف . ومن جديد تعثرت الفرس . وأحسست بقوائمها وقد انخلعت من القاع المختفي في الأسفل ، وجرفها التيار الحاد ببساطة عجيبة ، فعدت أغمض عيني في انتظار النهاية التي لا مفر منها ، ولم أفتحهما إلا على صهيل الفرس التي عادت تمس بقوائمها القاع ، فلم أصدق نفسي وأنا أرى المياه تنحسر حتى غدت ضحلة تطرطش تحت حوافر الفرس التي نفخت من خطمها بفخر وهي تتخذ طريقها نحو اليابسة!

سارعت بالهبوط وأسناني تصطك في فمي ، ليس بسبب البرد بقدر ما كان بسبب تلك النشوة الغريبة التي اكتنفتني وأنا أتطلع على امتداد المياه المزبدة نحو الأشجار المنتصبة على الحافة الأخرى للوادي كأنني ودّعتُ عندها طفولتي إلى الأبد!

منذ ذلك اليوم تخطت علاقة أحدنا بالآخر علاقة الحفيد بالجد ؛ فقد أخذ يُشعرني بنوع من الندية حتى انه على غير العادة جاءنا ذات مساء ونحن على سفرة العشاء .

– هيا اسرع . . . لقد سبقونا بوقت طويل!

صاح بي وهو يشكم فرسه المضطربة تحته ، ولم تفتني ملاحظة أنه كان متنكبًا بندقيته ، فسارعت إلى لفّ رأسي بكوفية ، وشد حزام إلى خصري أثقلته بخنجري (الكديمي) الضخم ، وقفزت وراء جدي على صهوة الفرس التي انطلقت بنا من فورها دون أن أضيع وقتي بسؤاله عن مغزى كلامه ذاك ، ومن هم الذين سبقونا؟ فالسنوات الطويلة التي مرت على علاقتي به عوّدتني على كيفية التعامل معه . . .

– لا شك أنهم من المهرّبين واللصوص المتحصنين بالجبل ؛ فقد ازداد تسللهم وكثرت سرقاتهم في الأشهر الأخيرة!

كما توقعت أوضح لي الأمر من تلقاء نفسه ونحن نخترق البساتين المعتمة التي ضجت بعويل بنات أوى وصرير الجنادب .

– كنت على موعد مع شخص أبدى رغبته بشراء ذينك الجوادين اللذين كانا مهربين يوم ابتعتهما في تلك الرحلة التي صحبتني فيها . . . وحينما عدت رأيت الإسطبل خاليًا .

وبقي وقع حوافر الفرس يتردد من حولنا بإيقاع مدوٍ وهي تشق طريقها وسط الظلام بسرعة خارقة .

– . . سنتبعهم من أقصر الطرق لندركهم قبل احتمائهم بالجبل ؛ لأن الأمر يستحيل علينا إذا ما توغلوا في تلك الشعاب العصية على الاجتياز .

وزاد كلامه الأخير من حماسته فغرز قدميه بقوة في جنبي الفرس التي سرعان ما أوصلتنا للوادي الكبير ، فلازمنا الحافة اليسرى مسافة طويلة صامتين ، وبغتة شكم جدي الفرس حتى كاد يهشم عنقها وركن راحته خلف أذنه .

– أتسمع؟

ولم أسمع أي شيء سوى صفير الريح وهي تمرّ بأشجار الأثل المعتمة!

– ألم أقل لك إنهم من لصوص الجبل؟ هاهم أمامنا يخترقون بطن الوادي في طريقهم إلى مأواهم الحصين . . اسمع . . . . لازم أنت هذه الحافة ، في حين سأتجه أنا نحو الحافة الثانية ، وحينما تسمع صوت إطلاقة اكثرْ من الصخب والضجيج وادفع بكل ما يقع تحت يدك من حجارة وحصى نحو بطن الوادي!

ترجّلتُ عن صهوة الفرس التي انحدر بها جدي للأسفل ، وتحت

سماء مزدانة بآلاف النجوم اتخذت طريقي نحو الجبل . وبعد وقت قصير تنبهت لأصوات مكتومة تتصاعد إلى يساري من بطن الوادي ، وفي اللحظة نفسها دوّتْ إطلاقة ؛ فتلمّستُ الأرض المحصبة من حولي دافعًا سيل حصى انحدر للأسفل بزئير مدوٍ!

بدا الأمر وكأن جيشًا بكامله شرع في التحرك ، فترددت بضعة أصوات مرعوبة ، أعقبها خبب سريع ، بعدها هدأ كل شيء .

انحدرتُ نحو بطن الوادي ، واهتديت لجدي عن طريق جمرة غليونه .

- ها؟ . . . ابشر يا جدي!

وبطبيعة الحال لم يجبني عن سؤالي ذاك ؛ إنما أومأ بغليونه لاتجاه ما ، حيث شخَصتُ بصعوبة - وسط مخاضة رقطتها النجوم - الجوادين وهما يغترفان الماء ، وبالقرب منهما بغلة قميئة لا شك أن اللصوص خلّفوها وراءهم!

في طريق العودة سلّمني جدي بصمت عنان أحد الجوادين ، فاعتليت صهوته العارية دون تردد .

(٤)

شعرتُ فجأة بأن الأمور لم تعد تجري على وتيرتها المعهودة بين ركاب السيارة ؛ فقد افتقد سمعي ، منذ وقت طويل ، صوت رمزي الذي كان قد بات أشبه بلازمة لا غنى لأذني عنها ؛ فمنذ لحظة لقائي الطريف إيّاه عند جسر المشاة ، حين لم يتورع عن حمل (أبو خضر) في حضنه ليجتاز به الشارع ، اعتدتُ أن أراه مصدر صخب دائم : لا يكفّ عن نثر طرائفه على المحيطين به!

لكنْ سرعان ما داخلني الاطمئنان ؛ فحين التفت نحوه رأيته جاثمًا في مكانه المعهود ، يكاد مقعده الصغير ينوء بجرمه الضخم وقد انصرف إلى الممرض يحاوره بصوت خفيض ، وأمامه استرخى (أبو خضر) في جلسة مثالية للبؤس والشقاء ؛ يغالب ببطولة استسلامه للنوم ؛ كلما هبط برأسه فمسّتْ ذقنه صدره جفل منتفضًا ليطرف بعينيه الصغيرتين ببراءة مجيلاً إياهما حوله مفكرًا ، دون شك ، بذلك الغطاء اللعين الذي مدّ رجليه أبعد منه!

وعلى النقيض منه كان التاجر منصرفًا إلى تدخين سيجارة فاخرة ، نافضًا بنقرات رشيقة من سبابته الرماد عنها ، متأملاً من خلال نافذته الصحراء المترامية الأطراف وقد غمرتها الشمس بفيض من أشعتها التي

كانت قد ازدادت اصفرارًا .

وكان النوم قد غلب الرجل العجوز والمرأة الكهلة ؛ وبذلك سنحتْ فرصة مثالية للشاب والفتاة لتبادل نظرات عشق وهيام دون أن يفطن أي واحد منهما إلى وجود عينين تترصدان حركتهما وسكناتهما ؛ فعلى يساري كان السائق منصرفًا بعينيه إلى مراقبتهما في مرآة السيارة الداخلية أكثر من انصرافه إلى مراقبة الطريق!

وذكّرني منظر المحبين الذاهلين عن كل ما يحيط بهما بأغرب غزل مارسته في مراهقتي يوم ضايقتُ بحصاني أول فتاة أحببتها ؛ فمنذ تلك الليلة التي سلّمني جدي فيها عنان أول حصان أضحى اعتلاء صهوات الخيول شغلي الشاغل يكاد يستأثر بكل وقتي ، لا يترك لي غير هامش صغير لم أكن أدعه يمر بدوره دون استثماره بقراءة قصص وروايات لا تخرج عن نطاق الفروسية والطراد ، تتخللها مشاهد العشق والغرام ، مستمدًا منها معينًا لا يعرف النضوب : فما أكثر ما تلبستني حالة إحدى الشخصيات الروائية الأثيرة إلى قلبي ؛ فرمحتُ مثلها بحصاني خلال دروب البساتين ، منفلتًا من أعداء وهميين ، تخيلتهم يتربصون بي عند كل منعطف ، سعيًا منهم للإيقاع بي لولا حيطتي وحذري ، مطمئنًا إلى أن ثمة حبيبة ستكون في انتظاري في خاتمة المطاف لتكافئني على شجاعتي وجَلَدي بقبلات ملتهبة!

حينها كنتُ قد أوشكت على إنهاء المرحلة الإعدادية ، لم يبق بيني وبين دخول الجامعة سوى أشهر ، يعاملني أبي بشيء من التسامح فيغض الطرف عن انسياقي لنزوة قد تتحكم بي كأن أقرر فجأة التوجه إلى قرية جدي دون انتظار زياراته الموسمية المرهونة بنضج فاكهة ما ، مكتفيًا بشد وسطي بحزام أثقله بالخنجر المعهود .

وكان جدي يستقبلني بالطريقة عينها التي عودني عليها منذ صغري ، دون أن يكف عن تلقيبي بالولد العجوز ، لكنه لحظة يسلّمني عنان أحد خيوله لم يكن ينسى ترديد نصيحة كان يحرص على تكرارها كلما غادرته :

– لا تغترّ بما علمتك إياه من طراد على صهوات الخيول ؛ فهفوة واحدة تبدر منك في لحظة سهو قد تكلفك حياتك .

كنت أنخس الحصان في جنبيه ليرمح بي عائدًا إلى المدينة ، مدركًا سلفًا غموض ما أنا مقدم عليه هذه المرة ؛ فما أبغيه لم يكن محض بستان ثمة سبيل واضح يؤدي إليه ، أو محض جبل يلوح عند حافة الأفق ، بل هو أمر صعب المنال برغم شيوعه في كل مكان : فالنساء كنّ من حولي يملأن الشوارع والأزقة والبيوت ، يلحن لي أنّى توجهتُ عيونًا ساحرة تأسر القلوب ، وشفاهًا مكتنزة تغري بالتقبيل ، وسيقانًا بضّة تنقر بأحذيتها ذات الكعوب العالية خطواتها على الأرصفة بإيقاع موسيقي .

كنّ بعيدات برغم قربهن مني ، لا يولين اهتمامًا يذكر لذلك الفتى الذي يستعرض رجولته المبكّرة على صهوة حصان لا يستطيع التوغل به في أعماق المدينة ، حيث الشوارع المزدحمة بالسيارات والسابلة ، مكتفيًا بالتبختر في الأزقة الخلفية المؤدية إلى البساتين!

كنت أحوم بحصاني في الغالب قرب مدرسة ثانوية للبنات ، ما يكاد جرسها يرن معلنًا عن انتهاء الدرس الأخير حتى تتدفق حشود الطالبات إلى الخارج ، فيمتلئ الشارع بصداريهن الرمادية وقمصانهن البيض وحقائبهن المتأرجحة من أكفهن .

كان صخبهن يطغى على كل صوت وهن يسرن مسافة من الشارع قبل أن يتوزعن على الأزقة والبيوت ، مخلّفات وراءهن مراهقين متأنقين

منفوخي الصدور مثل الديكة ، يرمقوهن بنظرات جانبية مشفوعة بإيماءات وكلمات ذات دلالات مبهمة لا تلقى لديهن استجابة تذكر!

كنت أسير نحوهن بحصاني بحجة إيراده من النهر القريب ، مشعرًا إياه بأهمية ما نحن مقبلان عليه وذلك بشد جسدي على صهوته ؛ فيستجيب لي من فوره ، فيتبختر في خيلاء ، موقعًا نقر حوافره بحركات منتظمة كأنه يسير في استعراض عسكري ، وقد قوّس عنقه ، حادجًا ما حوله بنظرات جانبية مفعمة بالكبرياء ، نافخًا ملء منخريه من حين لآخر ، فتضطر الفتيات إلى التنحّي من أمامه ، مشيحات بوجوههن عني ، مزقزقات بكلمات تتخللها صرخات رعب خافتة ، وأجسادهن تختضّ بضحكات كظيمة ، خلا واحدة لم تكن تعيرني اهتمامًا يذكر!

كنت أميّزها من بينهن بجسدها الذي نضج قبل أوانه ، وبرأسها الذي يعلو رؤوسهن ، وقد شدّتْ شعرها إلى الوراء بشريط أبيض في خصلة واحدة . كانت تسير بمفردها في الغالب وقد ضمّتْ رزمة كتبها إلى صدرها ، تتطلع بعينيها إلى الأمام كأنها غير معنية بما يجري حولها!

كانت تستفزني بلامبالاتها ، تشعرني بأنها تضحك ملء أعماقها مني ، تسخر من حصاني الذي يرعب الأخريات ، تمر بي وعيناها تتطلعان إلى ما هو أبعد مني بكثير!

لقد غدتْ تلك الفتاة دون زميلاتها بغيتي ومطلبي ، أذوب لهفة للارتباط معها بعلاقة حب ، ومرافقتها خافق القلب شطرًا من الطريق!

ولكن . . . كيف تتحقق هذه الأمنية وهي تمرّ بي غير شاعرة بوجودي؟

ذات يوم تعمّدتُ ، لحظة مروري بها ، نخس الحصان ساحبًا عنانه في الوقت نفسه ، فشبَّ على عقبيه بغتة صاهلاً قبل أن أرخي له العنان

ليواصل سيره ، وحين استدرتُ من فوق السرج إلى الوراء رأيت تلك الفتاة واقفة تتابعني بعينيها وقد غرزتْ قبضتيها في خاصرتيها ، والكتب مبعثرة حولها على الأرض!

لحظتها ضحكتُ بجنون ، مفكرًا بأنه آن لتلك الفتاة ألا تتجاهلني لحظة مرورها بي شامخة الرأس ، لكن الذي حدث هو أنها عاودت سيرتها معي بعد أيام ، مكتفية بالتنحي قليلاً من أمامي نحو الرصيف ، فتعقبتها بالحصان وقد فقدت السيطرة على نفسي لأحصرها بإزاء الحائط ، غير مدرك ما أنا مقدم عليه!

بقيتُ أنخس الحصان بقدميّ دون أن أكفّ عن سحب العنان بعنف سامعًا اللجام الحديدي يقعقع في شدقه الذي أوشك على أن يتمزق . وكان الحصان قد جن جنونه ؛ فأخذ يتقافز في موضعه مراوحًا في شتى الاتجاهات ، شابًا من حين لآخر على عقبيه ، وأنا أقهقه فوق صهوته قهقهة أقرب ما تكون إلى الصراخ ، متفرسًا باستخفاف بذلك الوجه المرفوع نحوي وقد غاض منه الدم ، وثمة ارتجافة يسيرة ألـمّتْ بالشفة السفلى المكتنزة ، في حين ظلت العينان السوداوان الواسعتان تتأملانني بنظرة صلف بارد لا أثر فيها للخوف!

– أعليّ أن أصفق لك لبطولتك في اعتراض طريق بنات الناس؟

سألتني متهكمة ، مستثمرة جنوح الحصان لهدوء مفاجئ ، وقبل أن يتسنى لي الوقت اللازم للرد عليها أردفتْ منذرة وهي تضمّ كتبها إلى صدرها :

– سأعدّ ما حصل قد حصل بفعل مصادفة . . . ولكنْ . . . إنْ كررتَها مرة أخرى سأترك لأشقائي مهمة التفاهم معك!!

– ها أنذا أكررها مرة أخرى شوقًا مني للقاء أشقائك العتاة!!

صحتُ بها باستهتار وقد هيّجتُ حصاني من جديد ، فاكتفت الفتاة هذه المرة بأن رمقتني بنظرة ضارية أصابتني في الصميم قبل أن تنجح في الإفلات لتواصل مشيها مرفوعة الرأس كأن شيئًا لم يحدث!

تعقبتها عن بُعْد وقد تصلبّتُ على صهوة حصاني كأنني مقبل على معركة . وكان بي شوق شديد لمعرفة هؤلاء الأشقاء الذين هددتني بهم . لكنني سرعان ما أدركتُ مبلغ تهوري حين شخّصتُ البيت الذي دخلته الفتاة ، فلويتُ عنان حصاني موليًا الأدبار وأنا أستعيذ بالله ؛ فقد اشتهرت تلك الأسرة بشراسة غدتْ في المدينة مضرب الأمثال ؛ فما مرّ عليها يوم لم يتورط فيه أفرادها بمعارك مجلجلة ، تصطفق خلالها الأبواب ، وتتردد صرخات استغاثة يمرق على أثرها بعضهم خارج البيت ، في حين يشاهد آخرون يثبون إلى سطوح بيوت الجيران سعيًا منهم للنجاة بأنفسهم!

كانت أسرة تتكون من ذكور شرسين ـ عرفتُ فيما بعد أن تلك الفتاة كانت الأنثى الوحيدة بينهم ـ تتمثّل هواياتهم الأثيرة إلى أنفسهم في العراك ؛ إذ يكفي أن يُستفزّ أحدهم ليسارع إلى اختطاف أقرب سكين أو خنجر ، حيث الأنصال الفولاذية المرهفة سرعان ما تخطف بوميضها الأبصار وهي تمرق بحركات سريعة محكمة التسديد نحو أهدافها ؛ ذلك لأنهم كانوا في معاركهم تلك بمنتهى الجدية ، لا يشهرون أسلحتهم من باب التهديد والوعيد ؛ فالمدية التي ترفع لابد لها من أن تحدث جرحًا ما! . . كما أنه كان يكفي أحدهم أن يهدد الآخر بأنه سيكسر ذراعه حتى كان الجيران يدركون أن ذلك سيتحقق لا محالة ؛ إذ سرعان ما كانوا يرون حلاق الطرف ـ الذي يعمل مجبّرًا للعظام أيضًا ـ وهو يدخل ذلك البيت محملاً بعدة الشغل ، وبعد مرور أيام كان الجميع يرون أحد أفراد الأسرة يخرج من ذلك البيت وذراعه المجُبرة مشدودة إلى عنقه!

والطريف أن تلك الأسـرة كـانت تخطر في ذهني في درس البـلاغـة ؛ فحين كان مدرس اللغة العربية يجهد نفسـه محاولاً تلقيننا الفرق بين (الحـقـيـقـة) و(المجـاز) كنت أجـد في أفـراد تلك الأسـرة خـيـر نموذج لـ (الحقيقة) ؛ ذلك لأنهم لم يكن لهم شأن بـ (المجاز)!

يومها حمدتُ الله لأن الفتاة لم تنفّذ تهديدها ؛ إذ كان عليَّ حينها الاستعانة بالحلاق ليتخذ سبيله نحو بيتنا محمّلاً بعدة الشغل ذائعة الصيت! . . . ثم إنني لم أعاود اعتراض طريقها مجددًا ؛ فتلك كان آخر عهدي بالخيول ؛ ففي خريف تلك السنة ، وبعد انتهاء العطلة الصيفية وقبولي في الجامعة ، مات جدي فالتحقتُ بكلية الآداب وأنا أسير حزن لا عهد لي به ؛ فتلك كانت أول مرة يصيب الموت فيها أقرب إنسان لي في أسرتي . لم يكن الموت غريبًا عني بطبيعة الحال ؛ فما أكثر ما فوجئت بحشد من الناس يتدفقون على امتداد الأزقة ، مرددين بأصوات تجعل جسدي يقشعر هولاً (لا إله إلا الله) حاملين تابوتًا أسود إلى الجامع القريب ، ليؤدوا عليه الصلاة قبل أن يُحمل إلى مثواه الأخير . . . . ما أكثر ما حدث ذلك . . . بيد أنني لم أستطع أن أصدّق أنني لن ألتقي جدي منذ ذلك اليوم وإلى الأبد! . . بدا الموت أمرًا غير قابل للتصديق . . . كان يخيّل إليَّ أحيانًا أنني سألتقي جدي يومًا ما ، وسأسمعه وهو يلقبني بالولد العجوز ، مكررًا عليَّ نصيحته بألا أغتر حين يسلمني عنان أحد خيوله . . . بل إنني كنت أجفل من نومي أحيانًا وقت الفجر على صهيل حصان وصوت دق على الباب ، فأهرع في ذلك الاتجاه ، لأكتشف دامع العينين أنني كنت أسير أضغاث أحلام . . . ثم إن الحقيقة سرعان ما تجلّتْ بكل صرامتها وقسوتها حين أغلق أبي باب بيت جدي في القرية بعدما باع ما تبقى من خيوله وحيواناته وطيوره ، متخلصًا من أغلب

مقتنياته المتواضعة . وكان الأثر الوحيد الذي حمله إلى البيت يتمثّل بصندوق خشبي على شيء من الطول والضيق بحمالتين مجدولتين من الحبال ـ لعله كان صندوق عتاد من مخلفات الحرب العالمية الثانية ـ اتخذ موضعه في إحدى زوايا غرفة أبي ، مختصرًا تاريخ جدي بما في جوفه من أوراق رسمية كان أبرز ما فيها وثائق الطابو والمستندات والحجج التي تمتّ إلى الأرض بصلة ، تلك الأوراق التي نمتْ وتشعّبتْ خلال سنوات متابعته لقضية أرضه في المحاكم ودور القضاء .

وبقيتْ ذكرى جدي جرحًا غير قابل للاندمال قد يشرع في النزيف على غير توقع ؛ فما أكثر ما خطر لي موت جدي وأنا في أبعد لحظاتي عن الحزن والشجن ، فخمدت الضحكة في حلقي ، وذابت الابتسامة على فمي ، فاستهدفني الزملاء والزميلات في الكلية بنظرات متسائلة يكون جوابي عنها عادة ضحكة مصطنعة أخشى معها أن تنهمر الدموع من عيني!

وكان بيته أول موضع أقوم بزيارته كلما عدت من بغداد في العطل والأعياد : أذرع دروب البساتين نحو قريته سيرًا على الأقدام ، حيث سبق لأشجار النخيل أن رددت أصداء قهقهاتنا المشتركة ونحن ننطلق في الاتجاه نفسه على صهوة فرسه . . . وما أكاد أصل إلى القرية ـ دون أن أشغل نفسي بالبحث عن البستان والجبل اللذين كانا محور اهتمامي في طفولتي ـ حتى أتجه نحو بيت جدي مغالبًا شعوري بالندم ؛ فذلك الباب العريض المرتفع الذي كان في وسع الخيّال ولوجه فوق صهوة حصانه دون أن يحني رأسه ، كان يقتضي بذل جهود جبارة قبل أن ينفتح ، وكذلك الأمر مع أبواب الحجرات التي مالت عن محورها فأمست عصية على الإطباق . وكانت حشود العصافير والسنونو والخفافيش تفجر الصمت

الخيم برفيف أجنحتها وهي تمرق مذعورة بشكل جماعي من حولي ، حيث كانت عوارض السقوف قد غدت أماكن مثالية لتبني بينها أعشاشها .

وكانت الأعشاب الوحشية والنباتات الشيطانية قد زحفت غازية الممرات والأروقة . . . بل نما بعضها في الحيطان المجبولة من الطين . وكان سقف الإسطبل قد مال وانهار جانب منه . . . وهنا وهناك تلوح المواضع التي تسربت منها مياه الأمطار . . . كان الخراب قد بدأ يفعل فعله شأنه مع أي بيت يخلو من أنفاس ساكنيه .

كانت صورًا ومشاهد تستدعي الكثير من الذكريات التي تنغّص عليّ متعتي بتلك الأيام التي أقضيها وسط أسرتي ، حيث شقيقاتي اللائي يكبرنني في العمر كن يتحلّقن حولي ، محتفيات بشقيقهن الوحيد ، وبعضهن يحتضن طفلهن الأول أو الثاني . . . . مطريات وسامتي وشبابي ، عارضات عليّ مشاريع زواج مرتجلة من صديقات أبدين لهن إعجابهن بي ، فكانت أمي تفتعل الغضب ، فتطردهن آمرة إياهن بالعودة إلى بيوت أزواجهن ؛ إذ يكفيهن أنهن جنين عليها ، فحولّنها إلى . . . . جدة!

وحين تنفرد أمي بي كانت تحاول رعايتي بوسائلها القديمة : عمل أكلة كانت أثيرة لديّ في طفولتي يحتم عليّ ازدرادها إرضاء لها . . . إهدائها لي قنينة عطر أو ربطة عنق أو قميصًا . . . أو دسّ رزمة نقود في جيبي وفّرتها خفية عن أبي بما باعت من بيض دجاجاتها فاض عن الحاجة ، وبما ادخرت من مهنة الخياطة التي تزاولها من حين لآخر .

كانت تبذل جهدها للتسرية عني ، متجنبة تكدير (مزاجي) بما تغص بها حياة الأسرة من مشكلات كانت تتسرب أحيانًا أطراف منها إلى سمعي من خلال (دردشتي) معها ، فأدرك عرضًا أن إحدى شقيقاتي

تعاني من حياتها مع زوجها ، وأن أخرى تشكو من العوز والفاقه ، وأن ثالثة منهن مهددة بالطلاق بسبب كونها عاقرًا . . . كما أن أمي كانت تعاني بدورها من حياتها مع أبي ؛ فقد زادت الشيخوخة من سوء طبعه ؛ فبعدما كان من دأبه التوجّه كل يوم إلى مقهى الطرف ، والتسرية عن نفسه بتدخين (نارجيلة) وتبادل الأحاديث مع أصدقاء طفولته ، مستنهضًا معهم ذكرياتهم عن أيام وأحداث غابرة ، يعود بعدها إلى البيت رائق المزاج : يهرع أحيانًا إلى أدوات نجارته ، فتتردد في جوف غرفته ضربات فأس وصرير منشار ودقات مطرقة تظل تتواصل حتى ساعة متأخرة من الليل ، لتتمخض في آخر الأمر على شكل قفص للبلابل عمله استجابة لطلب إحدى بناته ، أو (حجلة) تكون من نصيب حفيد شرع في تعلم المشي آنذاك . . . بعدما كان ذلك من دأبه أمسى سريع الغضب ، يعتصم بغرفته من حين لآخر مفرطًا في تدخين السجائر ، لا يبادل أمي في دخولها الغرفة محملة بأواني الطعام وخروجها بها فارغة ، كلمة واحدة ، منغّصًا عليها حياتها على مدى أيام تظل خلالها تجهد فكرها منقبة باحثة عن سبب استيائه منها لتكتشف في آخر الأمر ، وبعدما يعاود سيرته في التوجه إلى مقهى الطرف ، أن سر مخاصمته إياها يعود لأنه تذكّر مشادة وقعت بينهما منذ عشرين سنة أجابته خلالها بكلمات لا تليق بامرأة حريصة على بيتها وأسرتها!

كنت أهوّن على أمي الأمر ، محاولاً إيجاد الأعذار الكفيلة بتسويغ تصرفات أبي ـ مثل الشيخوخة والشعور بالوحدة واعتلال الصحة وما أشبه ـ مقتنعًا سلفًا بعقم محاولتي تلك ؛ ذلك لأنني كنت خير من يعلم أن حياة مجبولة على التسلط وعدم الاعتبار لآراء الآخرين قد عوّدتْ أبي على ألا يسمع غير صوته هو .

كنت في واقع الأمر أعمل جاهدًا ، في زياراتي المتباعدة إلى المدينة ، على تجنب الاحتكاك به ما وسعتني الحيلة : لا أكاد أبادله كلمات مقتضبة أول ما التقيه حتى أؤقت لحظات دخولي البيت وخروجي منه وتناول وجبات الطعام بالطريقة التي تضمن لي عدم لقائه ، مكتشفًا في ما بعد أن محاولاتي تلك لم تجدني نفعًا ، بل لعلها تكون قد وفّرتْ لأبي فرصة ذهبية للتنفيس عن غضبه الدفين بالطريقة المعهودة : التحجج بأي عذر للتورط مع أمي في معارك شبه يومية ، يكفي أن يذكر خلالها اسمي لتزداد استعارًا!!

كان أبي قد اتخذ مني سلاحًا ماضيًا يحارب به أمي : يعيّرها بتعلقها بي ، مهملة إياه ـ وهو الخليق بالرعاية والاهتمام في مثل هذه المرحلة المتأخرة من عمره ـ منوهًا بشكل غير مباشر بوجود مؤامرة تحاك في الخفاء ضده : وإلا ما سبب نسيان وضع كأس الماء المعهودة في متناول يده حين يجفل في بعض الليالي من نومه وقد وقع أسير نوبة سعال لا فكاك له منها إلا باكتراع جرعة ماء؟

وصادف أن اكتشف في إحدى المرات سر قمصاني الجديدة وأربطة عنقي الأنيقة ورائحة عطري النفاذة التي تكاد تزكم أنفه ، فأرغى وأزبد ، وأسمع أمي كلامًا بلغ من قسوته حدًا أنها لم تملك لدموعها منعًا حين أخبرتني به : فقد عيّرها بأنها تتواطأ معي على سرقته! . . . قال إنه لا يجديها نفعًا زعمها أنها اشترت تلك الأشياء بمدخراتها ؛ فما من اسم يليق بـ (فعلة) تقترف بمعزل عن معرفة رجل البيت غير السرقة!!

وكانت تلك أول مرة تفقد فيها أمي السيطرة على نفسها وهي التي ألفت الاستكانة والذلة بين يديه ، فقد صاحت به ، لاطمة صدرها بجمع كفيها :

– ما الذي دهاك يا رجل؟ أبلغ بك الخرف حدًا يدفع بك إلى أن تفلت الكلام كيفما اتفق؟ وإلا خبرني من هو الذي تواطأتُ معه ضدك؟ أنسيتَ أنه ابنك من لحمك ودمك؟

فكان جوابه لها أكثر إيلامًا وقسوة :

– خليق بك أنت أن تتذكري ألف مرة أن ذلك اللحم والدم الذي ناءت بحمله رحمك هو ابني . . . لا غريمي!!

كلام على قسوته مسَّ وترًا دفينًا في أعماقي : فقد بدا أشبه ما يكون بصدى لحلم يقظة كان يراودني في طفولتي كلما رأيت أبي يسوم أمي العذاب دون وجه حق ، فقد كنت أحلم باليوم الذي أكبر فيه فأستطيع إيقاف أبي عند حده لأحتفظ بأمي لنفسي إلى الأبد!!

(٥)

كانت السيارة تمضي بنا طاوية الطريق الإسفلتي وقد استقطب المرض ، هذه المرة ، اهتمام الركاب ؛ فقد كان يحدثهم ليس عن شحة الأدوية في المستشفى وحسب ، بل عن أمر شاذ شاع في العراق في الأعوام الأخيرة يتمثل بوجود أطفال دفع اليأس بهم إلى الانتحار!!

- محال! . . . ما تتحدث عنه أمر غير قابل للتصديق!

ذلك ما كان رمزي يكرره وهو يجيل حوله بنظرات استنكار ، في حين كان الآخرون يرددون بأسى :

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

والحق أنه كان قد سبق لي أن اطلعتُ ـ بحكم عملي الصحفي ـ على بحوث ميدانية مخصصة لرصد تأثير الحرب والحصار على الأطفال العراقيين ، وكيف أن العشرات منهم كاشفوا الأطباء النفسيين أنهم يتظاهرون بالفرح أمام آبائهم و أمهاتهم في حين هم حزانى في أعماقهم ، واعترف آخرون بأنهم لا يجدون إلى النوم سبيلاً لشدة شعورهم بالقلق ، وإنْ صادف وناموا تكون أحلامهم حافلة بالجثث والدماء ، بل ثمة أطفال باتوا مقتنعين بأنهم لن يعيشوا حتى سن البلوغ ، وآخرون أيقنوا أن العالم لم يعد مكانًا آمنًا ؛ فقد تقع فيه كارثة على غير توقع . كما كاشف غيرهم

الأطباء بأن منظر زملائهم الذين يشاركونهم في مقاعد الدراسة يذكّرهم بزملاء سبقوهم في إشغال المقاعد نفسها قبل أن تحصدهم الحرب والحصار . ولعل ما يبعث على الأسى حقًا وجود أطفال ما يكادون يسمعون قصف الرعد حتى تشرع أجسادهم في الارتعاش ؛ فيتلفتون حولهم هلعين بحثًا عن ملجأ وفي ظنهم أن الحرب بدأتْ من جديد!

وكان المرض قد تشجّع بفعل تعاطف الجميع ؛ فاستطرد وهو يتنقّل بعدستيه السميكتين حوله مدققًا النظر في أقرب الوجوه إليه :

– لقد بلغتْ حالة الأطفال من سوئها أنها أبكت الأعداء ؛ فقد قدم إلى المستشفى فريق من إحدى وكالات الأنباء الأمريكية ، فأعددنا ردهة خاصة للتصوير حيث الأضواء الكاشفة وجهت نحو الأسرّة التي يرقد عليها أطفال ببطون منتفخة وأطراف ذاوية بسبب إصابتهم بـ (الكواشيوركور) ، أو لكون أمهاتهم سقتنهم مدة طويلة الماء الممزوج بالسكر للاستعاضة عن الحليب المفقود . لم يكد يبدأ تصوير هؤلاء الأطفال الذين كانوا يتنفسون بعسر على مدد متباعدة ، وقد غلب بياض عيونهم سوادها ، حتى مات واحد منهم ، فتخلى أحد المصورين عن كاميرته ، وغادر الردهة وهو يعول باكيًا ، وحينما تعقبته وسألته عما يبكيه؟ أجابني ، وسط دموعه ، أن ما يشجيه ليس موت ذلك الطفل وحسب ، بل عيون الأمهات الصابرات وهن يراقبن صامتات فريق المصورين ، وخيوط الدمع تجري من عيونهن الواسعة التي ذكّرته بعيون النساء السومريات والبابليات والآشوريات وهن يبكين قتلاهن على تلك الجداريات المسروقة من بلاد ما بين النهرين والمعروضة في متاحفهم!

وأضاف المرض متسائلاً وسط ارتفاع نشيج المرأتين :

– أتدرون ما حيّرني في تلك اللحظة؟ لم أعد أعلم أي الأمرين

أصدّق : دموع ذلك المصور؟ أم قذائف طائراتهم التي لا يبخل طياروهم بإلقائها علينا من حين إلى آخر؟!

ومضى الرجل يتحدث ، هذه المرة ، كيف أنه وجد في تعاطف ذلك المصور الأمريكي فرصة حاول استثمارها بالوسيلة الوحيدة التي يعرفها ؛ فأخذ يعدد له أصناف الأدوية التي يفتقدها المستشفى مثل اللقاحات ، ومواد التخدير ، والمضادات الحيوية ، والسوائل التي تحقن عن طريق الأوردة ، ودواء (الأيسوميل) الذي يستحيل على الفقراء الحصول عليه لأطفالهم الرضع لارتفاع ثمنه ، و(السالبوتامول) لمرضى الربو ، و(الأنسولين) للمصابين بالسكر ، والعقاقير الخاصة بمرضى الصرع ، و(البنسلين) و(الأبسلين) والمحقنات التي يعاد استعمالها أكثر من مرة بسبب ندرتها ، وخيوط العمليات ، والتجهيزات الجراحية ، والأجزاء الاحتياطية لأجهزة أشعة (إكس) ولاسيما رقائق تلك الأشعة .

– وهل سارع ذلك المصور بشحن تلك الأدوية إلى المستشفى على متن أول طائرة بعد وصوله إلى واشنطن؟!

تساءل رمزي متهكمًا ، فأجابه الممرض بمنتهى الجدية :

– أبدًا ؛ بل المفارقة أن غاراتهم ازدادت وحشيّة ، وبقي أطباء المستشفى يبحثون عن بدائل لتلك الأدوية المفقودة ؛ فبسبب شحة المضادات الحيوية مثلاً اضطروا للجوء في استعمالها إلى أسلوب الحقن بالعضل عوضًا عن الوريد برغم احتمال أن تتسبب هذه الطريقة ، بمرور الزمن ، بتلف الدماغ ، أو حدوث الالتهابات مجددًا ، كما قد تسبب عوق العقل والبدن فضلاً عن الموت المبكر!

وعاد رمزي يقاطعه مذكّرًا إياه بمعاناة أطباء المستشفى ـ حينما كان الحصار في بدايته ولم تكن المولّدات قد توافرت بعد ـ من احتمال انقطاع

التيار الكهربائي وهم وسط عملية طارئة ؛ ذلك لأن موت المريض سيكون أمرًا مؤكدًا!

فعقب الممرض وقد انتزع نظارته عن عينيه لينهمك في تنظيف عدستيها :

– كان انقطاع الكهرباء أمرًا مروعًا حقًا ؛ فبسببه توفي أكثر من طفل في حاضنته ، وأصيب آخرون بالشلل الارتجاجي القاهر بسبب قلة الأوكسجين . وهناك أطفال ماتت أدمغتهم لشحة (الأنسولين) فاضطر الأطباء إلى أن يركّبوا لهم أجهزة تنفس صناعية ، أما من يشكو من عجز في الكليتين فالموت مصيره بسبب عدم وجود جهاز الـ (ديلزه)!

وتداخلتْ أصوات الركاب وكل واحد منهم ينافس الآخر في ذكر معاناته بسبب شحّة الأدوية ، وبدا الشاب الوحيد الذي لم يتدخل في تلك الأحاديث ؛ فقد انصرف بكل حواسه إلى الفتاة المسترسلة في بكائها وهو في حيرة من كيفية التخفيف عنها ؛ فثمة أم واقفة له بالمرصاد لإيقافه عند حدّه ، فضلاً عن وجود صفوف مقاعد تفصله عنها ، فتلفتَ حوله حائرًا كمن يبحث عن معين!

ما من معين يا صديقي ، لا شأن للآخرين بأمور على هذه الشاكلة ؛ فأنتَ وحدك من يحدد مصيره!

خاطبتُه في سري وأنا أعود بوجهي إلى الأمام مستعيدًا ذكرى اليوم الذي بدأتْ فيه قصة حبي المحبط!

وعاد هاتف بيتنا يرن ملء سمعي ذلك الرنين الذي بقي يتواصل على امتداد هذه الأعوام كلها . كان يكفيني أن أتجاهل ـ في ذلك اليوم البعيد ـ ذلك الرنين وأنصرف إلى مواصلة القراءة في الكتاب الذي كان بين يدي ليتخذ مصيري لنفسه مسارًا آخر غير هذا المسار الذي لا سبيل

لي الآن إلى تغـيـيـره ؛ فكل شيء تقـرر في اللحظة التي رفـعتُ فـيـهـا السماعة!

يومها لم يكن قد مر سوى أسابيع معدودة على نصب أول جهاز للهاتف في بيتنا . وكان أبي قد وافق على ذلك الإجراء بعد تردد طويل ؛ ذلك لأنه كان يعدّ الهاتف جهازًا شيطانيًا أشبه ما يكون بضرب من أذن غريبة تسترق السمع إلى أسرار أسرته ؛ لذا كان يحظر على أمي وشقيقاتي الدنو منه ، حتى انهن وقعن في مواقف محرجة استطعن الخروج منها بلباقة : فما أكثر ما رنّ جهاز الهاتف طويلاً بحضور ضيفة دون أن تحرك إحداهن ساكنًا ، مسوّغات تصرفهن ذاك بكون الجهاز لا يعمل بصورة طبيعية برغم رنين جرسه ، أو هناك بعض الشباب الطائشين الذين يعمدون إلى معاكسة البنات دون حياء ، أو أنهن لا يولين الرد اهتمامًا حرصًا منهن على رعاية تلك الضيفة وعدم إهمالها لحظة واحدة!

وقد كان من دأب أبي ، في أول عهدنا بهذا الجهاز وقبل مغادرته البيت ، تثبيت القرص الدوار بوساطة قفل صغير كان يحتفظ بمفتاحه ضمن حلقة مفاتيح البيت الأخرى الملازمة لجيبه!

والواقع أنني لم أكن أولي مثل ذلك الأمر اهتمامًا يذكر ؛ فما حاجتي إلى استعمال الهاتف وأنا أزجي معظم وقتي خارج البيت؟

كنت في واقع الأمر أكاد أغفل عن وجود ذلك الجهاز ، لا أتذكره عادة إلا حينما يذكّرني بوجوده لحظة شروعه في الرنين ، محاولاً جهدي تجنّب الاقتراب منه ، حتى انني امتنعت ذات يوم - وكنت في بداية تمتعي بالعطلة الربيعية - عن الاستجابة لرنينه ، منصرفًا إلى القراءة في رواية بين يديّ ، متوقعًا أن تنوب أمي في الرد - وقد أنستني حياتي الجديدة في بغداد ذلك التقليد المتبع في بيتنا - وحين تواصل الرنين أكثر مما ينبغي

رفعتُ عيني عن الكتاب لأرى أمي تطلّ برأسها من باب المطبخ وهي تومئ لي نحو الهاتف الصاخب وسط الصالة ، فهرعت نحوه لاعنًا غفلتي .

حين رفعتُ السماعة فوجئت بصوت أنثوي يسألني دون مقدمات عن شخص يدعى (أميتاب)! . . . فتساءلتُ مغالبًا دهشتي من غرابة ذلك الاسم :

– أميتاب؟ . . . ومن هو أميتابك هذا؟

فانسابت خلال الأسلاك ضحكة شهية سبقت صوتًا يقطر غنجًا :

– أميتاب باجان . . . الممثل الهندي المشهور! . . . . لا يعقل أنك لم تسمع باسمه!

لحظتها عذرتُ أبي لحظره على أمي وشقيقاتي الدنو من الهاتف ؛ إذ ما معنى هذا اللغو الفارغ؟

أجبتها متهكمًا :

– في هذه الحالة من الذي أوهمك بأن بدّالة مدينة (نيودلهي) تقع في بيتنا؟

– أنت من أوهمني بذلك!

– أنا؟ أسبق لنا أن عرف أحدنا الآخر يا آنستي؟

سألتها جادًا وقد أثارتْ بكلامها فضولي ، فأجابتني عابثة :

– قل لي : ألم تكن ترتدي صباح اليوم (قمصلة) جلدية ضيقة وبنطال (جينز)؟

لحظتها بلغ الارتباك مني حدًا أني لم أستطع معه أن أحير جوابًا ؛ فذلك ما كنت أرتديه على وجه التحديد!

عادت تواصل كلامها ، مستمتعة بارتباكي دون شك :

– تلك هي الملابس نفسها التي ارتداها (أميتاب) في فيلمه الأخير

الذي عـرضـه (التلفـاز) . . . ليس هذا وحـسـب ، بل إنك تقلّده حـتى بتسريحتك ، والخصلة الراقصة على جبينك . . . هذه الأمور كلها أوهمتني بأنك على معرفة به!!

أجبتها بعدما سيطرتُ على انفعالي :

– اعـذريني ؛ ذلك لأن شـغـفي بالأفـلام الهندية توقف عند (شـامي كابور)!

– يا للذوق السيء! . . . أيعـقل أن يناقض ذوقك وسـامـتك إلى هذا الحد؟

– أأعدّ كلامك هذا شتيمة؟ أم ضربًا من الغزل؟

سألتها سعيًا مني لإرباكها ، ولكن عبثاً ؛ فقد سارعت تقول قبل أن تطبق السماعة ضاحكة :

– وما أهمية رأيك أنت ما دام الأمر منوطًا بي أنا؟

منذ ذلك اليوم غدوتُ حريصًا على تطبيق أوامر أبي بألا تمس نسـاء الأسرة جهاز الهاتف ؛ فما يكاد يرن حتى اختطف السماعة على أمل أن تعاود تلك الأنثى المجهولة الاتصال ، ولكن دون جدوى ؛ فـقـد بدا الأمر وكأنه لم يكن غير عبث بريء صدر عن فتاة ضجرة في لحظة طيش .

وعلى كل حال سرعان ما نسيت ما جرى ، وعدت أقضي أيام عطلتي بالتسكع في الشوارع المعهودة ، والمرور بالمقهى الذي اعتدت الجلوس فيه مع بعض الأصدقاء ، وتفقّد واجهات دور السينما المعدودة على أمل أن أحظى بمشاهدة فيلم جديد ، بيد أن مشكلتي تجسّدتْ بأن أية فـتـاة تبادلني مصادفة النظر كانت تذكّرني بتلك الأنثى المنشودة ؛ فألاحـقـها بشكل محموم عسى أن تكون هي ، متعقبًا إياها حتى مقر عملها أو باب بيتها أو . . . إحدى دور السينما ، لينتهي كل شيء مع إطفاء الأضواء والشروع

في عرض فيلم سبق لي أن شاهدته من قبل .

كنت أدرك سلفًا عبث مسعاي ذاك ؛ فالدلائل كلها تشير إلى أن تلك الفتاة لابد أن تكون من بنات الجيران ؛ وإلا كيف تسنى لها الحصول على رقم هاتفي ومعرفة تفاصيل ما كنت أرتديه يوم اتصالها بي؟

لكنني سرعان ما أبعدتُ تلك الفكرة عن ذهني ؛ فالبيوت التي تملك أجهزة الهاتف في زقاقنا معدودة ، وأصحابها معروفون لدي تمامًا : أستطيع الجزم دون تردد باستحالة أن يكون ذلك النداء الهاتفي قد صدر عن أحدها .

كان الاحتمال الأرجح أن بيت الفتاة يقع في واحد من تلك الأزقة التي أسلكها يوميًا وأنا في طريقي إلى أماكني المعهودة ، وهو احتمال دفع بي إلى الإلحاح في ترصد الأبواب والنوافذ والشناشيل كلما مررت بها بحثًا عن بغيتي .

كان الباب الوحيد الذي استثنيته هو باب ذلك البيت الذي كان يضج من حين لآخر بتلك المعارك شبه اليومية التي تومض خلالها السكاكين والخناجر لتنتهي أحيانًا باستدعاء الحلاق المحمّل بعدة شغله!

كنت أمرّ به سريعًا تجنبًا للقاء تلك الفتاة التي ضايقتها بحصاني منذ سنوات ، بيد أن سوء حظي كان يأبى إلا أن يضعني معها وجهًا لوجه : ما من مرة التقتْ أعيننا مصادفة إلا خيّل إليّ أنها تبتسم ساخرة دون أن تفرج عن شفتيها المكتنزتين .

وتكررت لقاءاتنا الخاطفة تلك هنا وهناك ، عند باب بيتها ، أو في زقاق قريب ، أو في أحد الشوارع وهي في صحبة صديقاتها . وكنت أفاجأ بها في كل مرة تترصدني بعينيها الواسعتين ، عاقفة فمها الشهي بتلك الابتسامة المتهكمة .

أيعقل أن تكون هي صاحبة ذلك النداء؟

سؤال حفّزني على المجازفة بالإلحاح في المرور بذلك الموضع أكثر من مرة في اليوم ، متعقبًا إياها أحيانًا برغم تظاهرها بالغضب ، داعيًا الله في سري أن يجنبني لقاء أحد أشقائها!

وقد كوفئتُ على إلحاحي ذاك ؛ فقد عادت كسابق عهدها معي : تطالعني بعينيها الحافلتين بذلك النداء المجهول برغم ابتسامتها الساخرة ، بل إنها أخذت تترقب كل يوم مروري وهي واقفة في الباب بكامل زينتها : تغرز أحيانًا (جنبدة) في ثنايا شعرها تضفي عليها سحرًا يأخذ بالألباب ، أو تزين عنقها بعقد من زهور قداح طبيعية منظومة بخيط ، بل إنني فوجئت بها في إحدى المرات وقد زينت جبينها الناصع بنقطة حمراء ذكرتني على الفور بهاتيك الممثلات الهنديات اللائي يعمدن إلى اتباع ذلك التقليد عند زواجهن في خاتمة تلك الأفلام التي ندر ألا تنتهي بالزواج!

يومذاك كان عليّ أن أصفع جبيني لبلادتي وغبائي ؛ فتلك الفتاة هي صاحبة ذلك النداء المجهول دون شك لا تدخر وسعًا لتشعرني بذلك ؛ فبعد (أميتاب) ها هي تتشبّه بالممثلات الهنديات في محاولة مكشوفة منها للفت انتباهي!

كان عليّ أن أضع الحذر والتردد جانبًا لأذهب في الأمر إلى خاتمته ولو اقتضاني ذلك تعليق ذراعي برقبتي!

وشعرتُ بها هي كذلك وكأنها حسمتْ أمرها معي ؛ فذات صباح لم تكد تلمحني قادمًا حتى مرقت من باب بيتها إلى الخارج وهي بكامل زينتها ، وثمة حقيبة تتدلى من إحدى كتفيها ، وتقدمتني في دعوة صريحة إلى ملاحقتها!

سرت في أثرها دون تردد ، تاركًا بيني وبينها مسافة تضمن لي سلامة نيتي في جولتي (البريئة) تلك حين يمسك بي أحد أشقائها بالجرم المشهود!

راقبتها باستمتاع وهي تتهادى أمامي خلال الأزقة والشوارع والأسواق ، تتطلع كعهدي بها إلى بعيد ، تاركة شعرها المشدود بشريط أبيض والمجمع خلف رأسها على شكل خصلة واحدة ، يهتز صعودًا ونزولاً مع وقع حذائها ذي الكعب العالي .

كانت تقف أحيانًا على حافة الرصيف في انتظار أن يخلو الشارع من السيارات المارقة بسرعة خاطفة ، لتجتازه متمهلة إلى الجانب الآخر ، غير أبهة بسائق نزق قد ينحرف بسيارته نحوها في محاولة بليدة لإرعابها ، مطلقًا لنفيره العنان!

كنت أضيّعها أحيانًا وسط زحام السوق ، يفصلني عنها فجأة تيار أجساد يدفع كل واحد منا بعيدًا عن الآخر ، فأشرئب بعنقي فوق الرؤوس والأكتاف ، باحثًا بعينين ملهوفتين عن خصلة الشعر المشدودة إلى الوراء بشريط أبيض . وكنت في أحيان أخرى أقترب منها بتهور حتى أكاد ألامسها .

كنا ـ دون أن نتبادل كلمة واحدة ـ قد نسقّنا تحركنا وسط فوضى الحشد ؛ يتفقد أحدنا الآخر بالتفاتة عابرة ، أو بتلكؤ مفاجئ ، أو بنظرة جانبية ، لنواصل بعدها القيام بمناوراتنا برغم الصخب الذي يكاد يصم الأسماع : تلتقي أعيننا أحيانًا في المرايا التي تزدان بها أبواب بعض المحلات ، أو على الواجهات الزجاجية ـ حيث تنتصب (المانيكانات) الرشيقة بفساتينها الزاهية في الجانب الآخر منها وسط أحدث تشكيلات الأزياء النسائية ـ فتبتسم لي مشجعة ، تاركة لنظراتي حرية تملي سحر

تينك العينين الواسعتين المسحوبتين من طرفيهما نحو الصدغين .

كان لها وجه بالغ الحيوية : تزدان الوجنتان بغمازتين دائبتي الظهور والاختفاء ، وثمة (رصعة) توسطت ذقنها تغري بالمجازفة في تقبيلها .

كان كل ما فيها يوحي باستمتاعها بتلك اللعبة ، واستعدادها للمضي فيها على امتداد ساعات النهار لولا أن جولتنا انتهت بدار سينما تعلو واجهتها صورة هائلة الحجم للممثل الهندي (أميتاب) محتضناً ممثلة هندية فاتنة ، وقد تقارب وجهاهما في مشروع قبلة على وشك التنفيذ دفع بالممثلة إلى أن تسبل جفنيها فاغرة شفتيها ، وقد انتشت سلفاً!

تسمّرتِ الفتاة تحت تلك الواجهة وقد أولتني ظهرها ، تاركة إياي أشعر بالعار من نفسي مع كل لحظة تمر دون أن أقدم على الخطوة التي لا بد لي من الإقدام عليها قبل أن أفقدها إلى الأبد .

غالبتُ وجيب قلبي المؤلم وأنا أدنو منها لأخاطبها بصوت أجش حسبته صوت غيري :

– سأبتاع بطاقتين ، ستكون إحداهما من نصيبك إن راقك الأمر بطبيعة الحال!

أجابتني بصوت خافت وهي تتجنب مبادلتي النظر :

– سيذبحني أشقائي إن لمحني أحدهم في صحبة غريب!

ترددتُ لحظة لمعرفتي بمدى جدية أشقائها في مثل هذه الأمور ، لكنني سرعان ما حسمت ترددي ، واتجهت نحو شباك التذاكر ، عاداً كلامها ذاك موافقة ضمنية . وكانت قد دخلت في أثري ، لتنصرف إلى تأمل صور لقطات من الفيلم ، معروضة خلف واجهة زجاجية لا شك في أنها رأت صورتي تنعكس عليها لحظة اقتربت منها بالبطاقتين ؛ فقد خاطبتني ، دون أن تستدير نحوي ، كأنها تكلم نفسها :

- سأدخل شريطة ألا نجلس على كرسيين متجاورين!

لم أفهم مرادها ، فبقيتُ أتأمل خصلة الشعر النافرة خلف رأسها في انتظار أن تفصح عما تعنيه . وسرعان ما عادت تتكلم مصرة على عدم التطلع نحوي :

- سأجلس في الصف نفسه شريطة أن تفصلك عني عدة كراسي!

- في هذه الحالة من يضمن أن يتركك الشباب بسلام؟ فتاة بجمالك تجلس وحدها منفردة! . . . ذلك ضرب من المحال!!

- وما مهمتك أنت؟!

تساءلتْ بخبث وقد استدارت نحوي لاسعة إياي بنظرة خاطفة وقد أشرق وجهها بسحر ابتسامة ماكرة .

أضافتْ مستفزة :

- لا تجعلني أحسب أن بطولاتك لا تتخطى إرعاب طالبات المدارس من فوق صهوة حصانك!

لحظتها وجدتني مستعدًا لتحدي العالم كله إكرامًا لها . تقدمتها نحو صالة العرض لولا أنها سارعت بإيقافي قائلة :

- لن أدخل إلا بعد إطفاء الأضواء .

في ظلام الصالة الذي كان يتخفف بعض الشيء بفعل حزمة الضوء التي كانت تفترش مساحة الشاشة العريضة على شكل ممثلات هنديات عاريات الخصور منهمكات ، على وقع موسيقى تكاد تصم الأسماع ، بهز خصورهن الرائعة في رقصة سريعة الإيقاع ، تحسسنا سبيلنا نحو صف شبه خال لتجلس على الكرسي الأول المحاذي للممر ، هامسة لي :

- كما قلتُ لك : لا نجلس لصقي . . . بل على بُعْد أربعة . . . لا بل الأفضل سبعة كراسي .

يا إلهي! . . . أية فتاة مجنونة أنا على وشك التورط معها؟!

مرقتُ خلال الممر الضيق محني الظهر ، وأنا أعد الكراسي لأجلس على سابعها ملتفتًا من فوري نحو فتاتي التي رأيتها وقد انصرفت بكل حواسها نحو الشاشة ، متابعة باستغراق أحداث فيلم حافل دون شك بتلك المواقف (الميلودرامية) غير القابلة للتصديق .

حينها كنت قد تخطيتُ مرحلة الشغف بالأفلام الهندية ، أشعر بالعار إن أمسك بي أحد أصدقائي متلبسًا بمشاهدة واحد منها ، لذا فقد انصرفت بكل كياني إلى مراقبة تلك الفتاة على أمل أن تتلفت بالمجاهي ولو مرة واحدة ، إلا أن ذلك لم يحصل قط ؛ فقد بقيتْ تلاحق الفيلم بكل جوارحها لتثب واقفة قبل إشعال الأضواء بلحظات ، وانسلّتْ خارجة من الصالة وهي تمسح عينيها ، فتعقبتها بدوري لأكتشف أنها كانت قد ذرفت الكثير من الدموع ؛ فقد تطلعت إليّ بعينين لا تزالان محمرتين من أثر البكاء ، رامقة إياي بنظرة عرفان وهي تقول :

- كم يبدو الفيلم ساحرًا حينما يعرض على تلك الشاشة العريضة لا على شاشة (التلفاز) الضيقة!

وأضافتْ وهي في سبيلها إلى الانصراف :

- دعني أذهب وحدي ، ولا تحاول تعقبي في طريق العودة . . . . سأتصل بك هاتفيًا عصر اليوم .

راقبتها وهي تغادرني إلى شمس الشارع دون أن تلتفت نحوي ، في حين بقيتُ أنا أجول بنظراتي على وجوه الحشد الذي شرع في التدفق خارجًا من صالة العرض لأطمئن إلى أن الأمر انتهى بسلام .

عصر ذلك اليوم بقيت أحوم حول جهاز الهاتف وقتًا طويلاً قبل أن أحظى بالنداء المرتقب . شكرتني بحرارة ، ونوّهتْ عن استعدادها لتعيد

الكرّة معي شريطة أن يكون الفيلم هنديًا ، فسألتها مماحكًا :

– والكراسي؟

– أية كراسي تعني؟

– ألابد من أن تفصل سبعة كراسي أحدنا عن الآخر؟

أجابتني ضاحكة :

– تريث . . . لا تستعجل الأمور ؛ وسأكافئك بتقليل عدد الكراسي الفاصلة بيننا كلما برهنتَ على كونك عاقلاً و(حبّابًا)!

– واسمك؟ ألابد لي من أن أبرهن على كوني (حبّابًا) قبل أن تخبريني به؟

فصاحتْ في سماعة الهاتف مقرّعة :

– اسمي؟ أتعني أنك بعد كل هذا الطراد والملاحقة لا تزال تجهل اسمي؟

– وما علاقة الطراد والملاحقة بمعرفة اسمك؟

فأفحمتني بجواب بالغ الذكاء :

– لو كنتَ جادًا معي ، كما هو شأني معك ، لعرفته بطريقة أو بأخرى مثلما عرفتُ أنا رقم هاتفك بنفسي!

وهكذا ؛ غدوتُ ألازم رؤى على امتداد الأيام المتبقية من تلك العطلة : لا يكاد يعرض فلم هندي في إحدى دور السينما حتى أتصل بها عن طريق الهاتف بعد انتصاف الليل في الغالب ـ تجنبًا لمراقبة الآخرين ـ فأتسلل إلى ظلام الصالة لأدير بأصابع خبيرة ـ ودون الاستعانة بالنظر ـ الرقم المنشود محددًا لها بصوت هامس موقع لقائنا المرتقب ، مقلصين في كل مرة عدد الكراسي التي تفصل بيننا بعدما برهنتُ لها على كوني عاقلاً و(حبّابًا) . ويوم جلستُ لصقها أول مرة اكتفت بأن همستْ لي في

ظلام الصالة قبل أن تسمّر عينيها على الشاشة :

– أنصحك بألا تحاول العبث معي بمس ذراعي أو ساقي خوفًا من أن أسبب لك فضيحة مجلجلة وسط الصالة ؛ ذلك لأنني لشدة انسجامي مع الفلم ، أنسى نفسي ، ومن المؤكد أنني سأنفجر صارخة ذعرًا!

وعملتُ بنصيحتها ، مكتفيًا بالاستمتاع بتأمل وجهها عن قرب وهو يفصح عن شتى الانفعالات المتناقضة من حزن وفرح واضطراب وقلق : ما تكاد الدموع تنحدر نحو زاويتي فمها حتى تنفجر مقهقهة قبل أن تتوتر قسماتها في حالة ترقب وانتظار!

كانت تذهلني بتناقضاتها في أمرين : صرامة تصرفها معي حين توقفني عند حدي ، وانجرافها لعواطفها حين تستمتع بمشاهدة أحد الأفلام ، حتى انني بت أتوجس من أنها لم ترتبط معي بتلك العلاقة إلا لتتخذ مني وسيلة لمشاهدة تلك الأفلام البائسة!

كنت أحسب أن مرور الزمن وتعدد لقاءاتنا سيتكفلان بأن يأخذ ارتباط احدنا بالآخر الطابع المألوف في ارتباط المحبين بعضهم ببعض . ولكن تلك الأمنية لم تتحقق برغم أنني قضيت تلك العطلة في لقاءات شبه يومية بها ، حتى إذا ما عدتُ إلى بغداد لمواصلة دراستي في الكلية كنت أحتجج بأي عذر لأؤوب راجعًا إلى مدينتي ، حيث أبي يجابهني بنظرات شك واتهام ، في حين تمطرني أمي باستفسارات متلاحقة عن سر تعلقي المفاجئ بمدينتي ؛ ما أكاد أغادرها أسبوعًا أو أسبوعين حتى أعود إليها متلهفًا!

كنت أهرع إلى لقاء رؤى التي كانت تجازف بدورها بالتسلل من مدرستها لتلتقيني عند دار السينما المنشودة ، وقد ضمّتْ كتبها إلى صدرها . وبقيتْ كما عهدتها من قبل : في عجلة من أمرها ، لا تدخل

الصالة إلا بعد إطفاء الأضواء ، ولا تغادرها إلا قبل إشعالها بلحظات ، غير مدركة أن صبري معها قد أوشك على النفاد حتى انني همست لها ذات يوم في ظلام الصالة وقد فاض بي الكيل :

- اسمعي . . . لك الحق بأن تشغفي بالأفلام الهندية . . . ولكنْ . . . لا أرضى لنفسي أن تتحول علاقتي بك إلى ضرب من فلم هندي!

رمقتني بنظرة خاطفة متسائلة قبل أن تعود بعينيها إلى الشاشة وقد عجزتْ عن فهم ما أعنيه ، فعقبتُ جازمًا :

- سأمسك بكفك . . . ولا مسوّغ للصراخ . . .

ولدهشتي أجابتني بكل جدية ، وعيناها مسمرتان على الشاشة :

- أمسك بها شريطة ألا تنسى أن الحد المسموح لك لمسه ينتهي عند الكوع!

ومرتِ المحنة بسلام . وأصبح الإمساك بيدها أحد التقاليد التي أحرص على اتباعها حالما نتخذ موضعنا في الظلام ، تاركًا إياها تتابع أحداث الفيلم بمنتهى الجدية ، ذارفة قدر ما تشاء من دموع .

يومذاك امتزج حبي لروى بشيء من إشفاق ؛ فقد اكتشفت أنها شأنها شأن أمي والنساء الأخريات المغلوبات على أمرهن في وسط أسري يتحكم فيه الرجال بقبضات فولاذية ؛ لا تستجيب لما يراد منها دون ضرب من القسر : فقد اعترفت لي ، في لحظة بوح نادرة ، أنها تعلقت بي منذ ذلك اليوم الذي حاصرتها فيه بحصاني بإزاء الحائط . قالت ، وهي تتهرب بعينيها مني ، إنها وجدتْ بي حينذاك مثال الرجولة والجسارة ، وشد ما تمنت لحظتها أن أحقق لها حلم يقظة طالما راودها وهي تقرأ روايات (ميشال زيفاكو) و(إسكندر دوماس) وأضرابهما من الروائيين الرومانسيين ، فأتعقبها بحصاني حتى باب بيتها لأخطفها تحت أنظار أشقائها وأهرب بها إلى غابة

نائية لا يقربها مخلوق!

كانت تكشف لي ، باتصالاتها اليومية ، جوانب من حياتها التي لم يكن فيها ما يسر ويبهج ؛ فقد ماتت أمها وهي لا تزال طفلة ، فأصبحتْ ملزمة بأن تحتل موضعها في إدارة شؤون بيت هي الأنثى الوحيدة فيه ، لا سبيل إلى إبداء التذمر أو الاعتراض ؛ لأن أدنى ما كانت تنال من عقاب لم يكن يقل عن شد الشعر والصفع والركل!

كانت حياتها ضربًا من حكم بالأشغال الشاقة : تبدأ فجرًا حين تسارع في إعداد الفطور لأشقائها قبل أن يتوجهوا إلى أعمالهم ، لتنتهي عقب العشاء مباشرة : إذ ما تكاد تغسل أوعية الطعام حتى (تخمد) في فراشها لتنام كالحجر في انتظار بزوغ فجر جديد .

على تلك الوتيرة مضت طفولتها ، حتى إذا ما دخلت طور المراهقة وجدت ضالتها في أمرين جعلا لحياتها معنى : أولهما المدرسة وضرورة أن تحقق أمنيتها بأن تغدو طبيبة يومًا ما ، وثانيهما الأفلام الهندية التي يعرضها (التلفاز) من حين لآخر ؛ فقد كانت تجد في أغلبها صدى لطفولتها المعذبة ، فتنفّس عن حزنها الدفين بذرف الدموع .

بيد أنها اكتشفت مرعوبة أن لأشقائها القدرة ليس على تحويل حياتها إلى ضرب من أشغال شاقة وحسب ، بل إجهاض أحلامها أيضًا دون أن يطرف لهم جفن ؛ فقد برهنوا لها عمليًا أنهم لم يأخذوا مسألة دراستها على محمل الجد : فقد كانوا يعمدون إلى تمزيق دفاترها وإتلاف كتبها كنوع من عقاب كانوا ينزلونه بها في بعض الأحيان ، أما الأفلام فقد كانوا يسومونها العذاب قبل أن تصل إلى خاتمتها ؛ فكلما همّ البطل بتقبيل البطلة صرخ بها أحدهم لتبتعد عن الشاشة بحجة جلب كأس ماء أو عمل الشاي!

كان ذلك مدار أحاديثها الهاتفية معي ، وكان دوري لا يتخطى دور المستمع : أنطق من حين لآخر بكلمة مواساة أو تشجيع ، معاهداً إياها في أغلب الأحيان على أنني سأتكفل بتحقيق أحلامها كلها ، وأولها إشباع نهمها بالأفلام الهندية ، فكانت تعقّب على كلامي ذاك بقولها إنها واثقة من ذلك ؛ فعلاقتها بي أضحتْ أكبر أحلام حياتها . لكنها سرعان ما كانت تستدرك وقد غلبها التشاؤم :

– المهم هو ألا ننسى اتخاذ جانب الحيطة والحذر في كل لقاء ؛ إذ يكفي أن يضبطنا أحد أشقائي لينتهي كل شيء!

والواقع أن ذلك الأمر كان الوحيد الذي ينغّص علينا لقاءاتنا ؛ فكنا نستبق حصول الكارثة بالتظاهر بأننا نسير وسط الناس عرضًا دون سابق اتفاق ، تاركين بيننا مسافة فاصلة كانت تزداد اتساعًا كلما لاح لنا وجه يثير الريبة .

لكننا كنا ننسى أنفسنا أحيانًا ، ونغفل عن وجود الناس حولنا ، فننطلق في إبداء انطباعاتنا عن الفلم الذي شاهدناه ، ونقاط القوة والضعف فيه . وكنت قد أفلحت في اقناعها أن فن السينما ليس مقتصرًا على الأفلام الهندية ؛ فهناك أفلام عالمية عظيمة تستحق المشاهدة ، بل إنني كنت أحرص على اصطحابها إلى فلم مأخوذ عن رواية كنا نحرص على قراءتها قبل مشاهدة الفلم لنقارن في ما بعد بين ذينك المجالين الإبداعيين .

كما أنني كنت قد نجحت في توسيع حدود قراءاتها التي كانت وقفًا على روايات رومانسية عفا عليها الزمن ، أو روايات بوليسية ومغامرة مبتذلة ، فكنت أحرص على تزويدها بكتب أثيرة لديّ بلغ شغفي بها حدًا أنني اقتنيتها لأحتفظ بها لنفسي وذلك لقاء التضحية بجزء من مصروفي

الشهري الشحيح .

كانت تلك الكتب خليطًا من روايات ومسرحيات ودواوين شعر ، كنت أمنّي النفس بأن تشكّل نواة مكتبة ستحتل لها موضعًا في غرفتي ، غير مدرك بالمصير الذي ستنتهي إليه ؛ إذ ما أدراني بالذي جرى لها الآن بعد مرور كل هذه السنوات على هجري البيت؟!

كنت أزود رؤى بكتبي تلك : ما نكاد نلتقي في موعد (غرام) حتى أسلمها مجموعة جديدة ، مسترجعًا منها المجموعة التي أنهت قراءتها مكرسين لقاءنا ذاك للتحدث عما قرأتْ ، دون أن تأخذها بي شفقة ؛ إذ أيعقل أن نضيّع انفرادنا وسط ضجيج الناس بالتحدث عن الكتب؟

وكان شغفها بالقراءة بلغ حدًا أن اقتراب موعد امتحاناتها النهائية لم يمنعها من أن تطلب مني إعارتها المزيد من الكتب . حينها كنت أتهيأ للسفر إلى بغداد صباح اليوم التالي لأؤدي بدوري امتحانات سنتي الأخيرة في الجامعة .

كانت مسرحية (أوديب ملكًا) آخر كتاب شكّل محور حديث لنا حين وقعتِ الكارثة : سألتني لحظة لقائنا عند إشارة المرور الضوئية ، ونحن على أهبة الاستعداد لاجتياز الشارع حالما تكف السيارات عن تدفقها المجنون :

– ما سر احتفاظ هذه المسرحية بسطوتها على القراء برغم مضي أكثر من أربعة وعشرين قرنًا على إبداع (سوفكليس) لها؟

فأجبتها وأنا أسحبها من يدها لنجتاز الشارع نحو الجانب الآخر :

– ذلك لأن (أوديب) مثّل الإنسان ، وتراجيديته تمثّل الوضع البشري ، ومصيره قد يصبح مصيرنا ؛ إذ إن أقدارنا تقررت سلفًا مثلما نطق العراف باللعنة على (أوديب) قبل أن يولد .

وواصلتُ حديثي عن تلك المسرحية وقد انغمرنا في ضجة إحدى الأسواق ، ملخصًا لها قراءاتي عنها منذ (أرسطو) حتى زمننا ، مستمدًا أغلب أفكاري من (فرويد) .

أخبرتها ـ ونحن نناور في شتى الاتجاهات لكي لا تبعد حشود السابلة أحدنا عن الآخر ـ أن من أسباب شغفنا بتلك المسرحية كونها تنطوي على أخطر اعتدائين اقترفهما (أوديب) يتفقان مع خيالات طفولتنا التي جرى قمعها ، وهما الاستحواذ على أمهاتنا ، وإبعاد آبائنا عن سبيلنا .

كما أن هناك أمورًا أخرى تمنح المسرحية امتيازها وتفرّدها مثل افتقاد الإنسان الشديد للأمن ـ لا علم له باللحظة التي ينقلب فيها مصيره إلى النقيض ـ وغفلته وعماه ـ قد يفاجأ بما كان يحسبه أبعد الأمور عنه فإذا به أقرب من نبضه ـ وبحثه الدؤوب عن العدالة .

وسط حديثي ذاك فوجئتُ برؤى تتجمد في موضعها مصعوقة .

– ما خطبك؟!

سألتها مرعوبًا وأنا أجيل عينيّ على وجوه المارة المتدفقين من حولنا ، فهتفتْ محذّرة وقد شحب وجهها حتى حاكى وجوه الموتى بياضًا :

– ابتعد . . . ابتعد قبل أن يلمحك شقيقي!!

سين السؤال

(١)

جفلتُ من أفكاري على منظر غريب لعله لم يستغرق غير جزء من ثانية : فعلى غير توقع غطى امتداد الطريق جناحان مديدان يتوسطهما وجه مستدير يكاد يكون إنسانيًا ، بعينين واسعتين بادلتاني النظر على مدى لحظة خاطفة قبل أن يتردد صوت ارتطام مكتوم بزجاجة السيارة حجب على أثره الدم والريش مجال الرؤية!

– يا للبومة المشؤومة! . . . كادت تهشم الزجاجة!

صاح السائق بانفعال وقد شغّل الماسحتين اللتين شرعتا تنزلقان بحركات بندولية مصحوبة بدفقات ماء سرعان ما أزالت فيض الدم عن الزجاجة التي عادت نظيفة ، لم يبق عليها أثر للطائر القتيل غير ريشة انحشرت في ثنايا إحدى الماسحتين .

استعذتُ بالله ، مغالبًا شعورًا بالتشاؤم ؛ فأية مصادفة دفعتْ بهذا الطائر الضال إلى حتفه في اللحظة نفسها التي كنت أفكر خلالها بـرؤى يوم ضبطها شقيقها برفقتي؟

– كان من المحال تلافيها ؛ فقد فوجئتُ بها تطير على ارتفاع واطئ في اتجاه زجاجة السيارة مباشرة!

أردف السائق مسوّغًا ما حصل ، فارتفع صوت من أحد المقاعد الخلفية :

- يبدو أن الجوع دفع بها إلى أن تخرج مبكرة بعض الشيء لاقتناص فريستها .

وعلى يميني لاح قرص الشمس برتقاليًا ضخمًا وقد مسّ خط الأفق .

وتردد صوت آخر خمّنتُ أنه صوت الممرض :

- خرجتْ لتصطاد ، فغدت فريسة مرمية على قارعة الطريق سرعان ما ستتلاقفها المناقير والأنياب لتجهز عليها خلال دقائق .

- ذلك هو مصير كل من يمدّ رجليه أبعد من غطائه!

كان ذلك صوت رمزي ، فاستدرت بوجهي إلى الوراء وأنا في دهشة مما سمعت ؛ إذ ما مسوّغ معاودة السخرية من (أبو خضر) والتعريض به بعدما أنهى حكاية خسارته لتمره بتلك الخاتمة المأساوية التي أكسبته تعاطف الجميع؟

لمحتُ رمزي ، من خلال وجوه الركاب المسترخين على مقاعدهم ، وقد عاد يوزع على المحيطين به غمزاته وإيماءاته التهريجية الباعثة على الضحك ، مستهدفًا بها هذه المرة ليس (أبو خضر) وحسب ، بل التاجر أيضًا!

والحق أن منظر الاثنين بدا مبعث استغراب لكل من يراهما ؛ فقد جلس أحدهما لصق الآخر بعدما كان ثمة مقعد فارغ يفصل بينهما ، وكانا في شاغل عن الآخرين بتبادل حوار هامس كان التاجر خلاله يولي صاحبه الرعاية والاهتمام : يصغي له بكل جوارحه مقدمًا إليه في الوقت نفسه سيجارة من أغلى الأصناف ، موقدًا إياها دون أن يكف عن هز رأسه دلالة موافقته على كل ما يقول!!

- ثمة صفقة مشبوهة يجري الإعداد لها!

صاح رمزي لحظة التقت عيناي عينيه ، فتلفتُ حولي محرجًا وقد هالتني جرأته ؛ ذلك لأنه كان على مقربة شديدة منهما ، يشرف على

مقعديهما مباشرة!

– اطمئن . . . لن ينتبها لي ؛ ما من أمر يشغلهما عما هما بصدد إنجازه!

عاد رمزي يخاطبني بتهور مستمتعًا بتأليب الركاب ضد ذينك الرجلين اللذين لم يولياه أدنى انتباه : فوسط حوارهما الهامس ـ الذي تتخلله نوبات سعال كانت تنتاب (أبو خضر) المسكين عقب كل نفثة دخان شأن المستجدّ في التدخين! ـ لاحظتُ التاجر يستلّ حاسبته الصغيرة من جيبه ليعبث بأزرارها ، عارضًا على (أبو خضر) ما ترتسم على شاشتها من أرقام ضوئية!

ترى أية صفقة يجرى الإعداد لها في سيارة تجأر وسط صحراء مترامية الأطراف مقرّبة إيانا كل لحظة من مدينة منكوبة؟

سؤال لم أستطع إبعاده عن ذهني وقد استدارتِ السيارة بنا حول مفترق طريق بثلاث شعب لتندفع شرقًا هذه المرة ، حيث قدمت من الاتجاه المعاكس سيارة سطعت زجاجتها بآخر أشعة للشمس الغاربة ، يعلوها تابوت ملفوف بالعلم العراقي ، مرقتْ من الجانب الأيسر ، فعاد قلبي يخفق في صدري هلعًا وقد خطر لي أبي من جديد ؛ فقد خُيِّل إليّ أنني شخّصتُ وسط وجوه ركاب تلك السيارة وجهًا بدا مألوفًا لدي ، لعله كان أحد أقاربي!

ومن الخلف ارتفع نشيج المرأة الذي سرعان ما تحوّل إلى بكاء كانت تقطعه من حين لآخر لتترنم بصوت عذب أسال دموعي على الرغم مني :

عـــفــيــه اولدي شــبّـــال همـي
يا بعـــد ابويه او بعـــد عـــمي
حـــيّـــه او بيك افـــرزت ســـمي
ردنـك كـلـوب اعـــــداك تـدمـي

وعـيـونهم تدعـبـهـا تهـمي
للمـعـركـه خطبت جـدمي
شـفـتك على التـربان مـرمي
وبجـتلتك قـويت عـزمي

وبجانبها كانت ابنتها تحاول عبثًا تهدئتها بصوت خنقته العبرات :

– عيب يا أمي . . . لا يعقل أن يستدر منظر تابوت كل شهيد دموعك بهذا الشكل . . . لقد فضحتنا وسط الأغراب!

فانبرى لها الرجل العجوز ناصحًا :

– دعيها تفرغ حزنها يا ابنتي . . . ما من غريب بيننا ؛ فقد جمعتنا المحنة ، وجعلتنا أشبه بأسرة واحدة .

وبدت الفتاة وكأنها لم تكن إلا بانتظار هذا الكلام ؛ فقد أجهشت بدورها في البكاء ، وبقيت الاثنتان تشهقان منتحبتين وقتًا طويلاً ، والركاب صامتون ، يحاذر أحدهم مبادلة الآخر النظر . كان كل واحد منهم يلوذ بحزن داخلي دفين قد ينفجر على شكل دموع في أية لحظة . وكان الشاب هو الوحيد الذي تجرأ على أن يبدد الصمت ؛ فعلى غير توقع سمعته يصيح بالفتاة دون كلفة :

– يفترض بك تشجيعها على ذرف الدموع ، فقد حظيتْ أخيرًا بنعمة الشفاء ؛ ذلك لأنني منذ سمعتها في الكراج تخاطب السائق قائلة إنها (أم شهيد) أدركتُ أنها في سبيلها إلى أن تتماثل للشفاء بعد مرور كل هذه السنوات التي كانت ترفض خلالها الإقرار باستشهاد ابنها!

– يا للوقاحة! . . . يتصرف معها وكأنه وليّ أمرها!

خاطبني السائق بصوت خفيض ، حادجًا إياي بنظرة خاطفة وقد اتسعت عيناه دهشة واستنكارًا .

– مهلاً . . . لا تستبق الأمور . . . أحسب أنه يمت إليهما بصلة ما .

كلّمته ناصحًا ، إلا أنه لم يمتثل لطلبي ؛ فقد صاح بالشاب بجفاء مصوبًا عينيه نحو المرآة التي تعلو رأسه :

– ألا تلاحظ أنك قد تخطيتَ حدودك بعض الشيء؟

فتساءل الشاب منتفضًا :

– أتخاطبني أنا؟

– من المؤكد أنني أخاطبك أنت ؛ فقد آن لك التوقف عند حدك بعدما تماديت في عبثك!

– سأكون ممتنًا إن بيّنتَ لي الحد الذي يفترض بي التوقف عنده بعبثي .

كلّمه الشاب متهكمًا ، فانفجر السائق صارخًا :

– ألا تدع هاتين المرأتين وشأنهما؟ فمنذ لقائنا في الكراج وأنت تحوم حولهما دون خجل ، لا تكاد تغادرهما بعينيك!

بدا من الواضح أنه آن للرجلين تصفية حساباتهما بعد طول تردد وإحجام . لكن الغريب هو أنني فوجئت بالشاب يجيبه مغالبًا الضحك :

– بارك الله فيك يا سائقنا الهمام . كنت واثقًا من أنك مثال الشهامة والغيرة لولا أن الحظ خذلك هذه المرة ؛ فالمرأة الكهلة خالتي ، والأخرى ـ ابنتها ـ ما هي في واقع الأمر سوى خطيبتي!

صاحت الفتاة بالشاب مقرعة :

– لا يوجد مسوّغ لكشف أسرارنا الشخصية على رؤوس الأشهاد!

– ما العمل وهو لا يكف عن ملاحقتي بنظراته المنتقدة وكلامه الجارح كلما قمتُ بالتفاتة نحوك؟

فتمتم السائق خجلاً محاولاً تسويغ موقفه :

- ما من خاطب يتصرف على طريقتك : يتجنّب الدنو من خطيبته ، مختلسًا إليها النظر من بعيد شأن الأغراب!

فانبرت المرأة للإجابة ، مغالبة بكاءها بصعوبة :

- أنا الملومة في ذلك يا وليدي . . . أنا الملومة . ليت يدي تيبّستْ وفقدت القدرة على الحركة قبل أن أمدّها إلى المصحف لأقسم عليه ذلك القسم الذي لا رجوع لي عنه ؛ فما من مرة وافقتُ فيها على أن يصطحبنا ابن أختي هذا في سفراتنا المتعاقبة إلى بغداد أو المنذرية إلا واشترطت عليه - التزامًا مني بذلك القسم - تجنب الاقتراب من ابنتي - خطيبته كما قال - مرجئة بذلك ما وسعتني الحيلة حتمية اقترانهما يومًا ما ؛ إذ كيف يهون عليّ السماح بزفافهما بغياب صقري . . . ابني البكر؟!

وأجهشت الأم وابنتها في البكاء من جديد . في حين علق الممرض بأسى :

- يبدو أنها ثكلى فجعت بابنها .

- الأمر كما تقول خلا إضافة تعمّق الجانب المأساوي في قصتها ؛ إذ كان لابد من مرور أكثر من سبع عشرة سنة قبل أن تقرّ باستشهاد ابنها!

أجابه الشاب مثيرًا بذلك فضول الجميع حتى ان أكثر من واحد طالبه بأن يروي كيفية حصول ذلك .

- لقد عُدّ ابن خالتي ضمن المفقودين في الحرب مع إيران ؛ ذلك لأننا لم نتسلم جثمانه ، فلم نقطع الأمل في احتمال بقائه على قيد الحياة . بيد أن مرور الأعوام ، ونشوب حرب (عاصفة الصحراء) ، ورجوع معظم الأسرى إلى أسرهم سرعان ما أجهز على أملنا ذاك . وبقيتْ خالتي الوحيدة التي تصر على أن ابنها سيظهر يومًا ما . وقد عزز لديها هذا الأمل عودة مفقودين لم تكن أسماؤهم قد أُدرجت ضمن قوائم الأسر .

واستدار الشاب بوجهه إلى الوراء متفقدًا بعينيه خالته وابنتها ، حتى إذا ما رآهما منشغلتين بالبكاء عاد يواصل كلامه متحدثًا هذه المرة عن تلك الأيام التي بات من دأب خالته خلالها متابعة أخبار العائدين : تخطف عباءتها حال سماعها بوصول أسير لتزوره في بيته ، مهنئة إياه بسلامة الرجوع دون أن تنسى سؤاله عن ابنها ، لتعود في آخر الأمر مثقلة بالخيبة ، تتطلع حولها بنظرات شاردة وقد اعتصمت بالصمت ، لا شيء يخرجها عن ذهولها غير (التلفاز) ؛ ما يكاد يعرض لقطات عن حشود الأسرى لحظة وصولهم إلى نقطة المنذرية الحدودية وهم يسارعون بالسجود لاثمين الأرض حتى تتسمر أمام الشاشة ، متابعة بعينين دامعتين هؤلاء الرجال الذين أحالتهم سنوات الأسر إلى أشباح ، وقد دب الصلع في رؤوسهم ، وتساقطت أسنانهم وهزلت أجسادهم .

- كان قلبي يحدثني بأنني سألمح وجهه يومًا ما بين وجوههم .

ارتفع صوت المرأة من موقعها القصي مقاطعة ابن أختها . وبعدما كفكفت عبراتها ونجحت في السيطرة على نفسها واصلت كلامها :

- وذلك ما حدث في آخر الأمر : ففجأة رأيت وجه ابني يملأ شاشة التلفاز . كان هو هو بلحمه ودمه : العينان عيناه وكذلك الأنف والفم . . . بل الشارب أيضًا ؛ فقد كان يؤطر شفته العليا بسواده ، وحتى نظرته كانت نظرة ابني : لا يحدق إليك مباشرة ، بل يحني وجهه قليلاً ليتطلع إليك مبتسمًا بشيء من حياء وخفر .

وتهدج صوتها ، فلم يعد في وسعها الكلام ، تاركة لابن أختها حرية مواصلة الحديث :

- كانت لحظة عجيبة شرع خلالها جسدها في الارتجاف كأنما أصابتها الحمى : تزغرد تارة ، لتهذي طورًا بكل ما يخطر لها من كلام ، محاولة أن

تبرهن للجارات اللائي أخذن يتقاطرن على بيتها كيف أنها لمحت وجه ابنها ضمن وجوه الأسرى ، وهن يتفرسن فيها بين مصدقة ومكذبة!

وقاطعت المرأة ابن أختها ثانية :

– لم يكنْ يصدقنني ؛ حسبن أنني فقدت عقلي . وأخذتْ أكثر من واحدة منهن تضرب كفًا بكف ، فلم أملك سوى الاستعانة بابن أختي ليؤكد صدق ما ذكرت بعدما أعيتني الحيلة . لكنه لم يرحمني فقد فوجئت به يصرف الجارات مطبقًا الباب خلفهن ، وأنا أكاد افترسه بعيني ؛ إذ أيعقل أن تبلغ القسوة بالإنسان حدًا يبخل معه بكلمة على أم منكوبة . . . محض كلمة تجلب لها شيئًا من عزاء؟

– يشهد الله على أن ألمي يومذاك لم يكن أقل من ألمك . لكن ذلك لم يدفعني إلى أن أحاول خداعك . . . ما جدوى الكذب عليك في أمر لا يجديه الكذب فتيلاً؟

سأل الشاب خالته قبل أن يتوجه بحديثه إلينا :

– توسلتُ إليها . . . لثمت يدها أكثر من مرة ، رجوتها ألا تنسى نفسها بهذا الشكل فتتوهم حصول أمور غير قابلة للتصديق ؛ إذ لا يعقل أن تكون قد شبهتْ ذلك الشخص الذي لمحته خطفًا في لقطة لم تستغرق غير ثوان بابنها كما تتذكره منذ غادرها آخر مرة قبل سبع عشرة سنة! . . . فهجمتْ عليّ وقد رفعتْ يديها كأنها في سبيلها إلى افتراسي . . . لكنني لم أنسحب من أمامها . كنت سأعذرها لو نشبت أظفارها في لحمي ؛ فقد كنت أعرف عمق فجيعتها . . . تمنيت لو أنها أفرغت غيظها بي . . . لكنها انهارت على صدري باكية . هدأتها ، مؤكدًا لها أنها محقة في تشبيه ذلك الشخص بابنها كما كان منذ سبع عشرة سنة! . . سألتها : أيعقل أن يحافظ ابنها على نضارته وشبابه بعد انقضاء سنوات الأسر المريرة؟ ألم تر

بعينيها وجوه الأسرى الذابلة المنهكة؟ قلت : قد يكون ذلك الشخص واحدًا من هؤلاء العراقيين الواقفين في انتظار عودة أسير يمت إليهم بصلة ما ؛ أما أن يكون ابنها فذلك هو المحال عينه! . . . حينها فقدت خالتي السيطرة على نفسها . هاجمتني دافعة إياي في صدري . . . أمرتني بأن أغادر بيتها . . . صاحت بي وهي تعول باكية أن ما يهمني فقط هو أن أهيل التراب على ذكرى ابنها لننساه إلى الأبد ، منصرفين إلى ملذاتنا . وسارعت إلى التقاط مصحف من رف قريب لتقسم عليه أنها لن تسمح لي بالزواج بابنتها ما دام ابنها مفقودًا . . . أبدًا . . . لن تسمح بانطلاق زغرودة واحدة تحت سقف بيتها ومصير ابنها مجهول!

وهتفت المرأة منتحبة :

– ليت يدي شُلّتْ قبل أن أمدها إلى ذلك المصحف الشريف . ليتني أصبت بالخرس . . . ليت لساني انعقد في فمي قبل أن أتفوه بذلك القسم ؛ فبسببه إنما حرمتكما من الزواج حتى الآن!

فطمأنتها ابنتها وهي تربت على ذراعها :

– هوّني عليك يا أماه . كل شيء سيتم برضاك . تأكدي من أنني لن أخالف لك أمرًا ؛ فمنذ وفاة والدي رأيت فيك نعم الأب والأم .

وعاد الشاب يخاطب خالته من جديد :

– تأكدي أنني لم أسئ الظن بك لحظة واحدة برغم أنني غادرت بيتك يومذاك مطرودًا . . . بل لا أكتمك أنني قضيت ليلتي تلك دون أن يغمض لي جفن قلقًا عليك ، لأهرع إليك صباح اليوم التالي . وكما توقعت سرّتك رؤيتك إياي ، فطالعتني بعينين زائغتين جفت فيهما الدموع . وعدت تسألينني إن كنت واثقًا من أن ذلك الشخص لم يكن ابنك المفقود؟ كان كل ملمح فيك يتوسل إليّ أن أخدعك . . . أن أكذب

عليك ؛ كأن وجود ابنك حيًا مرتهن بما أنطق به أنا!

فعلقت الفتاة بطريقة لماحة :

– وقد عاقبتك أمي على بخلك بالنطق بتلك الكلمة : فمنذ ذلك اليوم أضحت مسألة مرافقتنا منوطة بك شريطة أن تتجنب الدنو منا!

– أنا على استعداد إلى أن أفديكما بروحي قرير العين لا محض مرافقتكما إلى بغداد أو المنذرية مع وصول كل مجموعة جديدة من الأسرى ؛ ذلك لأنني لا أقلّ عنكما لهفة في أن يتحقق المستحيل فيكون الغالي ضمن العائدين .

– بارك الله فيك يا ابن أختي . لقد جعلتني أسيرة وفائك فأمسيتُ ملزمة بمباركة زواجكما وقتما تشاء ولو اقتضاني الأمر دفع كفَّارة بسبب قسمي ذاك في لحظة انفعال وغضب .

وأثنى الركاب على موقفها ، في حين أكد العجوز أنها غير ملزمة بدفع كفَّارة ما دام حنثها بقسمها سيؤدي إلى زواج ذينك الشابين .

ووجدها رمزي فرصة سانحة ليطلق لعبثه العنان بعدما اضطر إلى اتخاذ دور المستمع وقتًا طويلاً ؛ فلكز (أبو خضر) في كتفه هاتفًا به :

– اصح يا عم اصح ودع صفقاتك جانبًا ؛ فقد توفرت أمامك الفرصة التي انتظرتها طويلاً .

فتساءل (أبو خضر) مرعوبًا :

– أية فرصة هي تلك التي كنت أنتظر؟

– فرصة لبس القميص والبنطلون ؛ إذ ثمة عرس سيحصل قريبًا تستطيع أنت والمدام (أم أولادك) حضوره كأفضل (كبل) : هي بروبها ذي التنين . . . وأنت ببنطلون (جينز) ممزق عند الركبة شريطة أن تكون قد حلقت شعرك (حفر)!

(٢)

عادتِ السيارة تضج بالضحكات بعدما هيمن عليها ذلك الجو المأتمي الذي أثارته رؤية تابوت الشهيد . وكان رمزي هو الذي يؤججها عادة : ما نكاد تهدأ حتى يغذيها بإحدى طرائفه ؛ فتنطلق الأفواه في زئير ضحك جماعي يضفي علينا جوًا من الألفة ، نبدو معه أشبه بأسرة واحدة ، لا مجموعة غرباء جمعتنا هذه السيارة بمحض مصادفة في رحلة وفّرت لنا فرصة تبادل كلام طويل كشفنا به عن نزعاتنا الدفينة : الطيبة منها والشريرة ، الساذجة والذكية ، حتى إذا ما وصلنا إلى بغيتنا تفرقنا ، ومضى كل واحد إلى حال سبيله .

أليستِ الحياة تمضي بالبشر على هذه الشاكلة : محض اجتماع وافتراق لا يتخلّف منهما في خاتمة المطاف غير ركام من كلام؟

أشعلتُ سيجارة جديدة ، مكتشفًا بقلق أن العلبة موشكة على النفاد . لكنني سرعان ما فكرت بأن ذلك ليس بكارثة ؛ ففضلاً عن قرب انتهاء الرحلة شعرت مع لذع الدخان الكاوي للساني ببوادر غثيان جاء بفعل الإفراط في التدخين وأنا جائع .

وكان الظلام قد خيّم ، وازدانت السماء بآلاف النجوم . ومرق شهاب فجأة قبل أن ينطفئ . وكان المصباحان الأماميان للسيارة يحاولان عبثًا

إضاءة معالم الطريق ، حيث سحب البق تكاد تحجب مجال الرؤية ، وثمة عينان زمرديتان ومضتا على غير توقع ، وثب على أثرهما أرنب مخترقًا بركة الضوء ، ليختفي في ظلام الصحراء .

فكّرتُ بأن السيارة في اجتيازها كل هذه المسافات تبدو وكأنها لا تبتعد بي عن بغداد ، المدينة التي قضيتُ فيها الشطر الأخير من عمري ، مقرّبة إياي من مدينة أخرى احتضنت طفولتي وشبابي وحسب ، بل إنها في واقع الحال تطوي بي الزمان لتنأى بي عن (أسماء) ، بعلاقتنا الملتبسة التي كان لابد لها من أن تصل يومًا ما إلى ختام ، عائدة بي إلى اللحظة التي تشظّتْ فيها حياتي فضيّعتُ رؤى إلى الأبد .

ترى أحدث ما حدث لأنني تخليت عنها في أكثر لحظاتها حاجة لي ، تاركًا إياها وحيدة عزلاء تجابه مصيرها دون معين؟

ألم تكن النتيجة ستختلف لو أنني تقبّلتُ تحمّل ما ترتب على ذلك اللقاء المشؤوم من تبعات؟

سؤلان ما انفكا يجابهانني على مدى كل هذه السنوات كضرب من تقريع ، لا مهرب لي منه إلا بطرح سؤال ثالث أجد في طرحه العزاء : وهل كان في وسعي إلا أن أتخذ ذلك الموقف في قضية على هذه الشاكلة لا أسهل فيها من نحر الطرف المدان؟

لقد جرى الأمر دون سابق تصميم : ففي حمى نقاشنا عن (أوديب ملكًا) كنا قد أغفلنا عن أن نترك بيننا تلك المسافة التي تضمن لنا سلامة نيتنا في جولتنا (البريئة) حين الإمساك بنا بالجرم المشهود ، حتى انني اصطدمت بأكثر من واحد من المارة قبل أن أفلح في الابتعاد عن رؤى استجابة لتحذيرها المفاجئ لي وقد أخذ الرعب منها كل مأخذ!

استندتُ إلى أحد أعمدة الشارع خافق القلب ، غير مدرك جلية ما

حصل . ومرت لحظات قبل أن أتنبه إلى رؤى على مبعدة أمتار مني وقد تجمّدتْ في موضعها ، وثمة شاب متين البنيان بالقميص والبنطال ، تعلو رأسه الضخم كتلة شعر منفوشة ، وقف في مواجهتها ، والمارة يتلاطمون من حولهما ، يكادون يصطدمون بهما لولا تنبههم في آخر لحظة .

كان يكلّمها بانفعال ، مديرًا عينيه حوله ، في حين كانت تجيبه هي على طريقتها ، متجنبة مبادلته النظر ، وقد ذهلتْ عن نفسها حتى ان حزام حقيبتها اليدوية انزلق عن كتفها دون أن تشعر ، بيد أن الشاب ، وبرغم عصبيته ، تلقف الحقيبة قبل ارتطامها بالأرض .

كنت أراقبهما من بعيد وأنا في ريب من أن يكون الشاب قد لمحنا معًا أم لا ، حتى إذا ما التفتتْ رؤى نحوي بوجه مثقل باللوعة أدركتُ مبلغ غبائي لوقوفي مستندًا بظهري إلى ذلك العامود ، مكتفيًا بالتفرج ببلاهة على ما يجري . كنت ملزمًا بالقيام بعمل ما . بيد أن احتمال كون ذلك الشاب شقيقها ـ فقد سمعتها تلمّح إلى ذلك لحظة تحذيرها لي ـ زاد من حيرتي وارتباكي ؛ إذ لا يعقل أن أكشف له عن طيب خاطر أنني كنت مع أخته في جولة غرامية!

وهكذا واصلتُ السير ، مختلطًا بالمارة ، شأن من لا علاقة له بما يحدث ، شاعرًا برؤى تتابعني بعينيها في انسلالي الخزي وقد آثرتُ النجاة بنفسي ، تاركًا إياها لمصيرها!

سرتُ بقدمين خدرتين لا تمتّان إلى جسدي بصلة ، أتطلع بعينين مسرنمتين إلى حشود الناس في رواحهم ومجيئهم هنا وهناك ، حيث واجهات المحلات الزجاجية تعرض بضائعها بسخاء ، واللافتات التي تعلوها قد بكّرتْ في الاشتعال والانطفاء ، متفننة في الإعلان عن شتى الصنوف والأنواع ، تصاحبها مقاطع من أغانٍ رائجة تكاد تصم الأسماع .

وتنبهتُ عرضًا إلى شرطي مرور لا يكف عن النفخ في صفارته ملوحًا بيديه إلى اليمين والشمال ، محاولاً إعادة انسيابية السير إلى شارع كان قد اختنق بأرتال السيارات .

كنتُ أمرّ بكل تلك الأشياء دون شعور أو إحساس مرور (كاميرا) سينمائية تمسح بعدستها كل ما يقع في مجال الرؤية في لقطة مزدوجة يرتسم في خلفيتها وجه رؤى مثقلاً باللوعة .

تسللتُ داخلاً البيت مثل لص محاذرًا أن يصدر عني أي صوت قد يثير الانتباه فأجابه بأسئلة واستفسارات لا قدرة لي على الإجابة عنها بحال من الأحوال . كنت أنشد الوصول إلى غرفتي ، واللجوء إلى فراشي بأقصى سرعة ممكنة ، حتى انني تعثّرتُ بأكثر من عائق قبل الدنو من سريري ، حيث تهالكتُ عليه مضطجعًا على بطني لأنام من فوري نومًا محمومًا حافلاً بكوابيس متلاحقة عصية على الفهم ، تتكرر فيها مشاهد معدودة تبدو وكأنها مجردة من أي مغزى!

فجأة جفلت مستيقظًا على لمسة لجبيني ، فجلستُ في السرير كالملدوغ ، مجيلاً حولي نظرات فزعة .

– ما خطبك؟ لم كنت تئن بهذا الشكل؟ أأنتَ مريض؟!

سألتني أمي وهي تتفرس بي بعينين قلقتين .

– لا شيء . . . محض ألم كنت أحس به في معدتي .

أجبتها مبادلاً إياها النظر ، ففتحت فمها محاولة أن تكلّمني من جديد . لكنها عادت وأطبقته ، وانسحبت من الغرفة مدركة دون شك حاجتي إلى الانفراد بنفسي .

كان الظلام قد ساد ، وثمة شريحة ضوء تتسلل من مصباح الصالة مخططة مساحة من أرض الغرفة قبل أن تتسلق الجدار المقابل .

كانت أول فكرة خامرتني هي ضرورة المرور ببيت رؤى متنسّمًا الأخبار ، لكنني سارعت إلى إبعاد هذه الفكرة ؛ ذلك لأنه يكفي شقيقها أن يلمحني ثانية لتتعزز شكوكه نحوي . . . ثم كيف يسعني ترك البيت؟ فقد تتصل رؤى بي هاتفيًا أثناء غيابي!

حسن . . . لم لا أتصل بها أنا؟

غادرتُ الغرفة إلى الصالة والتقطت سماعة الهاتف لأسارع إلى إطباقها من فوري ؛ كيف بي أن أتصل بها في مثل هذا الوقت العصيب الذي ستكون فيه كل رنّة من الهاتف مبعث ريبة في ذلك البيت المشؤوم؟!

ومرت بي أمي ، فسألتني إن كنت أرغب في تناول العشاء؟ وحين جاء جوابي سلبًا لحظتني بنظرة خاطفة وهي تنحني لتلتقط الصينية التي كان أبي قد خلفها وراءه ليعتصم بغرفته ، منصرفًا كعادته إلى التدخين ، وتعقبتها بعيني وهي تدخل المطبخ ، حيث ارتفع من هناك صوت انهمار الماء من الصنبور ، وضجة الأواني في ارتطام بعضها ببعض وقد انهمكتْ في غسلها .

من المؤكد أن رؤى لن تتناول عشاءها الليلة!

وضحكتُ لنفسي بمرارة ؛ بأي عشاء تفكر تلك المسكينة وهي نفسها قد تكون ذهبت طعمًا لسكاكين أشقائها؟

ليستْ بهم حاجة هذه المرة لاختلاق عذر ما لتصطفق على أثره الأبواب وتسيل الدماء وتهشّم الأذرع ؛ فها أنا أقدم لهم على طبق من ذهب ضحية مهيأة للاستسلام لطعناتهم صامتة!

التقطتُ سماعة الهاتف من جديد . كنت على استعداد للمجازفة بأي شيء لقاء سماع صوتها والاطمئنان إلى أنها لم تتعرض لمكروه .

أدرتُ القرص بسبابة راجفة ، لكنني قطعت الاتصال قبل اكتمال الرقم المطلوب ، بقيتُ لحظات واقفًا والسماعة في يدي ، وأنا عاجز عن حسم أمري : أأتصل بها أم لا؟ أيسوّغ لي قلقي عليها توريطها أكثر مما هي متورطة فيه؟

هكذا لبثت دقائق أعبث بالهاتف : أقطع الاتصال لحظات على أمل أن يرن الجهاز لأرفع السماعة على صوت رؤى ، حتى إذا ما لم تتحقق تلك الأمنية عاودتُ إدارة القرص لأصرف النظر عن إكمال الرقم المطلوب في آخر لحظة . . . كنتُ في حيرة من أمري وأنا موزّع بين توقي الشديد إلى سماع صوتها ، وخوفي من أن أسهم باتصالي بها في إحراجها .

في تلك اللحظة حانت مني التفاتة نحو غرفة أبي ، ففوجئت به يراقبني من فرجة الباب باستنكار . . . . فلم أشعر إلا وأنا أطبق السماعة بعنف . وغادرت البيت من فوري ، وكل عرق بي ينبض غضبًا واستنكارًا ؛ أيعقل أن يبالغ أبي في فرض سطوته إلى الحد الذي لا أستطيع معه الانفراد بالهاتف دقائق معدودة؟ تجولتُ في ظلام الأزقة وقتًا طويلاً ، متجنبًا الدنو من بيت رؤى مفضلاً مراقبته من بعيد . كنت أقبع في عتمة الزوايا منتظرًا انفتاح ذلك الباب ، بيدَ أن الدقائق كانت تتعاقب دون أن يحدث ذلك ، حتى انني حسبتُ البيت قد خلا من ساكنيه لولا خيوط الضوء المتسللة من خصاص النوافذ والشناشيل .

حينما أعيتني الحيلة جازفتُ بالتقدم من ذلك الباب مستثمرًا خلو الزقاق من المارة في مثل هذا الوقت من الليل . تنصّتُ لحظات خافق القلب حتى كدت ألصق أذني بالباب ، ولكن . . . . عبثًا ؛ إذ لم أسمع أي صوت . . . لا نأمة . . . لا حركة!

بدا الأمر مثيرًا للريبة ؛ ترى ما سر جنوحهم إلى الصمت في الوقت

الذي تهيأتْ لهم مثل هذه الفرصة للتنفيس عن نزعتهم الدفينة إلى العراك؟!

عدتُ إلى البيت لأرى أبي مرابطًا في الصالة قرب الهاتف، فلجأتُ إلى غرفتي.

صباح اليوم التالي بكّرتُ في الاستيقاظ، وسارعت إلى ارتداء ملابس الخروج، مزدردًا وجبة إفطاري على عجل ليس بسبب شعوري بالجوع بل إرضاءً لأمي؛ ذلك لأن كل ملمح فيها كان يوحي لي بأنها ستجعلني أتناول شيئًا ما ولو قسرًا!

تخطيتُ حقيبة السفر التي كانت أمي قد أعدّتها لي سلفًا، واتجهتُ نحو باب البيت، بيد أن صوت أمي جاءني من المطبخ وهي تسألني إن كنتُ سأسافر اليوم إلى بغداد؟ فأفرغتُ غيظي بـ (كلا) هائلة جعلتْ تمتمات أبي الساخطة تتعالى من خلف باب غرفته الموارب.

مررتُ بباب بيت رؤى، فرأيته كما توقعت مغلقًا، فاتخذت سبيلي تلقائيًا نحو مدرستها لأرابط في الشارع الذي بدأتِ الطالبات - بقمصانهن البيض وصداريهن الزرق - يتقاطرن عليه من مختلف الأزقة، داخلات المدرسة بخطى عجلى يحاولن أن يستبقن بها رنين الجرس الذي سرعان ما دوى طويلاً معلنًا بدء الدرس الأول دون أن يظهر لرؤى من أثر!

لقد صدق حدسي إذن؛ فها هم أشقاؤها يشرعون في انتقامهم الرهيب منها بمنعها من ارتياد المدرسة في مثل هذه الأسابيع الحافلة بالدروس الإضافية التي تسبق عادة امتحانات (البكلوريا) التي كانت رؤى تنتظرها على أحرّ من الجمر: تعدّ الأشهر والأسابيع والأيام التي تفصلها عنها؛ فقد أزف أخيرًا موعد تحقيق حلم حياتها الكبير بدخول الجامعة .. كلية الطب على وجه التحديد!!

عدتُ إلى البيت لأجابه ثانية بسؤال أمي عن سبب إرجاء سفري بعدما كنت قد حددتُ اليوم موعدًا له؟ فأجملتُ لها ردي مدعيًا أن الدوام في الكلية لا يكاد يكون منتظمًا في المدة التي تسبق الامتحانات النهائية ،لكنها لم تنهزم : فقد عادتْ تواصل انتقاداتها لي ، تاركة إياي واقفًا وسط الصالة لتقوم بجولة حولي ، ماسحة الطاولات ، ومعدلة الأرائك ، مستثمرة غياب أبي ؛ ذلك لأنها كانت ملزمة بتجنيد نشاطها كله لتلبية أوامره طوال وجوده في البيت .

زعمتْ أمي أن أبي سألها صباح اليوم أكثر من مرة عن سبب (تضييعي) لوقتي في الخروج من البيت والعودة إليه مرارًا دون غاية أو هدف؟

واستدركتْ قائلة إن (وضعي) لم يعد يعجبه ولاسيما خلال اليومين الأخيرين ؛ إذ ما يكاد يفتح باب غرفته مصادفة حتى يراني مرابطًا قرب جهاز الهاتف أحوم حوله ، أو أعبث بقرص أرقامه لأسارع إلى إطباق السماعة مع ارتفاع أدنى صوت!

– ومتى أعجبه وضعي يا أمي؟ فعهدي به أنه غير راضٍ حتى عن الطريقة التي أتنفس بها الهواء!

أجبتها وقد ضقتُ ذرعًا بتلك الانتقادات . إلا أنها عجمت عودي بأن خاطبتني مقرّعة :

– لا يصح التحدث عن أبيك بهذا الشكل!

– لم يبق من شكل للحديث عنه ؛ فقد انقطع الحوار بيننا منذ دهر!

– لا تنس أنه طعن في السن ؛ فصعب التفاهم معه في بعض الأمور .

فأجبتها وأنا أجيل بنظراتي على الحيطان البيض العاطلة عن أية زينة

خلا ساعة جدارية ضخمة كفّ بندولها عن التأرجح فتُركتْ معلقة في موضعها نهبًا للغبار والنسيان :

– وأنا أيضًا كبرت . يفترض به تذكر ذلك . لم أعد ذلك الطفل الذي تقتصر مهمته على التربع بين يديه في غرفته ، ومراقبته وهو يفسخ بنادقه ويزيّتها ، ساردًا على سمعه حكاية كل واحدة منها!

راقبتها في تحركها بين أثاث الصالة وقد تزودت بخرقة ، باحثة منقبة عما تخلف من تراب عقب جولة تنظيفها السابقة . لم أجد لدي الرغبة في الإفصاح عن مشاعري تجاه أبي خوفًا من أن تسيء فهمي . كيف لي أن أبين لها أنه يفترض بالعلاقة التي تربط الأب بابنه أن تتخطى تلك الكلمات المقتضبة التي نضطر إلى تبادلها كلما جمعتنا المصادفة في موضع ما من البيت ، والتي لا تتخطى تحية الصباح أو المساء؟

كيف يسعني مكاشفتها بأنني اللحظة أحوج ما أكون إلى إنسان لأخبره بما يثقل وجداني من هم؟

– قل لي يا بني : أثمة أمر ما تود أن تفضي به إليّ؟

فوجئتُ بها تسألني وهي لا تزال تواصل تنقلها بين الأرائك والطاولات ، حتى إذا ما وجدتني لا أحير جوابًا عادتْ تسألني وقد اقتربت مني ، وثمة محارة ضخمة تستخدم كمنفضة للسجائر مستقرة بين كفيها :

– أهناك فتاة تحاول سلبك مني؟

وحين وجدتني أصرّ على تحفظي وصمتي واصلتْ كلامها ، وهي تدقق في مسح عشرات الثنايا التي تكتنف تلك المحارة ، مستدرجة إياي للإفضاء لها بأخفى أسراري ؛ ذلك لأنها تكاد تكون الكائن الوحيد الذي لا أخجل من أن أبدي أمامه ضعفي وانكساري وخذلان الآخرين لي :

– لا تحسب أن مثل هذه الأمور تخفى على أم ؛ فكلما رأيتك تنتفض

قافزًا مع كل رنة هاتف لتغادر بعدها البيت بكامل زينتك أدركتُ أن هناك من أخذ ينافسني عليك!

وعادتْ تسألني مبتسمة :

- اخبرني : مَنْ هي؟

أجبتها محاولاً الإفلات منها :

- إنها . . . فتاة!

فصاحتْ ضاحكة :

- من المؤكد أنها فتاة!

وسألتني جادة هذه المرة :

- أهي من بنات الجيران؟

- كلا . . . . فبيتها يقع على بعد بضعة أزقة .

- وهل هي جميلة؟

- يعني!

أجبتها شاعرًا بها تضيّق الخناق من حولي ، فعلقتْ وهي تعيد المحارة إلى موضعها :

- كانت أمنيتي أن أختار لك زوجتك بنفسي .

- إنها فتاة ممتازة ، عانت الكثير في الحياة ؛ فقد فجعت بفقد أمها وهي لا تزال طفلة ، فابتليت بأسرة يتحكم بها ذكور شرسون يكبرونها في السن .

واستدركتُ وقد خطرت لي فكرة مفاجئة :

- ثمة شيء ما فيها يذكرني بك يا أماه . . . أما ما هو ذلك الشيء؟ فهذا ما لم أتوصل إلى تشخيصه بعد . . . .

- أدعو ربي أن يتجسد ذلك الشيء ، عقب زواجكما ، على شكل

رعايتك وإتحافك بالهدايا وعمل أفضل الأكلات لك!

قاطعتني ملمّحة بمكر وقد استغرقت في ضحكة لم أملك إلا مشاركتها فيها برغم قلقي واضطرابي . وأضافتْ وهي تربت على وجنتي بحنان :

– دعها تبتلى بك ؛ فقد آن لإنسان ما أن ينقذني منك ومن تعلقك بي ، أنت الطفل الذي يأبى النضج ؛ فما أخشاه هو أن أموت قبل أن تكون قد تزوجت ؛ وبذلك تضيع من بعدي!

فخاطبتها بجزع حقيقي :

– لا ترددي مثل هذا الكلام يا أماه ؛ ذلك لأنني لا أتخيل معنى لحياتي دونك .

لكنها استرسلتْ في كلامها كأنها لم تسمعني ، متأملة إياي بنظرة شاردة :

– كنت لا تجد للنوم سبيلاً إلا حين تضع يدك على صدري ، فكان أبوك المسكين يصيح كل ليلة وقد فقد صوابه : يا ناس . . . يا عالم أيوجد صبي يشارك والديه في فراش نومهما برغم أن موعد تسجيله في المدرسة قد اقترب؟ وكان يعمل جاهدًا على انتشالك من إفسادي إياك ـ إذ كان يعدّ تدليلك ضربًا من الإفساد! ـ فيدعوك إلى غرفته ، ويحاول أن يبذر فيك حب البنادق والتعلق بها ، مزينًا لك الأمر بأن يروي لك أخبار تلك الأحداث التي لا تخرج عن نطاق العنف . . . ولكن عبثًا ؛ فقد بقيتَ ابن أمك!

واحتوتْ وجهي بين كفيها الدافئتين . وتمتمت وقد اخضلت عيناها بالدموع :

– وها أنا ذي أفاجأ بك وقد كبرت في غفلة مني . . . بل عشقت

أيضًا! . . . يا إلهي! . . . من يصدق ذلك؟ فلا أزال أراك ذلك الصبي الذي كان يعمد إلى التحصّن بعتمة الزوايا حينما كان المرحوم جدك يزورنا فجرًا ، لتفاجئه لحظة انحنائه راكنًا على الأرض خرجه المتخم بالفواكه وأقراص الجبن وقربة لبن . . . .

في تلك اللحظة فوجئنا بأبي يدخل البيت محملاً بأكياس الخضر والفاكهة واللحم . حدجنا بنظرة استياء وهو يضع حمله على الأرض . واتخذ سبيله نحو غرفته مرددًا كلامًا بدا من الواضح أنه يستهدف به سمعي :

– عهدي بمن ينوي السفر إلى بغداد أن يبكر في الرحيل ؛ فالكراج أوشك أن يخلو من السيارات!

وعلى غير توقع جفلتُ على رنين الهاتف الذي كنت قد نسيتُ وجوده!

إنها رؤى!!

فكرتُ بذلك وأنا أتعقب بعيني أبي وهو يدلف إلى غرفته ، واثقًا من استحالة أن يفوته حرف مما سأنطق به في الهاتف ، بيد أن قلقي على رؤى كان أكبر من أي حذر ؛ فقد انتظرت هذا النداء على مدى أربع وعشرين ساعة كادت تصيبني بالجنون!

بادلتُ أمي نظرة خاطفة وأنا ألتقط السماعة . كانت رؤى كما توقعت على الطرف الآخر من الخط . سألتها ، وقد أنستني لهفتي اتخاذ أي حيطة أو حذر ، إن كانت بخير؟ فأجابتني بصوت منطفئ :

– إن كان الخير يعني تنفس الهواء تستطيع الاطمئنان على ذلك!

– وشقيقك؟ وأشقاؤك الآخرون؟ ألم يؤذوك؟

– تستطيع الاطمئنان ثانية إلى أنهم لم ينالوا جسدي بأذى!

أدهشتني طريقتها في الكلام . . . لا بل أزعجتني ؛ فقد كانت محمّلة بضرب من تقريع!

– اسمعي . . . صارحيني : أيعقل أنهم لم يمسوك بسوء وهم الذين كان أحدهم يكسر ذراع الآخر لأتفه سبب؟

أجابتني وقد ازدادتْ نبرة التقريع في صوتها :

– لكنهم هذه المرة ليسوا أحرارًا ليطلقوا لغضبهم العنان ؛ لأنهم بذلك يفضحون أنفسهم ويوصمون جباههم بالعار ؛ فثمة طرف غريب خارج نطاق الأسرة له دور في ما حصل!

– أتعنين أنهم الآن على معرفة بعلاقتنا؟

ولمحتُ ممتنًا أمي تنسحب بأكياس اللحم والخضر إلى المطبخ في الوقت المناسب ، في حين تردد صوت رؤى في السماعة بنبرة تقريع لا لبس فيها :

– اطمئن . . . لم يشخّصك أخي في تلك اللحظة . . . كل ما هنالك هو أنه أدرك أنني كنت في رفقة أحد . . . أما من هو ذلك (الأحد)؟ فتأكد من أنه لن يعرفه مني أنا!

صحتُ بها وقد فاض بي الكيل :

– ألا تلاحظين مبلغ إمعانك في تحميلي الذنب؟ لقد حدث ما حدث بفعل مصادفة لا دخل لأحدنا فيها ، فكفاك لومًا وتقريعًا!

فأجابتني بدورها صارخة :

– وأنت لا تتوهم أن ما حدث يمكن تلافيه بالتجاهل أو الركون إلى الصمت!

– ما قصدك بهذا الكلام؟

– قصدي واضح ؛ فأنت وحدك القادر على علاج ما حصل!

وسكتتْ وقد خنقتها العبرات ، لتردف بعد لحظات بصوت متهدج :

– إنهم يدفعونني إلى أن أنهي حياتي بنفسي ، ملمّحين لي بأن لمسة واحدة لسلك كهربائي كفيلة بوضع حد لعذابي ؛ إذ إنهم قرروا أن يسلبوني حياتي بالتقسيط ، بادئين حربهم من نقطة ضعفي التي يعرفونها جيدًا وهي تعلّقي بالمدرسة : فبين ساعة وأخرى يحرقون تحت بصري أحد كتبي . . . الفيزياء أولاً فالكيمياء . . . مرجئين إحراق كتاب الرياضيات إلى مساء اليوم . . .

قاطعتها متوسلاً :

– رؤى . . . اسمعي يا رؤى . . .

لكنها لم تسمعني ؛ فقد استرسلت في كلامها ناشجة :

– لقد أقفلوا عليّ باب البيت حين مغادرتهم إلى أشغالهم ، مؤكدين أنهم سيدأبون على إتباع ذلك كل صباح حتى يمرغوا أنفي بالتراب ؛ فقد منحتْ لهم أخيرًا فرصة إذلالي والانتقام مني ذلك لأن أكثرهم ذكاءً لم يتخط مرحلة السادس الابتدائي . . .

– اهدأي يا رؤى . . . وخبريني كيف لي أنا معالجة الأمر؟

أجابتني وقد سيطرتْ على نفسها :

– اسمع . . . أنا لا أغتنم ما حدث لأقسرك على الإقدام على ما كان يفترض بك الإقدام عليه تلقائيًا .

– لا أزال غير مدرك قصدك .

فصاحت صافعة سمعي :

– اخطبني . . . أتسمع؟ دع أهلك يتقدموا لخطبتي ليس حرصًا مني على الزواج ، بل سعيًا للنجاة بنفسي!

لحظتها آمنتُ بأنها لا تزال أسيرة تأثّرها بالأفلام الهندية!

- أخطبك؟ وظروفي أنا؟ أنسيت أنني عند تخرجي هذه السنة ملزم بالخدمة العسكرية؟ وقد أُنقل إلى إحدى جبهات القتال ؛ فهذه الحرب الطويلة مع إيران تتطلب المزيد من الجنود .

ولبثتُ أصغي لحظات في انتظار سماع ردها ، بيد أن صمتها طال حتى حسبتُ أن الاتصال قد انقطع ، لكنني سمعتها تتكلم في آخر الأمر بصوت بارد يبعث على القشعريرة :

- أعرني سمعك جيدًا . أنا أدرك تمامًا صعوبة وضعك . لكنني برغم ذلك أكرر عليك آخر مرة أنه لا سبيل لي للنجاة إلا بأن تخطبني . . . . محض خطبة شكلية أنت في حلٍّ من المضي بها لتتوجها بالزواج ؛ ذلك لأنني سأعذرك لو فسختها لاحقًا . . . كل ما أطلبه منك الآن هو أن تعينني على أن أخرج من هذه المحنة مرفوعة الرأس . . . لن أسمح لهم بالاستمرار في تعذيبي وإذلالي ليقتلوني ببطء ؛ فأنا بدوري لا أقل عنهم عنادًا وتصميمًا . . . سأمنحك فرصة للبرهنة على شهامتك حتى يوم غد ، وإلا سأقتل نفسي!

وقطعت الاتصال!

تقتل نفسها؟ . . . من المؤكد أنها ستفعل ذلك ؛ فأنا خير مَنْ يعلم أية مجنونة ابتليتُ بها!

هرعت مندفعًا نحو بيت رؤى وأنا في خشية من أن تنفّذ وعيدها من فورها ، وحين طالعني الباب مغلقًا داخلني شيء من الاطمئنان ، فتجولتُ على غير هدى محاولاً الوقوع على الحل المناسب .

بدا أمر خطبتها ضربًا من المحال ؛ إذ يكفي أن أفاتح أبي بذلك ليقلب البيت رأسًا على عقب!

حسن . . . لم لا أستعين بأمي؟ فبرغم يقيني من أنها ستستهجن بدورها

الفكرة ، لكنني أعرفها ضعيفة بإزاء نزواتي لا تستطيع أن ترد لي طلبًا .

عدتُ إلى البيت ، واتجهت من فوري إلى المطبخ مختلسًا النظر نحو باب غرفة أبي الموارب متوقعًا أن يستدعيني إليه في أية لحظة ؛ فمن المؤكد أنه سمع كل ما نطقت به في الهاتف ، وأنه الآن يقلّب الأمر على مختلف وجوهه قبل أن يطلق لثورته العنان .

دلفتُ إلى المطبخ حيث الجو الراكد المثقل بمختلف الروائح يكاد يكتم على المرء الأنفاس . رمقتني أمي بنظرة خاطفة انصرفتْ بعدها إلى إعداد وجبة الغداء .

كانت تتحرك هنا وهناك بخفة المدرك بدقائق ما يحيط به : تتلمس يدها سبيلها نحو الحاجة المطلوبة لتلتقطها على الفور دون الاستعانة بعينيها ، في حين لا مفر لي أنا من تحطيم أكثر من صحن أو قدح حينما أبحث عن مملحة لا أهتدي إليها في آخر الأمر!

كان المطبخ هو المكان الوحيد الذي يأنف أبي من إقحام نفسه فيه ، متنازلاً عنه عن طيب خاطر لأمي التي عرفتْ كيف تضفي على كل جزء منه لمسة من لمساتها : فالبّراد والمجمدة يقومان في جانب ، وبمحاذاتهما الغسالة الكهربائية . وفي مواجهتهما في الجانب الآخر يتربع الموقد الغازي ذو المشاعل الخمسة ، تحاذيه مغسلة تصب فيها ثلاثة صنابير . وبالقرب منها ثمة نافذة تطل على فسحة غرسها أبي ببضع فسائل . وبموازاة أحد الجدران انتصب (كاونتران) حديديان متخمان بشتى المواد الغذائية . وفوقهما ثبتت خزانة بامتداد الجدار ذات واجهة زجاجية رتبتْ في داخلها الصحون الخزفية والزجاجية والبلاستيكية ، فضلاً عن أطقم الأقداح وما أشبه .

قالتْ وقد رفعت غطاء قدر تغلي فوق الموقد ، مبعدة وجهها عن

سحابة البخار المتصاعدة ، محركة في جوفها المغرف :

– لم تخبرني أنك في ورطة!

– لقد ضبطنا أحد أشقائها نتمشى معًا في الشارع .

– أحسب أنكما لستما أول محبين يمران بهذه المحنة .

قلت لها وأنا أتعقبها بنظراتي وقد انصرفت هذه المرة إلى تقطيع اللحم :

– لا يبعد أن يقتلوها بسبب ما حصل!

– لو قتل الناس بناتهم لمثل هذه الأمور لما لمحت فتاة تسرح في الشوارع على غير هدى!

– لكن أشقاءها غاية في الشراسة ؛ أنهم أشبه بوحوش مفترسة .

– تأكد يا بني أن الوحوش المفترسة تنقلب إلى حملان في مثل هذه المواقف ؛ فما من إنسان عاقل يفضح نفسه لمحض حصول هذا الأمر .

غاظني هدوؤها وعدم أخذها الأمر على محمل الجد .

– إن لم يقتلوها هم فهي الحرية بقتل نفسها!

– وهل تحسب الناس يقتلون أنفسهم بهذه البساطة؟

سألتني وهي ماضية في تقطيع اللحم ، فدخلتُ في صميم الموضوع بشكل مباشر :

– اسمعي يا أمي : سأعول عليك في حل هذه المشكلة ؛ فأنت ملاذي الوحيد .

– وكيف يكون هذا الحل؟

– طلبتْ مني أن أخطبها . . .

واستدركتُ وقد رأيت عينيها تتسعان دهشة واستنكارًا :

– أنها محض خطبة شكلية تعينها على تجاوز محنتها وإكمال

دراستها ؛ فامتحاناتها غدت على الأبواب .

سألتني وقد توقفت سكينها عن أداء مهمتها في تقطيع اللحم :

– وهل تظن أن أباك سيوافق بيسر على خطوبة على هذه الشاكلة؟

أصاب سؤالها مني مقتلاً ، فلم أملك إلا اللجوء إلى الطريقة الوحيدة التي سبق لي تجربتها بنجاح ؛ أجبتها مصطنعًا الغضب وأنا أتهيأ للانصراف :

– إن لم يوافق وحصل مكروه لرؤى تأكدي من أنني . . . سأقتل نفسي!

وكان آخر ما سمعته منها وأنا أتخذ طريقي نحو الباب الخارجي :

– اسمع . . . تريث . . . لا تكن مجنونًا ؛ فمثل هذه الأمور لا تُحلّ بهذه الطريقة!

كان عليّ الابتعاد عن البيت طوال ساعات النهار ، تاركًا أمي المسكينة أمام الأمر الواقع ؛ لا مفر لها من المجازفة في مفاتحة أبي في أمر مرفوض سلفًا ، مقنعًا بذلك نفسي بأنني أديت واجبي ؛ فقد بلغ تبكيت ضميري حدًا أنني وجدتني ملزمًا بالإقدام على تلك الخطوة برغم يقيني من أنه ما من نتيجة ترجى من وراء الإقدام عليها!

كانت بي حاجة شديدة إلى الانفراد بنفسي ؛ فقررتُ التوجه إلى قرية جدي المهجورة بعدما ضقت ذرعًا بالمدينة ؛ فقد بالغت في ذرع أزقتها وشوارعها ، مثيرًا ريبة الناس ؛ فثمة أكثر من صاحب حانوت أو محل حلاقة أو بقالة أخذ يتعقبني بنظرات شك وريبة كلما مررت به ، متوجسًا من أنني بصدد الإقدام على عمل طائش ليس في الحسبان!

اتجهت نحو الدرابين التي تخترق البساتين لأمرّ بالطرق نفسها التي قد تكون أمي سلكتها عصر ذلك اليوم البعيد حين جاءها المخاض بي .

أقُدِّر عليَّ منذ الأزل أن أجتاز درب الآلام هذا كلما جابهتني محنة؟

كانت أشجار النخيل المثقلة بعذوق لم تنضج بعد تعلو رأسي من كل جانب، تعول الريح في مرورها بها كلما هبت، حاملة لسمعي سجع القمري الهاجع بين الجريد، وتغريد البلابل المتنقلة من غصن لآخر، وضجة العصافير في حمى اعتراكها وسط الأشجار، تلك الضجة التي تتبدد على حين غرة لحظة يتردد نعيق يسبق ظهور غراب يحلق في الفضاء باحثًا عن فريسته.

وانفتحت البساتين على منظر الحقول المحصودة، وطالعني الجبل عند حافة الأفق وقد كسته الشمس الجانحة غربًا بلون برتقالي يناقض بشكل صارخ زرقة السماء.

ها هي ذي حكمة العمر يحملها لي هذا الدرب على شكل بستان غرسه جدي بالفسائل ليلاً فحباه الله بقبس من نوره شحذ خيالي في طفولتي، وجبل جعله الإنسان مكمنًا للشر شغلني في مراهقتي، وقلب نبض بالحب عمّر لي شبابي.

ولاحتْ لي بوابة بيت جدي من بعيد عالية تطال الأشجار القريبة منها في ارتفاعها، بيد أن السور المحيط بها من الجانبين كان قد تهدّم في أكثر من موضع، فتخطيت إحدى الثلمات. وكان الخراب في الداخل قد ازداد استفحالاً. وزحفت النباتات الوحشية مغطية كل شبر.

بحثتُ عن موضع يصلح للجلوس بعدما أضناني التعب، فعثرت على سرج مهمل وسط الأعشاب. كان واحدًا من تلك السروج الجلدية المتقنة التي اعتاد جدي شراءها من أحد صناعها الماهرين الذين كانوا مقصد كل من له شغف بالخيول.

كان ملطخًا بالتراب وذرق الطيور، ففرشتُ فوقه منديلي قبل أن

أجلس عليه . وأمامي ، على الحائط المقابل فوق باب إحدى الحجرات ، طالعني رأس وعل محنّط من تلك الرؤوس التي كان جدي يحصل عليها من حملات صيده وقنصه ، فيحرص على حشوها تبنًا ليزيّن بها جدران بيته الواسع .

بقيتُ أتأمل ذلك الرأس وقتًا طويلاً ، مستعيدًا مجمل ذكرياتي عن جدي : زياراته الموسمية إلى بيتنا محمَّلاً بفاكهة لا تزال عزيزة المنال ، واصطحابه إياي إلى بيته أول مرة ، وارتيادي الوادي الكبير ، وتعلقي بالخيول وشغفي بها ، ومطاردة اللصوص ، وتسليمه لي عنان أول حصان ، ونظرة الإعجاب التي ارتسمتْ في عينيه الغائرتين الخاطتين بالتجاعيد يوم سلّمته تلك الأوراق التي لخّصتُ بها قصة بستانه . . .

تُرى ألم يجنِ القدر علينا نحن الاثنين؟ ألم يكن يفترض بجدي أن يكون أبي وأنا ابنه؟!

صحوتُ من ذكرياتي على شعور مفاجئ بأنني مُراقَب ؛ وحين التفتُّ يمينًا لمحتُ حيوانًا ظننته في بادئ الأمر كلبًا قبل أن أتبين أنه ابن آوى!

كان يراقبني من وراء ثلمة جدار بفضول غريب وقد نصب أذنيه . لكنه سارع بالهرب لحظة شعر بأنني تنبهتُ إليه .

أية سخرية في أن تقتحم بنات آوى مَنَعة هذا البيت الذي كان محميًا من أعتى اللصوص بسطوة اسم صاحبه؟!

نهضتُ ملتقطًا المنديل نافضًا إياه قبل أن أعيده إلى جيبي نافضًا بذلك يدي عن كل ما يمت إلى ذلك الماضي العزيز بصلة . وتخطيت الثلمة نفسها إلى الخارج وقد عقدت العزم على عدم المرور بذلك الموضع إلى الأبد!

كانت الشمس قد شرعتْ تغطس وسط بساتين النخيل ، وكان عليَّ

العودة إلى المدينة ، وثمة صوت داخلي يوسوس لي أن الكارثة تقترب حثيثًا!

استقبلتني أمي عند باب البيت ، طالبة مني همسًا السفر من فوري إلى بغداد قبل أن تتعقد الأمور أكثر ، مفصحة بذلك عن فشل مسعاها مع أبي!

ما كدتُ أدخل البيت حتى استقبلني أبي متهكمًا :

– حمدًا لله لأنك شرّفتَ البيت أخيرًا يا أستاذ!

كان يقف بباب غرفته بدشداشة وطاقية بيضاوين ، يصطنع الابتسام في الوقت الذي كان يغلي فيه غضبًا .

هكذا عرفته منذ صغري : يشبع ضحيته تهكمًا وسخرية قبل أن يجهز عليها!

– اعذرني لأني لم أستقبلك مزغردًا ؛ فقد فات أمك أن تلقنني هذا الأمر!

بادلتُ أمي النظر ، فطالعتني بعينين متوسلتين تحثانني على التجمّل بالصبر .

– كما أعترف بأنني لا أجيد هز وسطي ودق الإصبعتين ؛ والملوم في ذلك أبي وأمي ؛ إذ لم يمنحاني فرصة تعلم مثل هذه الأمور عند الغجر!

كنت ملزمًا بالوقوف ، لا يحق لي التحرك من موضعي باختياري ، تاركًا أبي ينفّس عن غضبه على هواه .

– كان عليّ أن أتعلّم مثل هذه الأمور لأستقبلك بالحفاوة اللازمة وأنت مقبل على الزواج!

بدا لي في تلك اللحظة أشبه بشبح أبيض يتحكم في مصيري!

– ولكن فاتك يا أستاذ أن تبلغني بابنة الحسب والنسب التي سترفع

بزواجك بها رأسك وسط أهلك وعشيرتك : وهل ضمنتَ قبولها ، أم يتحتم علينا الاستعانة بخبرة معارفنا ليقنعوها بذلك؟

عدتُ أرمق أمي ثانية بنظرة استغاثة وقد ازداد وجيب قلبي في صدري . وراقبتها وهي تستجمع شجاعتها لتجازف في التدخّل قائلة :

– دع الولد يخرج بحقيبته إلى الكراج عساه أن يعثر على سيارة مغادرة إلى بغداد ؛ فامتحاناته على الأبواب .

– ومتى كانت الامتحانات تشغله ما دام الزواج قد غدا شغله الشاغل؟

انفجر أبي صارخًا وقد اندفع إلى وسط الصالة ليقف في مواجهتي ، لا يفصله عني غير أمي التي خاطبته هذه المرة بجفاء :

– على رسلك يا رجل . . . لقد أخبرتك بالظرف الطارئ الذي اضطره إلى الإقدام على هذه الخطوة ، إنه ابنك على كل حال ، وأنت ملزم بأن تعينه في معالجة هذه المشكلة . . .

– اخرسي يا امرأة . . . إياك وتلقيني الطريقة التي أتصرف بها في أي ظرف من الظروف . . . أتسمعين؟ لن أسمح لك بالتواطؤ معه في ما يناقض مصلحته . . . أتحسبين أن دوري انتهى لأن ثمة ديكًا فتيًا أخذ يصفق بجناحيه مطلقًا لصياحه العنان في هذا البيت؟

واستدار نحوي بكامل جسده مفرغًا فيّ ثورته :

– كما لن أسمح لك أنت الآخر بإقحام امرأتي في شؤونك القذرة مرة أخرى . . . أتسمع؟ لن أسمح لك بذلك أبدًا!

يا إلهي! . . . كأن امرأته ليستْ أمي!!

– عشنا ورأينا . . . فتاة تتقدم إلى شاب خاطبة! . . . أليس هذا الأمر من دلائل قرب قيام الساعة؟

وتحوّل مخاطبًا أمي وقد تحكّم به مزاجه الساخر من جديد :

– لو كانت الأمور تجري على هذا المنوال في زمننا لكان من المؤكد أن تسبقك فتاة أخرى في التقدم طالبة يدي ، وبذلك كنت أتجنب الارتباط بواحدة مثلك ديدنها إفساد ابنها!

صورة طريفة خففتْ من انفعالي بعض الشيء ؛ إذ إنني لم أستطع منع نفسي عن تخيّل أبي وقد تحصّن بغرفته حياءً وخفرًا لأن أمي تقدّمتْ إليه خاطبة!

– تنبه إلى نفسك يا ابن الزنى! . . . لا يوجد مسوّغ للابتسام . . . حري بك أن تبكي خجلاً من غفلتك . . . أجل ، لو لم تكن مغفلاً أكانت تلك الفتاة تجرؤ على أن تتصل بك هاتفيًا لتأمرك بأن تقسر أهلك على التقدم إليها خاطبًا؟!

ألقى أبي سؤاله الطويل ذاك دون أن ينتظر مني جوابًا بطبيعة الحال ؛ فما كان يهمه في تلك اللحظة هو أنه نفّس عن ثورته ، ولم يبق أمامه سوى الانسحاب وقد تحولتْ نقمته نحو جهاز الهاتف هذه المرة :

– ولكن منْ الملوم في ذلك؟ من المؤكد أنه أنا ؛ فمنذ اليوم الذي سمحتُ فيه لهذا الجهاز الشيطاني في اقتحام بيتي أسهمتَ في إفساد أسرتي شئتُ أم أبيت!

تعقبته بعيني وهو يدخل غرفته وقد عقدتُ العزم على تحديه هذه المرة ، لم يعد الأمر مرتهنًا بالصراع بيني وبينه ؛ فثمة طرف ثالث قد يتقرر مصيره بكلمة مني .

سأبرهن لرؤى على شهامتي ولو اقتضاني الأمر التقدم إليها خاطبًا على الرغم من أبي!

قضيتُ تلك الليلة أتقلب على سريري في انتظار أن تسنح لي فرصة

الاتصال بها هاتفيًا لأشدَّ من عزمها .

كنت أدرك صعوبة نجاحي في هذا الأمر ، واحتمال أن أفاجأ بأحد أشقائها على الطرف الآخر من الخط ، لكنني لم أكن أملك وسيلة أخرى لأبث فيها الأمل ، خوفًا من أن تقدم على عمل طائش كما أنذرتني .

فجرًا تسللت إلى الصالة المظلمة بقدمين حافيتين ، متلمسًا ما حولي بحذر وصولاً إلى الهاتف . ما كدت أدير أول رقم حتى فوجئتُ بالقرص لا يطاوع سبابتي كأن ثمة عائقًا يمنعه عن الدوران!

حين تلمست الجهاز وقعت أصابعي على ذلك القفل الصغير الذي كان أبي يدأب على تثبيت القرص به قبل مغادرته البيت!

هجستُ بأبي يضحك منتصرًا ، ناعيًا عليّ غفلتي وبلادتي!

– ولكنني لن أنهزم هذه المرة يا أبي!

همستُ في الظلام وأنا أعود مخذولاً إلى غرفتي لأضطجع على سريري ، مكررًا على نفسي ضرورة الاستيقاظ مبكرًا لأسارع في المرور بأقرب سوق لأستعين بأول هاتف أصادفه في أحد الحوانيت في إجراء ذلك الاتصال .

بيد أنني لم أصحَ إلا ضحى ، معوّضًا ما عانيته من أرق واضطراب على امتداد الليلة الماضية . وكان من المؤكد أنني لشدة تعبي كنت سأستمر في نومي حتى الظهيرة لولا أنني جفلتُ على لغط غريب بدد نعاسي نهائيًا ؛ فقد تبين لي أن مصدره أبي وأمي وهما يخوضان غمار مشادة مكتومة!

كانت أول مرة أسمع فيها أبي يحرص على ألا يرفع صوته ، وهو الذي كان من مألوف عادته أن يتناهى صراخه لسابع جار!

ما كدتُ أغادر غرفتي حتى فوجئتُ بالاثنين ينسلان مبتعدين عني :

فقد دلف أبي إلى غرفته مطبقًا الباب وراءه بكل رقة وهدوء ، في حين اتجهتْ أمي نحو مطبخها متجنبة مبادلتي النظر!

ومن خلال باب البيت المفتوح لاحظتُ حركة غير طبيعية تجتاح الزقاق ؛ فثمة أكثر من واحد تحته يهرول في اتجاه ما ، حتى انني اضطررت إلى إيقاف صبي لأسأله عن الأمر ، فأجابني لاهثًا :

- رؤى . . . فتاة اسمها رؤى يقع بيتها على بُعد بضعة أزقة ، يقال إنها أحرقت نفسها!!

(٣)

وأخيرًا ، ها هو الابن الضال يوشك أن يلقي بعصا الترحال عند مشارف مدينته!

سحبتُ نفسًا عميقًا من سيجارتي جلب الدوار إلى رأسي ، متأملاً بعينين مندائين بالدموع مدينتي الغارقة في الظلام ، وسيارتنا تقترب منها حثيثًا .

في الماضي كانت أضواء مصابيحها أول ما يلفت النظر من بعد عشرات الكيلومترات : كانت تتلألأ في ظلام الليل على شكل خط نور يؤطر الأفق الشرقي ، سرعان ما كان يتناثر على هيئة عناقيد ضوئية كانت تنفرط بدورها لحظة دخولنا المدينة ، فإذا بها محض مصابيح تضيء الشوارع والبيوت .

عند نقطة السيطرة ، حيث وقفتِ السيارة ، طالبنا الجندي بهوياتنا وهو يتنقل بوجهه الفتي بين نوافذ السيارة ، وثمة بطارية صغيرة في يده ، تنبض بضوء ساطع كلما أشعلها ، متفحصًا بها وجوه الركاب .

لم يكد يلقي نظرة على ما قدمته له حتى أعاده لي قائلاً إنه ليس بهوية . وسلط ضوء بطاريته على وجهي ، متفحصًا ملامحي بريبة .

ليس هوية؟ ماذا يكون إذن؟

وأملتُ ذلك المستطيل الكارتوني الصغير نحو ضوء بطارية الجندي ، مدققًا فيه النظر ، فإذا به بطاقة طبيبي النفسي الذي اعتدتُ المرور بعيادته في منطقة (البتاويين) من حين إلى آخر!

اعتذرتُ للجندي لما حصل من التباس ، ناعيًا في سري غفلتي وشرودي ؛ فلحظة تحسست جيوبي في الدائرة ، وأنا أكلّم أسماء ، تجنبًا لنسيان شيء ما قد يعرقل افتقاده عليّ سفرتي كالنقود والهوية ، أوهمني ملمس هذه البطاقة المهملة في أحد جيوبي بأنها هوية!

- في هذه الحالة كيف لي أن أعرف منْ تكون؟

سألني الجندي بحيرة ، فأجبته مبتسمًا مبعدًا عيني عن ضوء بطاريته الساطع :

- إنسان!!

وأكملتُ في سري : إنسان يمشي على أربع في الصباح ، وعلى اثنتين في الظهيرة ، وعلى ثلاث في المساء!

- إنسان؟ ما هذا؟ ألغز من الألغاز؟!

سألني الجندي مبادلاً إياي الابتسام ، فأجبته وقد تحكّم بي المرح :

- تستطيع أن تسميه كذلك!

- في هذه الحالة احتفظ به لنفسك ؛ إذ يبدو أنك حلاّل أحاج وألغاز!

علّق الجندي وقد انتقل بضوء بطاريته إلى بقية النوافذ ، متفحصًا هويات الركاب الآخرين ، موضحًا كالمعتذر أنه لم تكن من ضرورة لإيقاف سيارتنا لولا ما حدث اليوم ، والذي بسببه أخذت عشرات السيارات تتقاطر على المدينة متجهة نحو المستشفى المركزي الذي كاد يضيق بأعداد الجرحى!

وعلى الفور تصاعدت أصوات الركاب متسائلين عن حقيقة ما

حصل ، فعلق الجندي ، مواصلاً تفحّص الهويات :

- عجبًا! . . . ألم تعرفوا بعد بما حصل؟ لقد صدر تصريح الناطق العسكري بذلك .

فأناب السائق عن الجميع بالإجابة :

- لا ، لم نسمعه ؛ فمذياع سيارتي عاطل .

فأجمل الجندي ما حصل ، قائلاً إن الطائرات الأمريكية قصفت المدينة على دفعتين : ضربت في الأولى محطة الكهرباء ، متسببة في استشهاد وجرح الكثيرين ؛ إذ هناك مقهى يقع قرب المحطة ، وأغارت بعد أقل من ساعة لتضرب خطوط الاتصال هذه المرة!

يا للهول! . . . الآن اكتشفتُ سر ذلك النداء الهاتفي المبتور ؛ فأبي اعتاد الجلوس في ذلك المقهى في صحبة منْ تبقى من أصدقاء طفولته!

وجارتِ السيارة داخلة بنا المدينة ، تصحبنا دعوات الجندي بألا يعكّر سلامة عودتنا مكروه . وارتفع اللغط ثانية ، وثمة منْ يقترح على السائق الإسراع بإيصالنا إلى المستشفى المركزي ، في حين فضّل آخرون النزول في الكراج ليتخذ كل واحد منا السبيل الذي يرتأيه . وكان لكلام رمزي - المدعم بتأييد الممرض - الدور الحاسم في ترجيح كفة الرأي الأول ؛ فقد أكد أنه على صلة بمعارف له في المستشفى في وسعه الاستعانة بهم للحصول على جرد بأسماء الشهداء والمصابين .

كانت البيوت القائمة على جانبي الشارع الذي تجتازه السيارة غارقة في الظلام ، وثمة دكاكين ومطاعم ومقاهٍ متناثرة على مسافات متباعدة ، يبدو روادها ، في أضواء الفوانيس النفطية الشحيحة ، أشبه بالأشباح . وبرز بناء مركز الاتصالات وقد أصابته القذائف إصابة مباشرة ، فتهدمت واجهته . وسقط ضوء المصباحين الأماميين للسيارة على الركام المتشابك

في الداخل ، فظهر باب وقد ارتكز على قائمته بشكل مائل . وعلى الرصيف كانت ثمة شجرة هرمة تحولت إلى هيكل متفحم .

أوقف السائق سيارته استجابة لطلب راكب سرعان ما تبين أنه التاجر الذي ترجل مغادرًا السيارة ، مصطحبًا معه (أبو خضر) ليختفي به في الظلام!

ـ عليه الآن أن يتشبث بغطائه جيدًا قبل أن يمد رجليه من تحته ؛ ذلك لأن صاحبه سيسلبه إياه!

علّق رمزي شامتًا وقد واصلتِ السيارة سيرها هذه المرة وسط مهرجان أضواء حيث بضعة محلات للكماليات كانت تفرط في الإعلان عن بضائعها مستعينة دون شك بمولدة كهربائية .

صاح السائق مفرغًا ما تراكم في صدره من غيظ طوال ساعات الرحلة :

– ذلك هو دأب هذا التاجر اللعين ؛ فما من مرة أُشيع فيها أن إحدى المدن العراقية قد نُكبت بكارثة إلا ورأيته يحوم في (كراج النهضة) بحثًا عن سيارة توصله إلى هناك ، حيث ينجز صفقاته التجارية بأبخس الأثمان!

– أعوذ بالله!

تمتم الرجل العجوز مستنكرًا ، في حين انبرى رمزي هاتفًا بحرقة :

– لقد سلبه ثرائه بسعر التراب ؛ فمنذ ساعة وهو يفاوضه على السعر المناسب ، مستعينًا بحاسبته اللعينة!

تساءل المرمض صارفًا بأسنانه :

– ألا يستحق مسخ على هذه الشاكلة الموت عوضًا عن هؤلاء الناس الأبرياء الذي تودي بهم القذائف غدرًا؟

فأجابه الشاب ضاحكًا :

– لعله رشا الموت بنقوده!!

فانبرت المرأة الكهلة من أقصى السيارة ، مرددة مثلاً شعبيًا :

– جدّ المدبّر يأكله البطران!

هكذا واصل الركاب الكلام ، دون أن أملك القدرة على مشاركتهم فيه ؛ فثمة شعور بالضيق كان يتفاقم لديّ مع كل نفس أعبّه من سيجارتي ، تحوّل في النهاية إلى ضرب من مرض ؛ فقد اضطرب نبضي ، وبرد جسمي برغم أن جبيني كان ينضح عرقًا . وأخذت أتلوى على مقعدي شاعرًا بصعوبة في التنفس!

– أأنت على ما يرام؟

سألني السائق ، رامقًا إياي بنظرة قلقة قبل أن يضيف :

– لا شك أن ما تحس به يعود لإفراطك في التدخين . . . ولكن . . هوّن عليك . . . سنصل إلى المستشفى خلال لحظات .

وقذفتُ بسيجارتي من النافذة ، تاركًا الهواء البارد يتخلل شعري المندى بالعرق ، حامدًا للسائق حرصه على الإسراع بسيارته ليقف بها عند بوابة المستشفى الذي كان البناء الوحيد المضاء ، وثمة سيارة إسعاف واقفة لصق الرصيف .

كان جمع غفير من الناس ، رجال ونساء وأطفال ، قد تجمهروا في ذلك الموضع بإزاء حاجز معدني وقف خلفه أحد موظفي المستشفى وبرفقته جندي من الانضباط العسكري ، وهما يحاولان تنظيم أعداد الداخلين .

ما كدتُ أفتح باب السيارة مجرجرًا جسدي الخدر بصعوبة وأنا أحاول الترّجل حتى شعرت بساقيّ تخذلانني ، وكان صوت رمزي آخر ما طرق سمعي وهو يهيب بالقريبين منه إسنادي لحظة هويتُ ، شاعرًا بجبيني يرتطم بالرصيف قبل أن يغشى الظلام عينيِ!

انتبهتُ من إغفاءتي على كف تربتُ على خدي بإلحاح ، وصوت أنثوي مألوف يناديني باسمي ، طالبًا مني أن أصحو!

هل أنا مضطجع على سريري في غرفتي في بيتنا القديم ، وأمي تبذل جهدها ـ كما كان يحصل أحيانًا ـ محاولة إيقاظي؟

فتحتُ عينيَّ بحذر على ضوء مصباح مثبَّت بالسقف الأبيض الخفيض ، وثمة وجه أعرفه جيدًا بعينين مسحوبتين نحو الصدغين ، ينحني عليَّ من الجانب الأيمن!

كان وجه فتاة ترتدي ملابس بيضًا ، وثمة عقد ـ أهو عقد من زهور القداح؟ ـ يتدلى من عنقها!

– رؤى؟!

همستُ بصوت ذاوٍ غير مصدِّق نفسي ، متوقعًا أن أصحو في أية لحظة من هذا الحلم الجميل .

– بل الدكتورة رؤى!

جاءني صوت أنثوي آخر عن شمالي مصححًا كلامي .

ما الذي يحصل؟ أأنا في حلم؟

وقرَّبتْ رؤى وجهها مني أكثر حتى شعرتُ بعطرها يملأ عليَّ أنفي ، فتبين لي أن ما ظننته عقدًا لم يكن غير سماعة طبية تتدلى على صدرها!

– سلامات . . . سلامات ، يبدو أن ما حدث كان بسبب انخفاض في الضغط كاد يودي بك ؛ فقد ارتطم جبينك بالرصيف!

طمأنتني رؤى دون أن تكفَّ عن الابتسام ، فتلمستُ بيدي اليمنى ـ بعدما منعتني المرأة الأخرى عن استعمال يدي الثانية ـ جبيني ، فوقعت أناملي على قطعة ضماد لاصق!

– أين أنا؟

تساءلتُ وقد تذكرتُ لحظة خذلتني ساقاي حين فتحت باب السيارة ، فأجابتني المرأة عن شمالي :

- أنت في مستشفى المدينة المركزي .

وعلى الفور خطر أبي في ذهني .

لعله جريح راقد في المستشفى نفسه!

وحين أخبرتُ رؤى بذلك أثقلتْ غمامة حزن مفاجئ وجهها ، فتوجستُ مما كنت أخشى حصوله طوال ساعات الرحلة ، بيد أن شفتيها المكتنزتين سرعان ما انفرجتا عن ابتسامة ، أعقبتها بقولها :

- ما يهمنا اللحظة هو الاطمئنان على وضعك الصحي .

وأضافت محرّكة سبابتها أمام وجهي بحركة وعيد :

- أرجئ دلالك إلى وقت آخر ؛ فالمستشفى يغصّ بعشرات الجرحى الذين قد يسلم بعضهم الروح في أية لحظة!

ودوّى اسمها في مكبر الصوت مصداقًا لكلامها . كانوا يدعونها للإسراع في الذهاب إلى إحدى الردهات ، فمنحتني ابتسامة اعتذار وهي تغادرني بخطى خفيفة ، وأذيال صدريتها البيضاء تتطاير من خلفها .

يا إلهي! . . مَن كان يصدّق أن رؤى ستذلل كل العقبات التي تعترض سبيلها لتحقق حلم حياتها بأن تغدو طبيبة؟!

حاولتُ الجلوس . لكن يد المرأة الحازمة على شمالي ممرّتني على السرير الذي تبيّن لي لحظتئذ أنه ليس سوى نقالة بعجلات .

- اهدأ . . دع المغذّي يتسرب إلى وريدك بسلام ؛ إذ يبدو أنك لم تتناول لقمة واحدة!

كانت ممرضة زنجية ذات جمال أخّاذ ، بعينين سوداوين كبيرتين تميلان قليلاً إلى الجحوظ ، وشفتين مفرطتين في الامتلاء ، تقف بالقرب من

حامل معدني تدلتْ منه قنينة مغذٍ غرز طرف أنبوبها المطاطي الدقيق في ساعدي الأيسر وقد ثبّت بضماد لاصق .

– أأنتَ على معرفة بها؟

سألتني الممرضة غامزة إياي بإحدى عينيها ، فسألتها بدوري ، وقد أخذتني على حين غرة :

– منْ؟

– الدكتورة رؤى!

رمقتها بضيق ، فسارعت تضيف مستبقة ما قد يثير سؤالها لديّ من شكوك :

– إنها من خيرة طبيبات المستشفى ، استطاعت بجدها وإخلاصها أن ترسخ لنفسها سمعة جعلتها مقصد غالبية المرضى .

وسكتتْ لحظات في انتظار سماع رأيي . وحينما بقيتُ أتأملها صامتًا أردفتْ مناورة وقد غيّرت (تكتيكها) :

– تصور! . . . طبيبة بجمالها وقد تخطت الثلاثين دون زواج! . . . ألا يبعث ذلك على الدهشة؟ فالطبيبات الجميلات عملة نادرة ، يتزوجن في الغالب بزملاء لهن وهن لا يزلن طالبات في الكلية!

وخفّضتْ من صوتها وقد انحنت بوجهها عليّ كاشفة بابتسامة آسرة عن أسنان ناصعة البياض :

– لا أكتمك أن أكثر من طبيب وسّطني لطلب يدها ، وكان جوابها دائمًا الرفض . أما لماذا؟ فذلك ما بتّ أفهمه الآن! . . . لعلها مرتبطة بشخص ما! . . . فارس أحلام تنتظر أن يخطفها من وسط مرضاها ذات يوم!

وأضافتْ وقد ضيّقت عينيها بمكر :

- لعلك تمتُّ إليها بصلة قربى أو . . . اسمع . . . إن الأمر لا يعنيني أبدًا . . . كل ما هنالك هو أن مبالغتها في الاهتمام بك في مثل هذا الظرف الذي يغصّ فيه المستشفى بعشرات الجرحى أثار دهشة زملائها ، فراهنني أكثر من واحد على أنك لا يبعد أن تكون . . .

وعادتْ تخفض صوتها :

- لا تتصور مبلغ جزعها عليك! . . . في البداية ، حين قدمت بعض (المعينات) بك وقد أضجعنك على هذه النقالة ، نهرتهن بصرامة . قالت إن وضع المستشفى لا يسمح باستقبال الحالات العادية . والتفتت نحوي ، طالبة مني تطهير جرحك في الممر ، والعمل على إخراجك سريعًا من المستشفى ؛ فالردهات مشغولة بكاملها حتى اضطررنا إلى استثمار الممرات أيضًا .

وشفعتِ الممرضة كلامها بأن طوتْ الوسادة ودسّتها تحت رأسي ، متيحة لي فرصة أن أرى بعينيّ أكثر من سرير مريض قد احتل جانبًا من الممر ، حيث الأطباء والممرضون والممرضات كانوا بصدرياتهم البيض في حركة دائبة ، يدلفون إلى أبواب الردهات المفتوحة على الممر ويخرجون منها . ومرقت ممرضة راكضة ، ساحبة معها جهازًا بعجلات .

- أرأيت؟ برغم كل هذه الفوضى لم تكد تشخّصك حتى تجاوزتْ تعليماتها وقد غاض الدم عن وجهها . ونحّتني جانبًا لتسعفك بنفسها ، غير متنبهة إلى أنها قد أثارت ريبة الجميع!

- لمَ لا يكون سبب اهتمامها بي يعود لتدهور حالتي الصحية؟

سألتها مجاريًا إياها في لعبتها ؛ فهذه الأنثى الخطرة المجبولة على الكثير من الفضول سحرتني بمناوراتها المكشوفة ، وبطريقتها الجذابة في الكلام : تشرك قسمات وجهها كله ، وليس لسانها وحده ، في ما تريد

التعبير عنه!

- تدهور حالتك؟!

وأصدرتْ بفمها صوتًا مصوصًا ذكَّرني ببعض الممثلات المصريات حين يعبرن بأصوات مماثلة عن استهجانهن لما يسمعن .

- أي تدهور هو هذا الذي يقتضي كل هذا الاهتمام يا عم؟ إنه محض انخفاض في الضغط يصاب به عشرات من الناس المساكين الذين يهملون دون رعاية ؛ فما من طبيبة مثل صاحبتك تجند نفسها للاعتناء بهم!

وعادت تخفِّض وجهها حتى كادت تلامس وجهي لتفحمني بقولها :

- ثم كيف تسنى لها معرفة اسمك؟ لقد عرفتك ، فأخذت تناديك باسمك طالبة منك جزعة أن تصحو . وكان من المؤكد أن تتوج اهتمامها بك بتقبيلك لولا وجود الناس! . . . وأنت بدورك عرفتها ؛ لم تكد تنتبه من غشيتك حتى ناديتها باسمها : رؤى . . . ومن المؤكد أن الحياء وحده هو الذي منعك من أن تناديها بحبيبتي!

هكذا أزاحتْ تحفُّظها دفعة واحدة . ولم يبق أمامها ثمة ما يمنعها من أن تقسرني على الاعتراف لولا أن مقدم رؤى أنقذني منها ؛ إذ لم تكد تلمحها وقد انحنت فوقي ملتهمة إياي بعينيها حتى صاحتْ بها مقرِّعة :

- لا شك في أنه توفرتْ لك فرصة ذهبية للثرثرة لم تفوتيها كما هو دأبك دائمًا!

- إطلاقًا! . . . لم أفتح فمي بكلمة واحدة . . . اسأليه . . . أليس كذلك يا أستاذ؟

استشهدتِ المرضة بي بجرأة تُحسد عليها ، فلم أملك إلا الإغراق في الضحك ، فصرفتها رؤى لتسألني بصوت أرجفته الغيرة :

– يبدو أنك فتنتَ بها فانسجمت معها أسرع مما ينبغي في مستشفى يغصّ بحشود الجرحى!

فأجبتها وأنا أغالب ضحكي بصعوبة :

– إنهـا لا تخلـو مـن طرافـة . . . ما أشـد فضولهـا! . . . خبريني كـيـف تعـيـش أنثـى علـى شـاكلتـهـا في وسط يعج بهـذا الحشـد من الرجـال؟

– لا تخشَ عليها ؛ فهي ليست لقمة سائغة كما أوهمَتْك ، فجعلتْ لعابك يسيل!

وأضافت وهي تنقر بسبابتها على قنينة المغذي ، دافعة السائل على النزول :

– إنها تتلهى على مدار الساعة بمثل هذه الأمور : تسعى إلى عقد زيجات بين الأطباء والطبيبات ، أو بين الممرضين والممرضات ، أو بين المعينين والمعينات . . . بل بين المرضى والمريضات في بعض الأحيان!

– في ظنها أنك ترفضين الزواج لتعلّقك بشخص ما . . . فارس أحلام تترقبين ظهوره على صهوة حصان أبيض ليخطفك من وسط مرضاك!

أجابتني بغموض ، وقد ألمّتْ ابتسامة حزينة بفمها الشهي :

– إنها واهمة دون شك ؛ فزمن فرسان الأحلام انتهى بانتهاء شغفي بالأفلام الهندية!

علقتُ مناكدًا :

– لا يبدو عليك ذلك!

التفتت نحوي جافلة لتتطلع إليّ بثبات قبل أن تسألني مؤنبة ، وقد شرع وجهها في الاحمرار :

– وهل كان يبدو عليّ أنني مصممة على تنفيذ ما أقدمتُ عليه يوم

أنذرتك في آخر اتصال هاتفي أجريته معك؟

سؤال بدا أشبه بصفعة تلقيتها بين عيني جعلتني أترنح ، حتى انني تمسكت بحافة النقالة خوفًا من السقوط!

– ما أدراك بما يعتمل في داخلي من أحاسيس ومشاعر؟

عادت تسألني بصيغة اتهام ، فأجبتها مدافعًا عن نفسي :

– أنتِ من أوهمتني بذلك .

– كنت مخدوعة بك ، أحسبك مثلي : تتحدى الدنيا كلها دون أن تفرط بي!

وأضافت وقد أشاحت بوجهها عني :

– لكنك خذلتني وانتهى الأمر . لم تنجدني يوم كنتَ فيه الوحيد القادر على إنقاذي .

– ما أجرأكِ على إصدار أحكام قاطعة لا تقبل النقض ؛ فما أدراكِ بظروفي في ذلك اليوم؟

– يكفي المرء أن يشم رائحة شواء جسده ليستهين بكل تردد وحذر!

وأردفتْ وهي تريني أثر حرق طويل امتد على أحد ساعديها :

– انظر . . . ألا يسوّغ هذا لي الحق في أن أكون قاسية معك؟

أجبتها بحرقة وقد تجسّدتْ في ذهني دقائق ذلك اليوم المشؤوم الذي بدا أطول من دهر :

– لعلني أحمل في روحي مثلما تحملين على جسدك أكثر من أثر وندب .

هتفتْ وهي تضحك بازدراء :

– فات أوان مثل هذا الكلام ، فقد أخطأتَ في التوقيت ؛ لم تسمعني إياه في الوقت المناسب .

– أنت الملومة في ذلك ؛ فقد كنتِ في عجلة من أمرك . لم تطيقي الانتظار . كنت تنشدين الموت أكثر من الحياة .

أجابتني وقد تألقت عيناها على الفور بفيض دمع لم تستطع له منعًا :

– ما أدراك أنت بمعنى الانتظار؟ هل مررت بظرف أضحتْ فيه حياتك متوقفة على سماع كلمة واحدة من إنسان عزيز عليك؟ هل رابطت ساعات قرب جهاز الهاتف ، مبتهلاً إلى الله أن يجعله يرن . . . محض رنين لا أكثر؟ يومذاك كنت على استعداد للتضحية بنصف عمري لقاء سماع صوتك . كانت كلمة واحدة منك كفيلة بأن تجعلني أصمد . . . كلمة واحدة لا غير!!

أمسكتُ بكفها وأنا أرجوها أن تهدأ ، لكنها سحبتها بعنف مواصلة كلامها بصوت خفيض ، وهي تجيل بعينيها المغرورقتين بالدموع على امتداد الممر الصاخب :

– يا إلهي . . . ما كان أطول تلك الساعات التي انتظرت فيها سماع صوتك وما كان أبشعها! . . . كان ذلك ثاني يوم يقفل أشقائي فيه عليّ باب البيت مانعين إياي من الذهاب إلى المدرسة في أكثر أيام الدراسة حرجًا . بقيت ساعات حبيسة تلك الجدران التي شعرت بها تكاد تطبق عليّ أنفاسي ، أتجول كالمخبولة على غير هدى ، أُرجئ في كل لحظة إنهاء حياتي عسى أن يرن الهاتف ، فأرفع السماعة على صوتك . . . .

قاطعتها مبتهلاً :

– ثمة عارض قاهر منعني من إجراء ذلك الاتصال .

وعلى الفور أدركتُ استحالة تمكني من مصارحتها بإقفال أبي الهاتف ؛ فذلك العذر بدا مبعث ضحك في هذه اللحظة .

أجابتني وهي تبذل جهدها لكي لا تبكي بصوت مرتفع ، وقد بللت

الدموع وجنتيها :

ـ كان عليك المجازفة بدق باب البيت عليَّ دون تردد . . . بل كان عليك أن تحطِّمه . . .

وغصَّ صوتها بالبكاء ، فأخفتْ وجهها بين كفيها .

تلفتُّ حولي محرجًا وقد نكأتْ رؤى جروح الماضي كلها دفعة واحدة . كان يكفي تلك الممرضة الزنجية أن تلمحنا على هذه الحالة لتشبع فضولها حتى الثمالة!

توسَّلتُ إليها هامسًا ، وأنا ألملم ساقي من تحت الملاءة محاولاً الجلوس ، شاعرًا بوخز ألم في الموضع الذي استقر فيه أنبوب المغذي في ساعدي :

– اهدأي يا حبيبتي . . . تريثي في إصدار حكمك ؛ فأنا بدوري كنت مكبَّلاً بوضع محرج لا قدرة لي على إذلاله ، وسأحدثك عنه في ظرف أفضل ؛ فهذه التعاسة التي تحيط بنا ـ حيث المكان يعج بآلام الجرحى والمحتضرين ـ تغنينا عن أن نضيف إليها المزيد!

وأدى كلامي على الفور مفعوله ؛ فقد تنبهت رؤى إلى نفسها ، فغادرتني هامسة أنها ستعود خلال دقائق .

لعلني بكلامي ذاك ذكَّرتها بجريح أزف موعد مرورها به . أو لعلها ذهبت لتصلح من زينتها ؛ فذلك أول ما كانت أسماء ستلجأ إلى اتباعه لو أنها مرت بظرف مماثل .

وتنبهتُ إلى أنني فاتني التأكد من كون رؤى قد عمدت إلى تزيين وجهها أم لا ؛ فذلك الوجه المزدان بغمازتين ورصعة توسطت الذقن ، بقي كعهدي به يعكس ما يعتمل في داخله من مشاعر وأحاسيس . ولعل التغيير الوحيد الذي اعتوره هو أنه ازداد امتلاءً بعض الشيء ، وهناك

غضون دقيقة ـ أسفل العينين وعند زاويتي الشفتين ـ وجدت سبيلها إليه بغيابي ، غضون اختصرت سنوات المرارة والألم بدأت دون شك مع أول يوم اكتشفتْ فيه أنها فشلت في أن تضع حدًا لحياتها ؛ إذ إن حروقها كانت سطحية قابلة للشفاء .

يومذاك ، وأنا في بغداد ، كنت أحرص على تتبع أخبارها بعدما غدت العودة إلى مدينتي مستحيلة ؛ فكل ما كان يربطني بأبي قد انقطع على أثر اقتحامي عليه غرفته ـ لحظة سماعي بخبر انتحار رؤى ـ ومكاشفته بحقيقة مشاعري نحوه ، مفجرًا بذلك آخر ثورة غضب طردني أبي على أثرها لا من بيته وحسب بل من المدينة التي بقيتُ ، برغم بعدي عنها ، أتسقط أخبارها بالمرور بمقهى في (الشورجة) اعتاد أهل مدينتي الجلوس فيه . ويوم سمعت بنجاتها شعرتُ وكأن ثقلاً هائلاً قد انزاح عن صدري ؛ فكل يوم كنت أعيشه سالمًا معافى في أثناء رقودها في المستشفى كان يبدو لي كأنني أعيشه على حسابها هي المهددة بالموت في أية لحظة!

حينها كنت قد أنهيتُ دراستي الجامعية ، والتحقت بالخدمة العسكرية مراسلاً حربيًا ، مستثمرًا بذلك عملي السابق في إحدى الصحف ، إذ لم يبق قاطع من القواطع على امتداد حدودنا مع إيران لم أمر به ، حيث دويُ القذائف ، وأزيز الرصاص ، والأرض التي تنفجر على حين غرة تحت الأقدام على شكل ألغام ، ورائحة شواء اللحم البشري أحيت في ذاكرتي أحاديث أبي العابرة عن الخطر المحدق أبدًا بالإنسان ، والذي يقتضي منه التسلح بما يقيه شره ، وعن ضرورة البقاء حيًا برغم الحروب والمعارك والكوارث وبحار الدم والدموع التي قد تضطره الظروف إلى خوضها!

بدا الأمر وكأن اطمئناني على نجاتها أعفاني من مهمة متابعة ما

استجدت في حياتها من أمور بالغة الأهمية مثل إكمالها دراستها الثانوية بتفوق وتحقق حلم عمرها بقبولها في كلية الطب ، بل الغريب أنها لم تعد تخطر لي على بال برغم أنها قضت سنوات دراستها الجامعية في بغداد التي بقيت لي بمثابة (استراحة المحارب) أقضي فيها إجازاتي الدورية قبل تسريحي وعملي محررًا في تلك المجلة ، ولعلنا مررنا في الشوارع والأماكن نفسها دون أن ندري!

(٤)

رجعتْ رؤى بعد مرور دقائق بوجه ينطق بطابع مهني : وجه طبيبة لا شأن له بالعواطف الشخصية .

اعتذرتْ ـ وقد عادت تتهرب بعينيها مني شأنها معي حين كانت طالبة ـ لنسيانها نفسها . وأضافت ، وهي تتلمس بحركة تلقائية الضماد اللاصق على ساعدي لتتأكد من وجوده في موضعه الصحيح :

ـ . . . فالتعاسة التي تحيط بنا ـ كما قلتَ ـ تغنينا حقًا عن أن نضيف إليها المزيد . . . انظر!

ولفتت بإشارة من يدها انتباهي إلى جثمان مغطى بملاءة خرج به (معين) من إحدى الردهات فوق نقالة توجه بها مسرعًا على وقع صرير العجلات غير المزيّتة في اتجاه ما ، وثمة امرأة كهلة تجري في أعقابها وهي تدق على صدرها ، مكررة مع كل خطوة تخطوها :

– يمه . . . وليدي . . . يمه . . . وليدي . . .

علقت رؤى نادمة :

– كان يفترض بي أن أختم على مشاعري ليس بالشمع الأحمر ، بل بالرصاص ؛ فالدموع التي سفحتها بسخاء بسبب حدث قديم ذكّرتني بمريضة ، طفلة دون العاشرة مهددة بفقدان بصرها . . . أتدري لماذا؟

وتأملتني لحظات قبل أن تجيب :

– لعدم قدرتها على البكاء ؛ وذلك لطول ما عانى جسدها من جفاف شديد استحال عليها معه ذرف الدموع ، وكان لابد لنا من الحصول على (دموع صناعية) لإنقاذ عينيها من ذلك المصير . وهذا ما لن يحصل بسبب الحصار!

وتساءلتْ ثانية وقد عادت تتهرّب بعينيها مني :

– أية مفارقة في أن تغدو الدموع دواء ينقذ العينين من العمى ، والأنكى من ذلك استحالة الحصول عليها؟!

وعضت على شفتها مانعة نفسها من معاودة البكاء قبل أن تسترسل في كلامها :

– لقد وجد المراسلون الأجانب في تلك الطفلة مادة مثيرة لتحقيقاتهم الصحفية : فأوقفوني قرب سريرها ليصوروني معها بكاميراتهم السينمائية ، وأنا ما أكاد أشرع في الحديث عن حالتها حتى تنهمر دموعي ، فأحاول أن أنسحب من تحت الأضواء خجلى لولا أنهم يبدون استحسانهم لفوزهم بتلك اللقطات وكل واحد منهم يفرد إبهامه ويهزه عاليًا في الهواء ، مرددًا همسًا : (برافو!) مشجعين إياي على المضي في حديثي الباكي ، معترفين لي ، بعد انتهائهم من التصوير ، بأن كلامي لا يهمهم قدر اهتمامهم بدموعي ؛ ذلك لأنهم ، بعد إعادتهم مونتاج تلك اللقطات ، سيتركون لصوت المعلّق الذي سيرافق ذلك الشريط عند عرضه ، مهمة إبراز عمق المفارقة بين مريضة ستصاب بالعمى لعجزها عن البكاء وطبيبة تملك من الدموع خزينًا لا يعرف النضوب!

وسألتني بغتة بنبرة غير مصدقة :

– ألا يعدّ استغلال مآسي الناس على هذه الشاكلة ضربًا من جنون؟

أجبتها مهونًا ، محاولاً تهدئتها :

– وما الضير من ذلك ما دامت تلك اللقطات تسهم في فضح همجية الأمريكيين والإنكليز التي دونها بربرية المغول والتتار؟ ثم كيف السبيل إلى تغيير قناعات المشاهدين البعيدين عن مسرح الأحداث دون الاستعانة بمثل هذه الأمور؟

أجابتني منتفضة :

– محال! . . . ما من مأساة في وسعها أن تغيّر قناعاتهم ما دام هناك منْ يعرف كيف يوظّفها في الاتجاه الذي يخدم غرضًا معينًا ؛ أنسيتَ أفلام (الكاوبوي) الأمريكية التي أدمنت مشاهدتها عقب الأفلام الهندية؟ لقد كانوا يقلبون بها الحقائق إلى نقيضها ؛ فيظهرون الجنود الاتحاديين هم الضحايا الأبرياء : يتنقلون في معسكراتهم المسوّرة وسط صحراء مترامية الأطراف بقلق وترقب ، وثمة حارس وسيم أشقر بعينين زرقاوين بريئتين لا يترك موضعه في برج المراقبة ، يستل من حين لآخر صورة حبيبته أو طفله من أحد جيوبه ليتأملها بنظرات حانية قبل حلول اللحظة (الدرامية) المرتقبة حين يرشق سهم تشتعل النار فيه أحد أعمدة البرج الخشبية ، يسبق عادة تلك الصرخات المرعبة التي يعقبها ظهور الهنود الحمر البرابرة على صهوات الخيول يملأون خط الأفق ، وهدف كل واحد منهم اقتلاع فروة رأس أحد الجنود الأمريكيين!

وباغتتني بسؤال مباشر :

– خبِّرني : مَنْ منا ، نحن الاثنين ، كان يفكر يومذاك بأن الهندي صاحب الأرض الحقيقي هو الضحية؟ والأمريكي المحتل الغازي هو الجلاد؟

أجبتها ، وقد أحيتْ بسؤالها ذلك الماضي العزيز حين كنا ننطلق إلى

شوارع المدينة عقب خروجنا من إحدى دور السينما لنتحدث طويلاً وسط حشود السابلة عن الفلم الذي شاهدناه :

– ألا يكفيك أننا نفكر بذلك الآن؟

فصاحتْ وقد نسيتْ نفسها :

– ألابد أن تفنى أعمار الناس على تلك الوتيرة قبل أن تترسخ الحقائق؟ ثم ألا يكفي مرور هذه الأعوام الطوال على أغرب حصار في التاريخ ـ حصار وطن كامل بأرضه وسمائه ومدنه وقصباته وقراه وأنهاره وبساتينه ـ ألا يكفي لكشف الحقيقة؟

وقبل أن يتسنى لي الوقت اللازم للرد فوجئتُ برمزي ، الذي كان قد غاب عن ذهني منذ لحظة سقوطي من السيارة ، يقتحم انفرادي برؤى في ذلك الممر الغاص بالجرحى والأطباء و الممرضين والممرضات ليسألني مستنكرًا :

– أمن الضروري إبقاء هذا الأنبوب مغروزًا في وريدك؟

وأجاب عن سؤاله بنفسه وهو يدني كيسًا ورقيًا ممتلئًا من أنفي :

– من المؤكد لا . . . . فدواؤك لديّ أنا ؛ شم . . . شم رائحة الكباب . . . ألا تردّ الروح؟ هيا يا رؤى ؛ خلّصي الرجل من أنبوبك اللعين هذا ؛ فالكباب سيغنيه عن كل ما في مستشفاكم من قناني المغذي!

دهشتُ لمناداة رمزي رؤى باسمها ، مخاطبًا إياها دون كلفة . لكنه كعادته واصل مزاحه وقد تحكّم به مزاجه المرح ؛ فخاطبني غامزًا إياي بإحدى غمزاته الملازمة له :

– لا تصدّق هؤلاء الأطباء ، ولاسيما الطبيبات منهم ؛ فديدنهم إدخال الأشياء في أجساد الناس على شكل أقراص وأدوية وحقن

ومشارط و . . . . .

– كفى . . . لا تتخط الحدود بتهريجك!

فوجئتْ بـرؤى تردعه مصطنعة الغضب ، فاحتضنها دون تردد وقال بعدما قبلها في وجنتها :

– إلا الدكتورة رؤى ؛ إذ لابد لفرقة طوارئ كاملة الاستعداد حين تعمد إلى زرق حقنة خوفًا من أن يغمى عليها!

– انظر إليه! . . . لقد كبر ، ودب الصلع في رأسه دون أن يكفَّ عن تهريجه!

علّقتْ رؤى ضاحكة . واستدارت نحوي موضحة :

– يبدو أنه سبق لكما التعارف في السيارة ، ولم يبق إلا أن أوضح لك أنه شقيقي!

أهو الشقيق نفسه الذي ضبطنا معًا في ذلك اليوم المشؤوم؟

كانت نظرة واحدة ألقيتها على رمزي كافية لتؤكد لي صحة تخميني ؛ فالجرم المتماسك ، والزندان المفتولان ذكراني بذلك الشاب الذي اعترض سبيل رؤى يومذاك . والشيء الوحيد الذي تغيّر هو أن مرور الأعوام استبدل صلعة ساطعة بكتلة شعره الغابرة التي كانت تثقل رأسه!

بدا رمزي منصرفًا بكل همّه إلى كيس الكباب : ينقله من يد إلى يد ، مسبلاً جفنيه بانتشاء وهو يتشممه من حين لآخر ، حاثًا أخته ، بزمجرات يكشّر خلالها عن أسنانه دلالة استعداده لافتراسنا لشدة جوعه ، على الإسراع في تحريري من أنبوب المغذي ليقودني من يدي في اتجاه ما ، مهيبًا بمن يعترض سبيلنا على التنحي ؛ فثمة حالة طارئة تقتضي حقن المعدة . . .

ويميل على أذني ليكمل همسًا :

ـ . . . . . بالكباب!

وأنا أغالب ضحكي بصعوبة ، منبهًا إياه على أن الظروف المحيطة بنا لا تنسجم مع إظهار المرح والسرور ، فتكرر رؤى وهي تسابقنا للوصول إلى غرفتها :

– ما من ظرف يمنعه عن التهريج ؛ فاستشهاد أحد أشقائنا لم يمنعه عن ذلك .

وحدّثتني ، وهي تحاول مجاراتي في مشيي السريع ، كيف أنهم كانوا في طريقهم إلى النجف وقد شد تابوت ذلك الشقيق الشهيد على سقف سيارة ضمّتْ عددًا من الأقارب وقد انصرف كل واحد منهم إلى نفسه : يرتفع من حين لآخر صوت بكاء أحدهم . وكان السائق يسير بسيارته ببطء شديد كأنه خرج بهم في نزهة ، غير متنبه إلى رمزي وهو يرمقه بنظرات استياء كانت رؤى الوحيدة التي تتحسب لها ألف حساب ؛ فحين يفقد شقيقها السيطرة على نفسه ينطق لسانه بما لا شأن لرأسه به ، وذلك ما حصل ؛ فقد فوجئوا به يصيح بالسائق بغتة :

– أأنت عازم على ألا توصل أخي إلى مثواه الأخير إلا حين تقوم الساعة؟!

فانقلب بكاء بعض الركاب إلى ضحك!!

دخلنا غرفة واسعة ومضاءة بشكل جيد ، تفح منها رائحة مطهرات ، وثمة ستارة مفتوحة إلى النصف تظهر نقّالة خاصة بالكشف وبرادًا وقد شغلا نصف الغرفة ، في حين تقاسم النصف الأمامي خزانة حديدية ومكتب بأدراج يعلوه لوح زجاجي ، توزعت فوقه الأدوات والأجهزة الطبية المعهودة ، فضلاً عن جهاز هاتف ونسخ من مجلات ، وثمة شاشة مربعة مضاءة لفحص رقائق الأشعة معلقة على الحائط القريب . وكانت بضعة

كراسي بلاستيكية بيض تحيط بالمكتب الذي تصدّره كرسي دوار .

– تفضل . . . على الرحب والسعة!

قالها رمزي وهو يبعد الأجهزة والأدوات الطبية ليضع حمله وسط المكتب بعدما شق الكيس محيلاً إياه إلى مفرش يعلوه خليط من قطع الكباب والمخللات والخضر والطماطة والبصل وأرغفة الخبز . وبعدما جاء بدورق ماء وأقداح من البراد أنذرنا قائلاً :

– ليست بي حاجة إلى تنبيهكما على أنني لن ألح عليكما بالإسراع في تناول حصتيكما ؛ لأن فمي سيكون منشغلاً خلال لحظة بما هو أفضل من الكلام!

وألقم فمه ، وهو واقف ، بكل ما في وسعه أن يحشوه به ، منصرفًا إلى المضغ بهمة دون أن يكف عن تحريك حاجبيه دلالة استمتاعه .

وجلستْ رؤى خلف كرسيها الدوار واكتفتْ بأن تناولت بأطراف أناملها قطعة مخللات ، قائلة إنها لم تألف تناول غدائها في أثناء العمل .

وأردفت رامقة أخاها بنظرة اشمئزاز :

– ثم ألا يدعو هذا المنظر إلى الزهد في الطعام خوفًا من أن يحسب الإنسان ضمن قائمة الضواري؟

بيد أنني ، وعلى النقيض منها ، لم أدرك مبلغ جوعي إلا لحظة تناولتُ أول لقمة ، متذكرًا تلك البيضة البائسة التي سال صفارها من الصمونة وذهب هدرًا حين ازدردتها صباح هذا اليوم في شقتي في بغداد قبل ذهابي إلى الدائرة . وانهمك رمزي وقتًا طويلاً في التهام الطعام ، جارفًا كل ما أمامه كأنه مكلّف بألا يخلّف سوى بقع الدهن التي تشرّب بها الكيس الورقي ، حتى إذا ما اكتفى انقضّ على الدورق ليكترع كأسي ماء متعاقبتين تجشأ بعدها باستمتاع قبل أن يتهالك جالسًا على أقرب

كرسي ، معلنًا وهو يمسّد بطنه :

- لا يعوزني الآن سوى الشاي ؛ إذ لا معنى لأكل الكباب إن لم يختتم بالشاي .

وغادرتنا رؤى لتوصي لنا على الشاي ، مضيفة أنها ستتغيّب بعض الوقت لتمر على مرضاها .

لم يكد رمزي ينفرد بي حتى أجمل لي ما حصل بغيابي : فقد رافق مَنْ تبقى من ركاب السيارة ـ المرأة وابنتها وخطيبها فضلاً عن الرجل العجوز ـ في جولة طويلة شملت ردهات المستشفى ، انتهت بتعرفهم إلى جرحى يمتّون إلى بعضهم بصلات قربى ، جراح معظمهم ليست خطرة باستثناء واحد منهم كان قد أدخل جناح العناية المركزة ، فتذكّرتُ من فوري أبي الذي تهرّبتْ رؤى ـ كما خمّنتُ ـ من إعلامي بحقيقة ما جرى له ؛ فصحتُ بجزع ، شاعرًا في دخيلتي بالخجل من نفسي لانصرافي إلى التهام الطعام :

- وأبي؟ قد يكون من ضمن هؤلاء الجرحى . . . إن لم يكن . . .

لكنه قاطعني طالبًا مني ذكر اسمه ، مبديًا استعداده ليأتيني بالخبر اليقين خلال وقت قصير معتمدًا في ذلك على صاحبه الممرض ، حتى إذا ما جيء بالشاي انصرف إلى ارتشاف كوبه بلذّة لا توصف!

حين غادرني رمزي التقطت سماعة الهاتف مفكرًا بالاتصال بأسماء ؛ فقد كنت وعدتها بذلك قبل مغادرتي إياها ، لكنني سرعان ما تذكرت أن الطائرات قصفت مركز الاتصالات ؛ فأعدت السماعة إلى موضعها لألتقط هذه المرة مجلة انشغلتُ وقتًا طويلاً في تصفّحها ، حتى إذا ما عادت رؤى لتجلس على كرسيها سألتها وأنا أشير نحو باب الغرفة الموارب :

- أهو نفسه؟

فأومأتْ برأسها إيجابًا قبل أن تستدرك موضحة :

- لكنه تغيّر عما كان عليه في الماضي ، ولعله يدين بذلك التغيير لفرط شعوره بالإثم ؛ فقد بات من دأبه أن يكرر على سمعي ، كلما التقاني ، أنه كاد لغبائه أن يسبب في فقد أروع أخت له في الدنيا! . . . وقد زاد من تعلقه بي استشهاد واحد من أشقائنا في الحرب مع إيران ، وفقد آخر في (عاصفة الصحراء) ، وثمة ثالث هاجر خارج العراق طلبًا للرزق . إنه يقول إنني آخر من تبقّى له من الأسرة ؛ لذا يحرص على تفقّد أحوالي من حين لآخر يقضي عندي أيامًا تاركًا أسرته الكبيرة في بغداد .

علّقتُ بأسى :

- ولكنه تغيير حصل بعدما حطم حياتنا من حيث لا يدري!

- إنه لا يلام على موقفه ذاك ؛ فتلك هي الطريقة الوحيدة التي كان من المؤكد أن يتبعها أي شاب يضبط أخته في رفقة شاب غريب .

- أنلام نحن الاثنين إذن؟!

- ولا نحن ؛ فما حصل قد حصل بفعل مصادفة . . . لقد كان ضربًا من قدر لا يرد .

واستدركتْ مستبقة ردي :

- أتتذكر مسرحية (أوديب ملكًا)؟

- وكيف لي أن أنساها وقد كانت موضوع حديثنا في تلك اللحظة المشؤومة التي ضبطنا فيها شقيقك معًا؟

- بالمناسبة لا أزال أحتفظ بها مع آخر مجموعة كتب استعرتها منك .

واستطردتْ قائلة :

– لقد أعدتُ قراءة تلك المسرحية قبل أيام ومعها تذكرتُ إجابتك عن سر احتفاظ تلك المسرحية بحيويتها برغم تعاقب القرون ؛ فقد عزوتَ ذلك إلى أن (أوديب) يمثّل الإنسان ، وتراجيديته تمثل الوضع البشري ، ومصيره قد يصبح مصيرنا ؛ ذلك لأن أقدارنا تقررتْ سلفًا مثلما نطق العراف باللعنة على (أوديب) قبل أن يولد!

اعترضتُ مصححًا :

– تلك ليستْ أفكاري أنا ، بل إنها خلاصة أفكار عشرات الفلاسفة والشعراء والمحللين النفسيين عن تلك المسرحية على امتداد قرون .

وأضفتُ بشيء من مكر :

– ثم لا تنسي أن في وسع المرء تحدّي قدره ، بل تغييره بإرادته!

لكن رؤى استرسلتْ في كلامها متجاهلة مغزى كلامي :

– لحظة . . . دعني فقط أستحثّ ذاكرتي قبل أن يسبقني النسيان . . . حسن . . . أين وصلتُ في كلامي؟ . . . نعم . . . تذكّرتُ : يومذاك أضفتَ أن ثمة أمورًا أخرى تنطوي عليها تلك المسرحية تعزز من تفرّدها منها : افتقاد الإنسان الشديد للأمن ، وغفلته وعماه ، وبحثه الدائب عن العدالة . . .

– تلك أمور أزلية أبدية ، ستظل تجابه الإنسان ما بقي يعمر سطح هذا الكوكب التائه في الفضاء .

– تمامًا ، بيد أن (سوفكليس) عرف كيف يصوغ منها نصًا يجد المرء فيه نفسه في كل زمان ومكان ؛ إذ من منا ، نحن الاثنين ، كان يتوقع أن يحصل ما حصل يومذاك فتنقلب سعادتنا إلى تعاسة بطرفة عين؟!

فعلقتُ بدوري :

– بل لعل محنة الناس من حولنا ضرب مما جرى في تلك المسرحية ؛

فالحرب ـ مثل الوباء الذي تفشى في طيبة ـ جاثمة على الصدور ، تلتهم ضحاياها واحدًا إثر الآخر!

في تلك اللحظة انفتح باب الغرفة ليدلف رمزي داخلاً بهدوء لم يكن من طبعه .

لم تكد عيناي تلتقيان عينيه حتى أدركتُ ما حصل!

(٥)

حين دخلتُ البيت استقبلتني شقيقاتي الغارقات في ملابس الحداد بالبكاء . تزاحمن حولي ، وكل واحدة منهن تحاول أن تسبق الأخرى في معانقتي ، لافحات أذني بكلمات وجمل أفرغن بها شوقهن لي وأساهن لما حصل .

بدتْ أمي الوحيدة المسيطرة على نفسها ، يلوح لي وجهها ، وأنا أحتضن هذه وأقبل تلك ، مثالاً للرصانة والصبر ، حتى إذا ما حلّ دورها في العناق والتقبيل ـ مفعمة أنفي بأريجها العذب الذي افتقدته دهرًا ـ اختصرتْ سنوات البعد الطوال بسؤال بالغ الإيجاز :

– ها . . . رجعت؟!

وتأملتني عن قرب ، وكأنما لتتأكد من أن ابنها الوحيد عاد إليها في النهاية كاملاً غير منقوص ، لكن هدوءها الظاهري ذاك سرعان ما تلاشى لحظة تنبهتْ إلى الضماد اللاصق على جبيني ـ وكان قد غاب عن ذهني ـ فاتسعتْ عيناها هلعًا ، فقلتُ أطمئنها ، وأنا أسارع إلى انتزاعه ، مقتلعًا معه بضع شعيرات سببت لي من الألم أكثر من الجرح نفسه :

– لا تقلقي ؛ إنه محض جرح بسيط .

بدا وجهها المؤطر بسواد الفوطة التي تعلوها العصابة المعقودة عند

مستوى الحاجبين ، بالغ التعب ، اتخذتِ التجاعيد سبيلها إليه دون شفقة .

قادتني من يدي نحو إحدى أرائك الصالة محذرة إياي من التعثر بكتل وأشياء بدت مبعثرة بشكل عشوائي ، سرعان ما تبين لي أنهم أحفادها وحفيداتها وقد غلبهم النوم فتمددوا كيفما اتفق على البسط والسجادات ، حيث ضوء الفانوس المعلق تحت أحد المصابيح الكهربائية المطفأة كان لضآلته يسهم في تضليل القدم عوضاً عن إرشادها نحو السبيل الصحيح .

– عليك أن تتحمل الليلة ما قد يسببه لك هؤلاء الصغار من إزعاج ؛ فشقيقاتك سيبتن معي بعدما ذهب أزواجهن بأبيك إلى النجف .

وتربعتْ أمامي على حشية ، رافعة وجهها نحوي بهيئة ترقب وانتظار ، في حين اكتفت شقيقاتي بالجلوس على الأرائك دقائق أشبعن خلالها عيونهن مني ، مبادلات إياي الكلام المعهود الذي لا مفر من تبادله في مثل هذه الحالات قبل أن يفسحن لأمي مجال الانفراد بي ؛ فقد نهضتْ إحداهن قائلة إنها ستعد الشاي لي ، فتبعتها الأخريات صاحبات أو حاملات أطفالهن ـ وسط احتجاجاتهم الخدرة من أثر النعاس ـ إلى إحدى الغرف .

كان الظلام المهيمن يزيد البيت سعة ووحشة ، وثمة رنين قطرات راشحة من صنبور لم يحكم إغلاقه يتتابع بإيقاع رتيب يبعث على الجنون .

ـ لقد مروا به على بُعْد أمتار مني دون أن أدري . . . فتأملي يا أماه!

رمقتني بنظرة متسائلة ، فأردفتُ موضحًا :

– كنت أعلم بأنه جرى له أمر ما ؛ منذ اتصلتم بي هاتفيًا حدثني

قلبي بأن مكروهًا أصاب أبي ، أما أن يكون ذلك التابوت الملفوف بالعلم الذي مر بي فوق سيارة لحظة غروب الشمس هو جثمانه فذلك ما لم يخطر لي على بال!

وأخبرتها كيف أن رؤى حدّثتني بالأمور كلها : إصابته في المقهى بشظية في بطنه ، وحصول نزف داخلي شديد استحال معه نقله إلى بغداد ، وإلحاحه على ذكر اسمي في لحظاته الأخيرة قبل أن يسلم الروح .

فعلقت أمي قائلة :

- ليتك رأيته لحظة عرف أن الدكتورة رؤى هي نفسها التي وقف في طريق خطبتك إياها . . . لم ينطق بكلمة بطبيعة الحال ، بيد أن نظرة الألم التي ارتسمت في عينيه فاقت كل كلام!

وأضافتْ بعد لحظة صمت :

- لقد رعته رعاية الابنة لأبيها ؛ فعلى امتداد الساعات التي سبقت وفاته كانت تمر به بين دقيقة وأخرى لتحقنه ، برغم ندرة الأدوية ، بكل ما يسكن أوجاعه .

وتذكّرتُ دموع رؤى التي سبقتْ دموعي حين بلّغني رمزي بموت أبي ، واعتذارها لأنها لم تجرؤ على إخباري بنفسها لحرصها على ألا أسمع بذلك الخبر الفاجع منها برغم أنها كانت هي التي وقّعتْ شهادة وفاته!

- هيه . . . قسمة ونصيب يا ولدي!

عبارة بالغة القصر لخّصتْ أمي بها عذابات الماضي كلها ، لتثني بعدها إحدى ركبتيها عاقدة حولها زنديها ، مواصلة حديثها عما جرى طوال أعوام بعدي عن البيت .

كنا نتكلم بصوت خفيض ، وأعيننا ما تكاد تلتقي حتى تتجه نحو باب غرفة أبي الموارب ، متطلعة إليه بنظرات متهيبة ، كأننا نتوقع أن ينفتح

في أية لحظة ليرمقنا بواحدة من نظراته الصارمة . وكان البيت ، برغم غيابه الأبدي ، يرزح تحت وطأة تسلطه ؛ فأينما مددتُ بصري واجهني شيء ما من صنع يديه بدءًا بالباب الخارجي وانتهاءً بالأريكة التي كنت أجلس عليها ، وحتى هسيس الرياح ، وهي تمر بالنخلات القائمة في الفسحة الملحقة بالبيت ، ذكّرني بأنه هو الذي غرسها ، حاثًا إياي على رعايتها ، مرددًا على سمعي الحديث الشريف : «أكرموا عماتكم النخل» .

ومع رشفات الشاي الذي جاءت به أختي أصغيتُ طويلاً لأمي وهي تحدثني عن أيام أبي الأخيرة ، وكيف أنه تغيّر كثيرًا ، فتخلى عن تحفظه ، وأخذ ، على غير مألوف عادته ، يشاركها أحيانًا في جلسة الصالة عقب مجيئه من المقهى ليبثّها همومه ، فيسترخي على إحدى الأرائك ملتقطًا أنفاسه ؛ ذلك لأنه أمسى سريع التعب ، لا يكاد يقطع مسافة حتى يشرع في اللهاث برغم استعانته في مشيه بعصا .

– ها هو زوجك العجوز وقد غدا بثلاث سيقان!

هكذا كان يردد بأسى على مسمع من أمي وهو يدق بطرف عصاه على السجادة قبل أن يركنها جانبًا . وبعدما يسبل جفنيه بعض الوقت منصرفًا إلى استعادة أفكاره كان يفاجئها بابتسامة عريضة يسرد على أثرها الطرفة التي رواها له أحد أصدقائه العجائز ، أو كان على النقيض من ذلك : يقطب جبينه مبديًا استياءه من عصبية صديق آخر ، وكيف أنه حين ينفعل يفقد اتزانه ووقاره فيتصرف مثل طفل .

وكان يعلق بمرارة :

– إنه لا يكاد يزجي الساعتين اللتين نمضيهما معًا في المقهى دون منغصات ، فكيف حاله مع أسرته؟ ساعدها الله ، لاشك أنه يسومها العذاب على مدار الساعة!

وكان يباغت أمي بسؤال غير متوقع وقد فتح عينيه مراقبًا إياها بانتباه :

– ألم أكن أتصرف على هذا المنوال من قبل؟

ويكون جواب أمي عادة ابتسامة متسامحة ؛ فقد فاتها وقت العتاب كثيرًا . لكنه لم يكن يرحم نفسه ؛ يظل يداور ويناور ليعود إلى الأمر عينه مفضيًا إليها في النهاية بما يثقل على ضميره :

– لقد فرّطتُ بابني الوحيد ، تخلّيتُ عنه في أكثر أيامه حاجة إليّ!

وكان يتفرس فيها لحظات قبل أن يوجه إلى نفسه الطعنة النجلاء :

– لقد عقّني ابني كما سبق لي أن عققت أبي بدوري ، وبذلك اكتمل الانتقام الرباني ؛ فهو سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل!

لحظتها كان يتحامل على نفسه ، فينهض متأوهًا من آلام مفاصله ، ويلتقط عصاه ليستعين بها وهو يتخذ سبيله نحو غرفته ، مكررًا عبارته الأخيرة مع كل خطوة يخطوها .

وعقّبتْ أمي معلّقة على حديثها عن أبي :

– كان يبدو وكأنه يشعر بدنو أجله ، يحرص على التكفير عن كل إساءة صدرت منه بحقي في الماضي ؛ فيمعن في تدليل أحفادنا وحفيداتنا معوضًا بذلك إهماله لأمهاتهم حين كنّ بأعمارهم بسبب توقه إلى أن يرزق بذكر .

وأضافتْ وهي تمسح دموعها بطرف الفوطة :

– بيد أن همه الكبير كان يتمثّل بك أنت ؛ لا يدخر جهده باحثًا عن الوسيلة الكفيلة بإدخال السرور إلى نفسك . ويوم عاودته حماسته القديمة في ممارسة هوايته الأثيرة إلى نفسه لم يخطر لي أن لك علاقة بالأمر!

وحدثتني أمي كيف أن أبي رجع في أحد الأيام من المقهى ، وفي

أعقابه رجل محمّل بألواح وعوارض خشبية ، دخل بها وسط دهشتها إلى غرفته ، حيث استمر صرير المنشار ، وأصوات دق المسامير أيامًا متعاقبة انتهت بتجنيد أبي لأحفاده وحفيداته ليحملوا إلى غرفته كتبي التي كانت موزعة في شتى الغرف ، ليطلب من أمي ومن بناته اللائي صادف وجود بعضهن في البيت ذلك اليوم ، دخول غرفته ، حيث فوجئن به وقد انتهى من عمل خزانة بثلاث طبقات رتب فيها الكتب ، معلنًا بحماسة أن ذلك خير وسيلة لإدخال السرور إلى نفسي ؛ فقد أنقذ كتبي ، التي كان يدرك مقدار معزتي لها ، من التلف والتمزق .

– ستجد خزانة كتبك تلك قائمة في غرفته .

بذلك أنهتْ أمي كلامها ، وهي تستند إلى ما حولها من أشياء ، قبل أن تفلح في النهوض ، لتتحسس سبيلها في الظلام نحو إحدى الغرف لتعود بعد دقائق محمّلة بثوب أبيض ألقته على ركبتي قائلة :

– إنه نظيف . . . وهو يكاد يكون جديدًا ما ارتداه أبوك سوى مرتين أو ثلاث .

وتركتني وهي تغالب تثاؤباتها ، قائلة إنها ستهيئ لي سريري القديم في غرفتي لآخذ قسطًا من النوم ؛ إذ عليّ الاستيقاظ غدًا مبكرًا لإقامة مجلس الفاتحة في الجامع ، راجية إياي أن اعذرها لاضطرارها إلى اللجوء لفراشها ؛ فعليها بدورها الاستيقاظ مع أذان الفجر لتهيئة البيت لاستقبال حشود النساء المعزيات والمشاركات في الندب .

عاودتُ الجلوس على الأريكة بعدما استبدلت ملابسي ، شاعرًا بملمس ثوب أبي على جسدي غريبًا ، ينبعثُ منه مزيج من رائحة الصابون والعرق والتبغ . وجلت بنظراتي حولي بحثًا عن سيجارة ؛ فقد فاجأتني رغبة لا تقاوم في التدخين ، فلمحت على طاولة قريبة تلك المحارة التي

نستعملها كمنفضة ، وعلى حافتها ثمة سيجارة كانت قد أهملت في موضعها لتنطفئ ولم يُدخن منها سوى أقل من نصفها .

التقطتها ملهوفًا ، ومعها علبة ثقاب وجدتها في جوف الحارة ، لأشعلها من فوري وكأنني وقعت على كنز لا يقدر بثمن ؛ فقد مضت ساعات على آخر سيجارة دخنتها كادت تسبب في دق عنقي .

سحبتُ أنفاسًا متلاحقة ، وقد أغمضت عيني ، مستبقًا النشوة المرجوة ، بيد أنني وقعت أسير نوبة سعال أخذت بمجامع جسدي ؛ فقد كان تبغ السيجارة بالغ القوة ، من ذلك الصنف الذي ينحدر إلى الصدر مثل النار الكاوية ، مزلزلاً الحنجرة بالسعال ، مالئًا العينين بالدموع!

هكذا كان أبي : لا يعترف إلا بالأشياء التي تترك وراءها أثرًا ؛ فالقطرة التي كان يستعملها لعينيه كانت تسمى (قطرة برلين) وهي ، على عهدة من جازف باستعمالها مرة واحدة ، تحرق العين مثلما يحرق (التيزاب) اللحم الحي . أما الحقنة التي يزرقه بها الطبيب فلابد لها من أن توجعه وإلا فإنها لا تنال رضاه . وكذلك الأمر مع السجائر : لابد لها من إلهاب الفم والحنجرة والصدر قبل أن تخدر الحواس كما ينبغي!

كانت الفكرة التي تقلقني هي أن يداهمني النوم وأنا لم أجهز بعد على سيجارتي اللعينة ، مسببًا في نشوب حريق ، حتى انني حين جفلت على ذلك الضياء الساطع الذي أعشى عيني خيّل إليّ أن ما كنت أتوجس من حصوله قد تحقق ، بيد أنه سرعان ما تبين لي أن مصدر ذلك الضوء ليس سوى غرفة أبي ؛ فها هي أمامي على بعد أمتار تسبح في الضوء!

غالبتُ رجفة ساقي وأنا أنهض متخذًا سبيلي في ذلك الاتجاه وقد عقدت الدهشة لساني!

كان الصمت مخيمًا ، يتردد خلاله رنين تلك القطرات الراشحة

بوضوح غريب .

- من هناك؟!

صحتُ بفم متيبس لأتجمد على عتبة الغرفة المضاءة ؛ فأمامي ، على حافة السرير الجريدي ، رأيتُ أبي جالسًا ، وقد انطوى على نفسه ، ضاغطًا بكفيه على بطنه من فوق الثوب!

- ومن تريده أن يكون غيري أنا يا بني؟

أجابني حادجًا إياي من تحت حاجبيه الأشيبين بنظرة استنكار .

- كنت . . . كنت أحسبك قد . . .

ولم أكمل كلامي ؛ فقد بدا من غير المعقول أن أخبره بأنني كنت أحسبه قد مات في الوقت الذي أراه أمامي متكوّمًا على سريره بتلك الهيئة الغريبة!

- كنتَ تحسبني قد مت . . . أليس كذلك؟

فوجئتُ به يسألني بصرامة ، فأجبته مدافعًا عن نفسي :

- أبدًا . . . ما هذا الكلام الغريب؟ كيف خطر لك مثل هذا السؤال يا أبي؟!

لكنه لم يرحمني ؛ فقد صاح بي مقرعًا :

- لكنك كنت تتمنى موتي ، لا تنكر ذلك ؛ فقد قلتها ملء فمك صباح ذلك اليوم الذي اقتحمتَ عليّ غرفتي . أتتذكر؟ لقد أنساك غضبك الأصول التي أفنيت عمري في تعليمك إياها . ضاعت عبثًا الجلسات التي قضيتها معي وسط هذه الغرفة ، وأنا ألقنك كيفية تفكيك البنادق وتزييتها وإعادة تركيبها ، ضاع كل شيء بسبب أنثى!

توسلتُ إليه بصوت متهدج ، كابحًا بصعوبة دموعي عن الجريان :

- لم أكن في وعيي ؛ فقد حسبتها ماتت بسبب محاولتها الانتحار ،

فخرجت عن طوري!

– لكنني كنت أتوسل إليك! . . . أنا الذي لم أتنازل عن كبريائي يومًا ما كنت أرجوك أن تصفح عني لما حصل ؛ فهدفي كان تجنيبك التورط في ما لا خلاص لك منه ؛ فالزواج ليس بلعبة!

أجبته وأنا أبكي :

– ومن أوهمك يا أبتاه بأنني أدنتك لكي تطلب مني الصفح؟ لقد نسيتُ كل شيء مذ سمعت بخبر نجاة رؤى من حروقها . ولو كان قد توفر لدي قدر من الشجاعة لكنت قد جئتك لأرجو غفرانك . لكنني لم أفعل لأنني بقيت أخشاك . . . أرتجف فرقًا من تلك النظرة التي رميتني بها ذلك اليوم ، والتي بقيتْ تطاردني على مدار السنين ، مورثة إياي اليأس!

قال برقة لم أعهدها فيه :

– لكنك تأخرت يا بني . . . كان يكفيني أن أسمع هذا الكلام منك لأموت قرير العين . . . غير أن أوان ذلك قد فات الآن . . . انظر!

ورفع كفيه عن بطنه ، مفردًا أصابعهما في وجهي ، فإذا بهما ملطختان بالدم!!

– أبي . . . أبي!

صحوتُ من حلمي على صوت انتحابي وقد بللتِ الدموع وجهي ، فإذا بي لا أزال جالسًا على الأريكة ، يواجهني باب غرفة أبي الموارب ، والضوء يسطع من خلفه!!

ما الذي يحصل؟ ألا أزال أسير كابوس لا فكاك لي منه؟!!

تلفتُّ حولي بحثًا عن تفسير مقنع لما يجري ؛ فنومي المضطرب وأنا جالس على الأريكة كان قد بلّد حواسي . وكان ضوء الفانوس قد شحب بعدما أوشك النهار على الحلول .

نهضت لأتكئ من فوري على مسند الأريكة ؛ فالخدر كان قد سرى إلى ساقيّ ، وكان لابد لي من أن أجلد بقدمي الأرض ، تاركًا الدم يتدفق من جديد في شراييني وأوردتي . ولاحظت عقب السيجارة وقد سقط قرب إحدى قوائم الأريكة لينطفئ في موضعه .

لم أكد أقترب من باب الغرفة حتى جذبتْ نافذة المطبخ المضاءة بدورها انتباهي ؛ فأدركت أنه قد تم إصلاح العطب الذي أصاب محطة الكهرباء .

دخلتُ الغرفة مطبقًا الباب ورائي ، متطلعًا بأسى إلى محتوياتها المعهودة التي أضيفت إليها خزانة كتبي القائمة إلى يساري . ومن الحائط المقابل أطلّ أبي من صورته المعلقة إلى يمين صورة جدي ، متأملاً إياي بنظرته الغابرة التي زادت من وقعها عشرات البنادق المتراصفة تحتها على الحائط نفسه .

بقيتُ أبادل أبي النظرات مستعيدًا دقائق ذلك اليوم المشؤوم حين اقتحمتُ هذه الغرفة لا ألوي على شيء . وكان سماعي بخبر انتحار رؤى قد أفقدني رشدي وجعلني أحمّل أبي جريرة ما حصل . فوجئتُ به جالسًا على حافة سريره ، يدخن سيجارته ، وكل ملمح فيه يوحي بشعوره بالذنب ؛ حتى انه اكتفى برفع رأسه الحليق الذي تعلوه الطاقية البيضاء ، طالبًا مني الهدوء وهو الذي كان سيعمد ، في ظرف آخر ، إلى التقاط أقرب بندقية يجدها في متناول يده ليرديني برصاصة منها!

قلت له ، وجسدي كله يرتجف :

– أنا لم أقدم طلبًا للنصيحة ، بل جئتُ لأودعك ، لأقول لك وداعًا ؛ ذلك لأنك لن تراني بعد اليوم . . . وإلى الأبد!

صاح حادجًا إياي بنظرة وعيد :

– حذار . . . لا تتخط حدودك . لا تقدم على عمل يورثك الندم إلى الأبد!

– ما من أمر سيكون لدي جديرًا بالندم بعدما حصل!

وقف ببطء ليتطلع إليَّ بعينيه اللتين علتهما غمامة الشيخوخة . لحظتها بدا عجوزًا متهدمًا بشكل لا يصدق . لم أكن أدرك مبلغ كبره إلا في تلك اللحظة!

– لم أوافق على تلك الخطبة لصالحك ؛ فالزواج ليس بلعبة . إنه مصير أبدي لا رجعة لك عنه .

– شكرًا . . . فها أنت ذا وقد قررتَ مصيري!

رفع صوته ، ويده الممسكة بالسيجارة شرعت في الارتجاف :

– لا تنس نفسك . تذكّر أنني والدك .

أجبته وأنا أضحك بمرارة :

– وهل يسعني نسيان ذلك؟

– أحذِّرك من أن التوسّل ليس من شيمي . لا تضطرني للجوء إلى ما هو ليس من طبعي!

– لا مطلب لي عندك بعد اليوم ؛ فأعزّ ما طلبته منك تحول إلى كومة رماد!

قال برقة أرعبتني :

– لا تستعجل الأمور يا بني ، قد تكون حروقها بسيطة ، تشفى منها خلال أسابيع ، وحينها . . .

قاطعته بغلظة دون أن تأخذني شفقة بضعف موقفه وهو المستبدّ الذي اعتاد التحكّم في شؤون بيته :

– وحينها ستخطبها لي؟ أليس كذلك؟ أبدًا . . . لن أكافئك بمثل هذه

السعادة ؛ إذ لابد لك من أن تنال ما تستحقه . سأدعك أسير ندم سيتأكلك من الداخل . سأجعلك تفكر يوميًا مئات المرات كيف أنك فرّطتَ بابنك الوحيد . . . سأجعلك تتمنى لو أنك كنت متَّ قبل هذا اليوم!

صاح وقد خرج عن طوره فأخذ يتلفتُ حوله بحثًا عن شيء ما يضربني به :

– اخرج . . . اخرج من بيتي يا ابن العاهرة . . . . لا ترني وجهك بعد اليوم!

فأجبته وأنا أتقهقر بظهري نحو الباب :

– لن أخرج من بيتك وحسب ، بل سأخرج من حياتك . . . وإلى الأبد!

وصفّق أبي هذه المرة الباب ورائي صفقة بقي صداها يتردد في سمعي حتى هذه اللحظة!

مسحتُ دموعي وقد عدتُ أجيل ببصري على محتويات الغرفة : وكانت خزانة كتبي هي الشيء الوحيد الذي أضيف إليها ، في حين بقيتْ الأشياء الأخرى على سابق عهدي بها تتوزع بين خزانة قائمة إلى اليمين ـ تضم طبقاتها أشياء أبي الأثيرة إلى نفسه وأبرزها أدوات تجارته ـ وسرير يمتد إلى الأمام ، وبالقرب منه بضعة كراسي ركنت فوق واحد منها سجادة الصلاة . وكان صندوق جدّي الخشبي مهملاً في زاويته المعهودة .

كانت البنادق تشكّل أبرز معالم الغرفة ، تختصر كل واحدة منها حكاية جازف ذانك الرجلان اللذان تعلو صورتاهما الحائط بحياتهما في تسطير أحداثها : فتلك (المكنزي) ابتاعها جدي بنصف ثروته يوم سيق مع حملة (ابن رشيد) . وكان واحدًا من قلة نجتْ من بطش جنود (ابن

سعود) ومن عواصف صحراء القصيم المرعبة . وبقي محتفظًا بالبندقية نفسها بعد مرور عشرة أعوام على (دكة ابن رشيد) ، يوم أعلنت السلطنة العثمانية (السفربر) فاعتصم مع عشرات غيره في أدغال البساتين . ولم يتخل عنها حتى حينما سلّم نفسه للجندرمة على أثر إصدار الوزير التركي (أنور باشا) الأمر بإعدام (الأفرار) ؛ فقد أخفاها في موضع أمين .

وذكّرتني بندقية (الموزر) بتلك الرحلة الأسطورية التي غامر جدي في القيام بها ، مهرّبًا عشرات البنادق إلى ثوار (العشرين) ، والتي كادت تنتهي بإلقاء القبض عليه وقد أوشك على الوصول إلى بلدة (الكفل) محط رحاله ؛ فقد فوجئ بفصيل عسكري ، يقوده رجل مديد القامة كانوا يخاطبونه بلقب (الكابتن) . وكان الفصيل يتكوّن من خليط عجيب من جنود إنكليز بوجوه متوردة وعيون زرق ، وجنود هنود من (سيخ) و(كركه) تكاد جلودهم السمر المدبوغة تعكس لونًا أخضر ، وعيونهم السود تتلامع مثل عيون الأبالسة تحت عمائمهم . وكانوا يرتدون بناطيل قصيرة تكشف بشكل فاضح سيقانهم الملس النحيلة .

فوجئ جدي بذلك الفصيل يطوقه لينهمك جنوده بقرع التابوت المملوء بالبنادق والمشدود إلى ظهر بغل بأعقاب بنادقهم ، راطنين بينهم بكلام سريع غير مفهوم . وبقي (الكابتن) يرمق جدي بنظرة متشككة ليرطن في النهاية بكلام فسره أحد الجنود الهنود بعربية سقيمة أنه يسأل عن وجهته ، فأبدى جدي دهشته من ذلك السؤال ؛ فما من وجهة لـ (جنّاز) غير (النجف)!! . . فعاد (الكابتن) يسأله عن طريق المترجم ، مشيرًا بسبابته المصفرّة من أثر الدخان إلى (الموزر) عن حاجة (جنّاز) إلى تنكب بندقية؟ فأجابه جدي بأن ذلك يعود لأن الدنيا لم تعد مأمونة في تلك الأيام ؛ ولا يبعد أن يطمع فيه اللصوص وفي ظنهم أنه يخفي شيئًا ما في التابوت!

وحين لاحظ جدي تينك العينين الزرقاوين مصرّتين على التطلع إليه بنظرة مشككة ، أبدى استعداده لرفع غطاء التابوت برغم أن للموتى حرمة وذلك ليطمئن بالهم!

قالها على أمل أن يدعوه وشأنه . لكنه لسوء حظه فوجئ بالكابتن يأمره بالقيام بذلك ، فتقدم جدي من التابوت دون أن تهتز شعرة منه ، وقد وجد نفسه في مأزق لا خلاص له منه إلا بالمضي في الأمر إلى نهايته : فبادر من فوره إلى إخراج مطواة ، لم يكد يرفع بطرف نصلها أحد ألواح التابوت لتتسنى لهم رؤية القطن الذي كان قد لفّ به البنادق حتى بادر إلى إحكام اللثام حول فمه وأنفه . واستدار نحو الكابتن وكأنه تذكّر أمرًا كان قد غاب عن ذهنه ، طالبًا منه الابتعاد قليلاً والتلثّم بمنديله خوفًا من أن يكون الميت قد توفي بسبب الطاعون الذي كان قد تفشى في منطقته وبذلك يحمل خطيئتهم في عنقه!

ما إن نقل الجندي الهندي ذلك الكلام بلغتهم حتى تراجعوا من فورهم إلى الوراء ، متبادلين نظرات فزعة . وصاح الكابتن بجدي آمرًا إياه بالابتعاد بحمله الرهيب قبل أن يرديه برصاصة في رأسه!

وهكذا وصل جدي إلى بغيته ومعركة (الوارنجية) على أشدها!

وتخطيت عددًا من البنادق لأتوقف عند واحدة من صنف (الشريفية) ذات الخشب القليل ؛ ذلك لأنها أول بندقية امتلك أبي واحدة من صنفها حين التحاقه بالجيش متطوعًا ، وقد رافقته خلال ذينك الشهرين اللذين استغرقتهما (ثورة مايس) حين هرب (الوصي على العرش) من بغداد ليعود إليها بعد سقوط (الفلوجة) في يد الإنكليز ، ووصول قوات (كلارك) إلى (خان النقطة) إذ الحرب العراقية البريطانية التي استمرت ثلاثين يومًا كانت قد انتهت .

وكانت بندقية (البرنو) واحدة من البنادق الأثيرة إلى قلب أبي ؛ فقد كان يحمل بندقية من صنفها يوم سيطرت وحدات لواء المشاة العشرين على بغداد . وكان هو ضمن سرية متكونة من أربعين جنديًا ، هاجمت قصر (الرحاب) حيث وجهوا رشاشاتهم (البرن) الوحيدة باتجاه الباب النظامي للحديقة ، ممزقين صمت ذلك الفجر التموزي برشقات إطلاقات أصابت غرفة نوم (الوصي) الذي لم تسنح له هذه المرة فرصة للهرب والنجاة بنفسه ليعمد في ما بعد إلى إعدام الثوار كما فعل مع ثوار (مايس) ؛ إذ لم يكد الحرس الملكي يبادلهم إطلاق النيران حتى التحقت بهم تعزيزات جديدة بضمنها مدفع عيار (١٠٦) ملم أطلقوا منها ثلاث قنابل (بازوكا) حسمت الموقف لصالحهم .

وتخطيت عدة بنادق أخرى أحفظ حكاية كل واحدة منها عن ظهر قلب ، لأرفع وجهي في النهاية مبادلاً جدي وأبي نظرة اعتذار . وانسحبتُ مغادرًا الغرفة مطأطئ الرأس ، يملؤني شعور غريب بالخجل ؛ فقد بدوتُ دخيلاً عليهما ؛ لا يحقّ لي أن أدنّس بوجودي الطارئ عالمهما الراسخ الذي لولا مجازفتهما بحياتهما عشرات المرات دفاعًا عنه لما قامت له قائمة .

وتذكّرتُ ذلك اليوم البعيد حين علّق أبي صورته تلك على يمين صورة جدي ، مرددًا على سمعي نصيحته بألا أعمد إلى تعليق صورتي بدوري على ذلك الحائط إلا بعدما أتنازل عن حفنة من أجمل سنوات العمر ليحقّ لي التمتع بلحظات الفوز!

ولكن . . . هيهات . . . ما من صورة لي سأجرؤ في يوم من الأيام على تعليقها في ذلك الموضع ؛ فقد تفرّقتْ بنا السبل ، والطريق الذي اختطته بقلمي لنفسي يخالف الطريق الذي حاول سلفاي العظيمان تمهيده لي

ببنادقهما مخالفةَ الكلمة للرصاصة!

وجدتُ أمي في انتظاري في المطبخ ، وقد هيّأتْ إفطارًا مرتجلاً طلبت مني الإسراع في تناوله ؛ فقد مضى وقت طويل على شروق الشمس دون أن أتوجّه إلى الجامع لإعداده لإقامة مجلس الفاتحة .

أجبتها مازحًا وأنا أتطلع من خلال النافذة إلى نخلات أبي :

– يبدو أن التأخير أمسى من شيمي ؛ لا أتحرك عادة إلا بعد فوات الأوان!

لكنّ أمي أخذتْ كلامي ذاك على محمل الجد ؛ فقد أجابتني ، وهي تتنقل في أرجاء مطبخها ، تاركة يديها تؤديان ما هو مطلوب منهما القيام به ـ التقاط علبة ثقاب ، وإشعال إحدى عيون الموقد ، وفتح صنبور ، وملء وعاء بالماء ، ووضعه على النار ـ دون الاستعانة بعينيها :

– سبحان الله! . . . كأنك اللحظة نطقتَ بلسان أبيك ؛ فيوم قرأ له أكبر أحفاده تلك الأوراق التي ملأتها بكتاباتك ، أبدى أسفه لأنه اكتشف بعد فوات الأوان إجادتك للكتابة ؛ فسارع بعد أيام إلى عمل تلك الخزانة لتحمي كتبك من التلف والتمزق .

– أية أوراق هي تلك التي ملأتها بكتاباتي؟!

سألتها دهشًا ؛ إذ لم يسبق لي قط أن بعثتُ برسالة إلى أبي وأنا في بغداد!

أجابتني وهي تصب لنفسها الشاي :

– أوراق أخبره حفيده بأنها في ختامها ممهورة باسمك ، وجدها في صندوق جدك يوم اضطر إلى النبش فيه بحثًا عن حجّة تعود لقطعة أرض كانت موضع نزاع في زمن المرحوم جدك .

تركتُ ، وسط دهشة أمي ، إفطاري لأعود من فوري إلى الغرفة .

رفعتُ على عجل غطاء صندوق جدي ، كأنني أتوقع حصول معجزة ستنقلب بسببها حياتي رأسًا على عقب! . . . فأفعمتْ أنفي رائحة الورق القديم . وطالعتني عشرات المستندات والوثائق والحجج التي كانت قد تراكمت وتزايدت أعدادها على امتداد تلك السنوات التي انشغل خلالها جدي بقضية أرضه المتنازع عليها ، مراجعًا المحاكم نهارًا ، غارسًا الفسائل فيها ليلاً .

ولفتتْ بضع أوراق مطويّة نظري على الفور ؛ فبرغم قدمها بدت أحدث عهدًا من تلك الأوراق الرسمية المرقعة والمرممة بالصمغ .

التقطتها بأصابع مرتجفة لأبسطها بحذر تحت بصري ؛ فإذا بأول ورقة منها تحمل في أعلاها عنوان (طرس الكلام) تعقبه الآية الخامسة والثلاثون من سورة (النور) لتتلاحق بعدها الحروف والكلمات في سطور تملأ صفحات عديدة ذيّلتُ آخر واحدة منها باسمي!!

وتذكّرتُ من فوري ذلك اليوم الذي استقبلني فيه زملائي في المدرسة بنظرات إعجاب لا تخلو من غيرة وحسد ليقودوني محتفين نحو لوحة الإعلانات ، حيث عُلِّقَتْ قربها نشرة الحائط وقد تصدّرها موضوع درس الإنشاء الذي لخّصتُ به ما رواه أبي عن بستان جدي!

ولكن . . . ما الذي أتى بهذه الأوراق إلى صندوق جدي الخاص بمستندات أرضه؟

وجفلتُ هذه المرة على صدى صرير باب تردد في ذاكرتي منذ عقود من السنين ، وبعيني صبي نضج قبل أوانه رأيتُ جدي داخلاً بيتنا ، محمّلاً بخرجه المعهود المتخم بهداياه لنا ، فسارعت بمدّ هذه الأوراق له ، موضحًا أنني كتبت عليها قصة بستانه ، فاتسعتْ عيناه إعجابًا قبل أن يدسّها في جيبه ، قائلاً إنه سيستعين بمن يقرؤها له حين عودته إلى قريته!

يومذاك كان السؤال الذي أرّقني يتعلق بالمصير الذي ستنتهي إليه أوراقي تلك . كنت واثقًا من أن جدي سيتخلص منها حالما تسنح له الفرصة الملائمة .

أمسكتُ بالأوراق برفق ، خوفًا عليها من التمزق ، وقد حظيتُ بعد كل هذه السنين بأبلغ جواب عن سؤالي ذاك ؛ إذ بدا من الواضح أن جدي قد استعان بمن قرأ له تلك القصة ، فبلغ إعجابه بها الحد الذي لم يجد غير صندوق مستندات أرضه ـ التي جازف بحياته دفاعًا عنها ـ موضعًا جديرًا بها!!

قضيتُ دقائق في قراءة تلك الأوراق وقد اخضلّت عيناي بالدموع ، مبتسمًا بإشفاق للأخطاء الإملائية والنحوية التي كانت تصادفني ، مدققًا النظر في بعض الكلمات المطموسة بفعل القدم أو المشطوبة ، محاولاً أن أفقه مغزاها .

حين انتهيتُ من قراءتها وقفتُ لأبادل جدي وأبي نظرة متواطئة ؛ فها هو ذا طريقي يلتقي طريقيهما ، وكل ما هو مطلوب مني الآن هو أن أمتشق قلمي لأشرع في كتابة روايتي المنتظرة ، بادئًا إياها بذلك النداء الهاتفي المبتور!

إشارة

المعلومات الطبية مستقاة من كتاب (التنكيل بالعراق) تأليف (جيف سيمونز) - إصدار مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - ١٩٩٨

عبدالخالق الركابي

- أصدر تسع روايات ومسرحيتين طويلتين ومجموعة قصصية واحدة .
- فازت كل من رواياته (الراووق) و(قبل أن يحلّق الباشق) و(سابع أيام الخلق) بجائزة أفضل رواية عراقية في سنة صدورها .
- أختيرت رواية (سابع أيام الخلق) من قبل اتحاد الكتاب العرب ضمن أفضل روايات القرن العشرين العربية ، وقد ترجمت إلى اللغة الصينية .
- فازت مسرحيته (البيزار) بجائزة الدولة في العراق عام ٢٠٠٠ .
- أختير الروائي ضمن أربعة روائيين عالميين من أجل كتابة التاريخ العربي الحديث على شكل روائي في إطار جائزة قطر العالمية للرواية ، وقد ترجمت روايته إلى اللغة الإنكليزية والفرنسية والإسبانية وستصدر في السنة القادمة .
- كتبت عن رواياته أكثر من أطروحة ماجستير منها : (عبدالخالق الركابي روائيًا) لرحيم علي جمعة الحربي / جامعة الموصل ١٩٩٨ . (بناء الشخصية في روايات عبدالخالق الركابي) لعباس محسن خاوي / جامعة القادسية ١٩٩٨ . (تحليل الخطاب الروائي في أدب عبدالخالق الركابي / الثلاثية إنموذجاً) لماجدة المالكي / جامعة بغداد ٢٠٠٢ .
- كتبت عنه مئات الدراسات النقدية وقد صدرت عنه الكتب النقدية الآتية : (الركابي عراب اللاشعور الماكر) للدكتور حسين سرمك حسن ، و(ثلاثية الراووق / الرؤية والبناء) للدكتور قيس كاظم الجنابي ، و(أثر الزمن في خلق الدلالية في رواية سابع أيام الخلق) للأستاذ حسن كريم عاتي .

FILES OF SPEECH

رواية
NOVEL

أطراس الكلام عبد الخالق الركابي

◆ إنّها تقبع ورائي هناك ، في إحدى غرف تلك البناية ، قرب شجيرة الظلّ بطيئة النموّ ، تتأمّل وجهها في مرآتها الصغيرة ، واضعة آخر اللمسات على زينتها ، في حين تقبع أمامي ، على بعد مئات الكيلومترات ، فاجعة لن تستطيع زينة الدنيا كلّها التخفيف من بشاعتها ... مفارقة ليست وليدة اللحظة بالتأكيد ؛ فها أنذا أتذكّر جولاتنا الطويلة في شوارع بغداد ، عقب انتهاء عاصفة الصحراء وإعلان وقف إطلاق النار ، بأدقّ تفاصيلها . كنت كمن يتلمّس ، بأنامل راجفة ، جسده بعد نجاته من زلزال مدمّر قلب الدنيا رأسًا على عقب ، بحثًا عن أيّ جرح أو نزف فاته التنبه إليه في ذروة الفاجعة . كانت كلّ عمارة مصابة بقذيفة .. وكلّ نصب تذكاريّ شوّهته الشظايا .. كلّ جدار مال على جنبه متهدّمًا .. كلّ سقف انبطح ملتصقًا بالأرض .. كلّ منشأة صناعيّة تعطّلت عن أداء مهمّتها .. كان كلّ ما خلّفته الحرب وراءها من دمار ، في كلّ حيّ من أحياء بغداد ـ سواء في الكاظميّة أو الأعظميّة أو الوزيريّة أو باب المعظم أو السنك أو الباب الشرقيّ ـ جرحًا ينزف ملء روحي .. لم أكن أبكي بطبيعة الحال ، إنّما أشعر بأنّ ما يجري في عروقي محض دموع لا دماء ، وكانت أسماء تشاركني تألّمي دون شكّ .. يحمرّ أنفها المرهف انفعالاً ، وتترقرق الدموع في عينيها السوداوين . لكنّها لم تفتها ملاحظة الأزياء الجديدة وهي تزهو على أجساد المانيكانات المنتصبة برشاقة خلف الواجهات الزجاجيّة . كنت على ثقة من أنّ سائق أبيها سيمرّ ، بعد يوم أو يومين ، على تلك المحلاّت ليقتني لها ما أثار إعجابها .

ISBN 978-9953-36-277-7
9 789953 362779

